

بجسماء الغيط في حواء

البريد كارت



دار الشروق

الزبيبيات

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت، دار التماس - شارع سيده صيد كايما - مكتبة صفاء ع. ب. ١
٨٠٦٤ - بيروت، داس شروق - شاكس ٤٨١٧٥ SHOROK - هاتف ١
٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٤١٢ - ٣٠٧٩٨٤ - ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة، ١٢ شارع جواد حسني ت. ٢٩٢٩٣٢٣ / ٢٩٣٤٥٧٨ فاكس
٢٦٣٤٨١٤ - شاكس ٩٢٠٩١ SHROK UN - شارع سيدي
المصري، مدينة نصر، ت. ٢٢٣٣٩٨ - ٢٦٣٣٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧

جسمان الغيطاني

الزبيبيات

دار الشروق



رجب ٩٢٢ هـ
أغسطس الى سبتمبر ١٥١٧ م
(مقتطف «أ» من مشاهدات الرحالة
البندقي فياسكونتي جانتني، الذي
زار القاهرة أكثر من مرة في القرن
السادس عشر الميلادي أثناء طوافه
بالعالم.

تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة
خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادية،
الموافق رجب ٩٢٢ هـ).

«لكل أول آخر ولكل بداية نهاية»

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام، وجه القاهرة غريب عني، ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة، أحاديث الناس تغيرت، أعرف لغة البلاد ولهجاتها، أرى وجه المدينة مريضاً يوشك على البكاء، امرأة مدعورة تخشى اغتصابها آخر الليل، حتى السماء نحيلة زرقاء، صفاؤها به كدر، مغطاة بضباب قادم من بلاد بعيدة، أذكر قري الهند الصغيرة إذ يدركها الوياء، يثقل هواؤها بالرطوبة، الليلة، تنتظر البيوت أمراً قد يأتي غداً أو بعد غد، أصغي إلى وقع حوافر تصطدم بحجارة الطريق، تبعد، تنأى، أطل من مشربية البيت محاذراً أن يراني أحد، أطل والظلام يلف البيوت، لا أرى مثذنة جامع السلطان الغوري الجديد، لم تمض سنوات على بنائه، لم أره عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلي الطويل إلى الشرق، سمعت باستعدادات تجري لبنائه، تشييد القبة الضخمة المواجهة له، أطل برأسي قليلاً، أخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب، إذ يجدوني أفرنجيا، يدفعون بي إلى الموت بلا محاكمة، لا استجواب، لا سؤال، من أنا، من أين جئت!! لن تتاح الفرصة لأخبرهم، لأقنعهم، إنني أعرف الوالي الأمير «كرتباي» معرفة شخصية، بل انني أصغيت مرتين إلى متولي حسبة

القاهرة، الزيني بركات بن موسى، إنه صاحب مناصب عديدة أيضاً، ومسئول عن حفظ الأمن والنظام، لورآني سيتذكرني، أعرف أنه لا ينسى وجهاً عابراً رآه مرة واحدة، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام، على أية حال سأبقى الليلة، بالتأكيد لن أنجو من العسس، المنسر، الممالك، بيوت المدينة كلها مغلقة، مرعوشة تود لو توارت، تنفي إلى الأمان المرجو، شموع بيتي مطفأة، أخشى تراقص الضوء في أحداق العيون المتلصصة، قبيل العصر مشيت من الحسينية، في صدري نفس الحنين الذي يبيثني كلما نزلت بلداً، كلما عدت إلى مدينة زرتها من قبل، أقضي أياماً قبل اتصالي بمعارفي من أهلها، أجوبها من أعلى إلى أسفل، أسعى وراء أخبار من أعرفهم، أرثي الذين ذهبوا. أرى اليوم الذي فارق فيه الواحد منهم دنيانا، أسأل نفسي، أين كنت عندئذ؟؟ في أي مدينة؟؟ ألقى البعض صدفة، أفتح ذراعي على عادة أهل البلاد، أقبل كتفه ويقبل كتفي، أراجع لأتأمله، أعود لأحتضنه من جديد، أذكر أنه لم يتغير إن كان متقدماً في السن، أن الصحة تطل من عينيه، يغمغم بحمد الله ويشكره، يحلف أيماناً مغلظة ليصبحني إلى داره فأمضي، نجلس في غرفة الضيافة، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل، تتوسطها نافورة صغيرة أرضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف، لكن اليوم طال تجوالي، لم ألق واحداً من أصحابي القدامى، ربما تغيروا، سمعت من العامة أن كثيراً من أعيان الناس، والمشايخ، نقلوا الثمن الغالي من ثيابهم وحوائجهم إلى الأماكن البعيدة المجهولة، رحلوا عيالهم من الأرياف، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات وفساقي الموتى، سمعت بكثرة الإشاعات، كل إنسان يقول ما يحلو له، أي شخص يدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه، وطالب البعض بضرورة تدخل الأمير طومانباي نائب الغيبة لإسكات الألسنة، قال البعض هذا

مستحيل فانقطاع الأخبار معناه أن حدثاً فظيماً لا نجرؤ على التفكير فيه وقع، صاح البعض، وهل يقع فعلاً ما لا نجرؤ على الظن به؟ لا يمكن، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته، كل فارس منهم مقوم بألف من العثمانلية وكما غلبهم الأشرف قايتباي فلا بد من هزيمتهم على يد الغوري، يقول آخر، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة، لم تدق البشائر، ولا الطبلخاناه، كيف نصدق أن شيئاً لم يقع، لم يحدث، حتى الأمور هنا مضطربة، في المقهى عدل رجل وضع عمامته، سأل، هل رأى أحدكم الزيني بركات بن موسى منذ أول أمس؟ نزل صمت معبق يحذر، أسندت وعاء الفخار الساخن، لم أشرب إلا رشفة من الحلبة، ما الذي جرى للزيني بركات بن موسى؟ إذا لم يجر، فأني إشاعات تتردد حوله؟ نظر إلى صاحب السؤال، خمنت أنه ربما يعمل في خدم جامع، يتاجر في الكتب القديمة، ربما طالب يدرس العلم في الأزهر، لهجته، أسلوبه، يوحيان بمهنة من هذه، كلما رأيت رجلاً لا أعرفه، أسأل نفسي، أي مهنة يعمل؟؟ في أي مكان أقام؟ الصين، الهند، أو صحارى الحجاز، طال سكوته، قال أحد الحضور، فعلاً لم نره منذ ثلاثة أيام، قال آخر. . بل خمسة، كل منهم يقطب جبهته، يحاول التذكر، حتى أنا قلت لنفسي، فعلاً لم أر الزيني خلال الأيام التي قضيتها هنا، الزيني يراه أهل القاهرة يومياً، ولو مرة واحدة، تدق الطبلخاناه أمامه، يمشي السعاة في ركابه، الزيني دائم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب أوكار الفساد، مشي الناس في الطرقات، له قواعد لا بد من مراعاتها، الالتزام بها، أحياناً يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك في بعض الفترات، آخر زيارتي لمصر، رأيت الزيني بركات قوياً عفيفاً، لا أدري كيف صارت به الحال؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حقاً، رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة

الحلوى، والأجبان، والبيض، يقف وقتاً طويلاً مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والأرانب والبط، يسعر الأصناف بنفسه، يجرس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء الناس عنه، حبههم له، أذكر ما كتبت عنه بعد لقائي الأول به، رأيت رجالاً كثيرين، بربرا وهنوداً وإيطاليين وحكاماً من بلاد الغال والحبشة وأقصى شمال الدنيا، لكنني لم أر مثل بريق عينيه. لمعانها، خلال الحديد تضيقان، حدقتي قط في سواد ليلي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها، عبر صمتها المطبق، لا يرى الوجه والملامح، إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر، يكشف المخبأ من الآمال، حقيقة المشاعر، في ملاحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبة، سألتني عن بلاد رحلت إليها، كيف أقمت فيها؟؟ كيف تعاملت مع أهلها؟؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة؟؟ أستفسر عن العدل في الرعية، وطرق البريد في الهند، وذكر أسماء مشايخ في جدة ومكة، وأعيان من دمشق، قلت انني لم أذهب إلى جدة لكنني زرت مكة، وأقمت في دمشق، كتب لي أسماء وعدته بالسؤال عن أصحابهم، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه، حدث أن أرسلته جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به، قيل انها لم تتجاوز الخامسة عشرة، اشتراها من سوق الجوارى رجل كبير السن، يعمل في استقطار ماء الورد، ضخم الجثة، نهم، كثير الأكل، كثير النكاح، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسنة، تفرغ لها تماماً، هجر معمله، لم يعد يخرج من بيته، لا يمضي إلى الصلاة، بل يأتيها كابن العشرين في أوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل، حتى زعموا - وأظنه تشنيع من العامة - أن صواتها يعلو خارج البيت، فيسمعه المارة بوضوح، يبدأ حاداً، يسمع جري أقدام، يسود صمت لا يستمر كثيراً حتى يعود بعد قليل من جديد، شهد الجيران بهذا ورقوا لها، تساءلوا

فما بينهم متى تنام البنت إذ أن صوتها لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، قالها الرجال بحسد، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذي لم يفتح أسبوعاً كاملاً، وصار الشبان يرقبون المشرييات، وإذ تعلو صرخات البنت، يتضاحكون ويتغامزون، ويشد بعضهم شعر بعض، وقال سقاء يحمل الماء إلى البيت - استدعاه الزيني إلى الشهادة - انه سمع باذنيه صراخ الجارية في الحرمك، قال انه رآها مرة تطل من نافذة المشريية المظلة على فناء البيت الداخلي، منفوشة الشعر، خرج يهز رأسه متعجباً عما رأى، المهم أنها عندما استغاثت بالزيني بركات، أرسلت له خادماً صغيراً، قام الزيني لفوره، شاور العلماء في الأمر، تباحت معهم، وأففى شيخهم بصحة ما ينوي الزيني القيام به، هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل - إسمه العطار فيما أذكر - كبس البيت، هاج الرجل وصار يزعم غاضباً، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم، قبض عليه الزيني، أمر ببطحه أرضاً، كشفوه فقبل انهم روعوا لمنظره، وأقسم شيخ الحنفي أنه لم ير شيئاً كهذا في حياته من قبل، قال الزيني، البنت تصغرك بأربعين سنة، أليس حراماً أن تؤذيها . وبهذا أيضاً؟ ضربه خمسين عصاً، ثم أمره باعتاقها، وفعلاً، أعتقها الرجل مرغماً، لكنه لم ينس ما فعله الزيني به، أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت، بدأ يظهر في الحارات زائغ العينين، ممزق الثياب، ريقه يسيل، يبحث عن شيء مجهول ضائع، لا يذكرها باسمها، إنما ينادي شيئاً يرفض الإفصاح عنه، كلما ظهر في مكان صاح عليه العامة، ضربه على موضع عورته، ضحكوا وسخروا منه، بينما تدور عيناه، تبحثان عن الأمر العزيز المفتقد، وسمعت ممن أثق به، أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت، لم يتزوج، طوال حياته، يعول أمه وأخوته، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيداً، بدأ يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة أعوام عديدة، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية،

بيضاء كطبق الفضة، نهذاها كرتان من الملبن، لهما ملمس الحرير، حلم بها سنوات حتى عثر عليها، لم تطل فرحته بها، أخذوها منه، انتزعوها انتزاعاً، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر، اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك، ورأى فريق آخر، أنه تدخل في أخص أمور الناس، وأن أحداً من الخلق لا يأمن على بيته، أو عياله بعد الآن، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغاثة البنت بالزيني بركات، إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجري في البيوت والزوايا، قيل أيضاً أن العطار مظلوم وليس عنيفاً، وتساءل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهية العطار، البنت فعلاً لعوب وكرهته، استغاثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفي عندها، وبقي شعور خفي بالرهبة في أعماق الناس، تعجبوا لمهارة المحتسب، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التي تخص البيوت، وهذا ما لم يتفق لغيره قط، قيل بوجود فرقة خاصة من أشداء البصاصين تتبعه شخصياً، لا يعرف من رجالها مخلوق، أين يعيشون، كيف يعملون، هذا أمر خفي لا يدري به إنسان، وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصي السلطنة التي يرأسها رجل عتي معروف، المهم، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة، رأيته بعيني وهو يلف الحواري، يقف بين الحين والحين، يزعم في الفراغ منهاً بالسباب والشتائم على شخص لا يذكر اسمه أبداً، وقيل أنه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يومياً قبل نومه، ويتلو عليها تعاويذ خاصة، وظل على حاله حتى كان من أمره ما كان، وما سنذكره في حينه، أعود إلى الدجال في دكان الشاي، تساءلوا فعلاً عن السر في اختفاء الزيني؟؟ تعجب كل منهم كيف فاته الأمر، اختفاء الزيني حدث غير عادي، انها الأيام المضطربة التي ينسى فيها الإنسان نفسه، ألم يذكر

أحد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية، آن أوان الريح التي تهب قبل القيامة ستكنس كل شيء، ريح يرسلها الله عز وجل، يمانية ألين من الحرير وأطيب من نفحة المسك فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخالق، أو الحق أو العدل، تبعد الأب عن بنيه، والأخ عن أخيه، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون ديناً أو ديانة، وهم شرار خلق الله، وعلى هؤلاء تقوم الساعة، تباكي الرجال في المسجد، وصار كل منهم يعانق صاحبه، وعندما خرج البعض إلى الخلاء، خيل إليهم أنهم يشمون رائحة طيبة، فيها نفحة المسك، جهروا وأعلنوا، زمن الهلاك آت لا ريب فيه، فزعوا، هلعوا، وهكذا، فمثل هذه الأيام، ينسى فيها المرء أموراً جساماً لا يتكرر حدوثها، كأن يمضي يوم بأكمله، لا يظهر الزيني بركات بن موسى في طرقات القاهرة، ولا يتبته أحد، قال الطالب الأزهري - كما ظننت - أعرف أن الزيني اختفى في مكان لا يعلمه إلا القلائل جداً..

سكت ليوحي، أو يبدو واحداً من هؤلاء القلة. قال الحضور..
- أين يا منعيد؟

- إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجائهم إلى القاهرة..

اتسعت آذانهم، رأيت الزيني بعيني عقلي، يجلس في مكان خفي، تنبئه الأيام بأحداث جسام، نواب يدخلون ويخرجون، يرسلهم إلى شتى البلاد، والمعازل البعيدة للعربان في الصحراء..

تساءل أحدهم:

- كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب؟؟
- عندما كان الزيني يسافر لمدة أسبوع، بمجرد أن يخطو خارج


القاهرة ترتفع الأسعار، يفعل كل إنسان ما يحلوه، فما بالك وقد
اختفى الآن؟

قال سعيد:

- أبدأ.. عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده.. ولا تنسوا
الشهاب زكريا..

صمتوا، في العيون رجاء أخرس، خوف موغل في الأعماق، في
الطريق على مهل أليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من
أعناقهم بسلاسل حديدية، يبدو أنهم متجهون إلى سجن من
السجون، أخرج طفل لسانه مرات عديدة، دق طبل بعيد، ربما يغادر
الفلاحون عالمنا بعد قليل، مشيت قريهم، عيونهم زائغة، يتمنون لو
احتوا كل ما يربهم، نفس ما رأيته في طنجة، طابور رجال يعبرون
أسوار المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهلاك
الأبدى، في العيون نفس النظرة، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام في
تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندي، يرجو من الناس إعادة النظر في
أمره، أن يلحقه طائر رخ فيطير به، العينان تقولان المعنى نفسه، أن
يعلم الإنسان أنه بعد خطوات، بعد مسافة زمنية معينة، لن يفتح عينيه
أبداً، تضيق منه المعالم والأشياء ربما أموت بعد لحظة، أجهل هذا،
لكن أن أعرف تماماً، أعلم بمفارقة الدنيا في لحظة معينة، هذا ما يطبع
الوجوه بنفس ما رأيته، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجهله، ما من
منقذ، ما من مُنَجِّ، ما من معجزة مأمولة، أرى الرجال الماضين إلى
الموت، أذكر خروجي من بلد إلى بلد، رحيلي الدائم، أذكر من
سبقوني، رجال خرجوا من البندقية، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين
عاماً، ربما مات الإنسان في بلد تبعد آلاف الفراسخ، مشيت وفي نفسي
خوف، كل ما أراه يجسد رعباً، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عن

نفسه ، القاهرة منفية عن بيوتها ، مشيت حذراً ، بالأمس نزل المماليك من القلعة ، توجهوا إلى خان الخليلي وكادوا يحرقونه عن آخره ، ضبطوا تاجراً رومياً - ورومي تعني التركي العثماني - يجمع الأخبار ، يرأس ابن عثمان بأحوال الخلق ، عندما أمسكوه كاد العامة يمزقونه ، غير أن بعض البصاصين التابعين لذكرياً بن راضي كبيرهم ونائب الزيني تحفظوا عليه ، وأبقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر زملاؤه الآخرون ، وسمعت من يقول بإعدام الوالي كرتباي في جب القلعة سراً ، ولم يتأيد هذا ، وارتج الناس عندما سرت أقاويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشام ، جاء عبر دروب التيه في الصحراء ، طلع إلى القلعة واجتمع بنائب الغيبة ، ونقل إليه أخباراً مفزعة ، مؤداها أن جيش السلطان هزم في مكان قرب حلب ، ولم تعرف التفاصيل ، يقولون : أمتع اللحظات التي يذكرها الرحالة فيما بعد ، لحظات تتغير فيها الأمور والأحوال ، معاناة وقوع الأحداث الكبيرة ، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن ، أقول بعد سنوات ، بعد مشاهدتي بداية حرب ، وقوع طاعون ، شهدت بعيني ما جرى ، ما حدث ، عند الغروب تابعت الطريق ، أيد ضخمة خفية تسحب الناس وتلقيهم داخل البيوت ، أشم هواء لم أعرفه إلا في «حيدر اباد» بالهند عندما فاجأها وباء عفى أفنى وأهلك ، بقيت محاصراً بطاعون جلف سنة كاملة ، أولد في كل يوم مرات عدة ، أرى القاهرة الآن رجلاً معصوب العينين ، مطروحاً فوق ظهره ، ينتظر قدراً خفياً ، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت ، تتقارب رؤوسهم الآن ، يتهامسون الآن ، يتهامسون بما سمعوه من أخبار ، النداءات مجهولة ، الوقت يمضي ولا يمضي ، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب الفجر ، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكاً واحداً يصبح .



السراشق الأول
ما جرى لعل بن أبي الجود
وبداية ظهور الزيني بركات بن موسى
(شوال ٩١٢ هـ)

أول النهار

وفيه تغرق البيوت في نعاس طري، تتأخر الشمس في الوصول إلى حوارى الحسينية، الباطنية، الجمالية، والعطوف، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وأبراج قلعة الجبل، جماعة المماليك التي تخترق شارع حدرة البقرة لم يخرجوا من القلعة، خرجوا من بيت الأمير قاني بأي الرماح أمير الخيل السلطانية، عبروا الخليج، نزلوا على مهل إلى باب اللوق، أشرعوا سيوفهم في وجه النهار المقبل، السقاءون الذين قابلوهم قرب باب اللوق، أول من يستيقظ في المدينة، يحملون الماء من النيل إلى البيوت، يجهلون مقصد الفرسان، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترايبية صغيرة، تسرع خطوات الجمال مثقلة بقرب المياه البنية اللون، يخفت همس السائقين، يبقى في أذهانهم انطباع خفيف كأثر ضربة المجداف في مياه ترعة هادئة، ينسل المماليك أول النهار، تبدو البيوت، أيام ما بعد عيد الفطر، دائماً يركب الخمول هذه الأيام التي تعقب الأعياد.

* * *

علي بن أبي الجود، لا يصحوا إلا بعد مضي ثلاث ساعات من النهار، دائماً ينام متأخراً، بعد عودته كل ليلة من القلعة، يجيء نوابه، يراجع معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المنقضي، قرب الفجر

يصرفهم ، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة ، ثم يمضي إلى إحدى زوجاته الأربع ، أو جواريه السبع والستين ، منذ شهر اكتمل عددهن سبعة وستين ، بعد مجيء واحدة حبشية ، وأخرى رومية ، علي بن أبي الجود لا يخطيء طريقه إلى من اختارها لقضاء ليلته ، يخطر لها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفذ إلى أنفه عطر ، رائحة ثياب ممتزجة بعبير أنثى ، كل درجة يعلوها فوق السلام القصيرة ، التي تنتهي بها هذه الطرقات فجأة تبعده شيئاً فشيئاً عن ضجيج النهار الراحل ، ما أستمع إليه ، ما أضافه إلى سجلاته ودقاته ، ما بلغه من شائعات ، أحاديث تتردد عنه هو بالذات ، ما يردده الأمراء والعوام على السواء ، الليلة عندما دخل إلى حجرة «سالمة» امرأته الثالثة ، بدأت تخلع عنه ثيابه ، عباءة زركش سوداء حفت بالقصب والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشعشع لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمو الألو ، سمح لعلي بن أبي الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحني بها أمام السلطان ، يجالس الأعيان ، يشق بها في المواكب ومعروف «لم تخلق العمام الكبار لأي إنسان» لا يجرو أي شخص على لبسها في حضرة من له المقام ورفعة الشأن ، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد ، يوقظ النميمة ، يحرك الدسيمة ، علي بن أبي الجود لا يبالي ، يعتمد التجول بها ، وتحسسها ، وإبرازها ، وإمالتها إلى الخلف ، وإلى قدام ، بالذات في أوقات حديثه إلى الأمراء الكبار ، حذره بعض الأصحاب ، ألا يزهو أو يختال بعمامته في حضرتهم ، لكنه لا يعنيه أمرهم ، يحرص جداً على معرفة كلامهم عنه ، تعليقاتهم عليه ، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لفوره إلى القلعة ، يضيف ويبدل في الكلام ، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله ، ولا يخفي ما فعل ، بل يتجاهر به ، ويفيض في الحديث ، كيف أصغى السلطان إليه ، كيف ربت كتفه وعطف عليه ، الليلة ، فيما يبدو أخطأ نواب علي بن أبي الجود ، لم

يذكروا له وقوع أي حدث غير عادي ، فيما بعد ، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار ، بالذات في بيت الأمير قاني باي أمير الخيل السلطانية ، ولمح العامة ، بل أوضحوا وصرحوا إلى زكريا بن راضي أحد نواب علي بن أبي الجود ، وكبير بصاصي السلطنة ، أنه لم ينقل ما يعلمه إلى علي ابن أبي الجود ، هذا ما جعله ينام راضياً ملتصقاً بزوجته الثالثة سالمة ، سالمة أيقظتها حركة غير معهودة ، أقدام تسرع ، أبواب تفتح ، صيحات بعض الحريم الخافتة ، الأصوات تصل إلى هنا متسلخة ، غير واضحة ، تختلط وتضيع معالمها ، ساقية ترفع مياهاً ، تدور وتصر أخشابها القديمة ، أمطار تلمس أرضاً جافة ، قارب يتأرجح ، حوافر تعدو ؛ تعدو ، ماذا يجري بالضبط ، إيقاظه قبل الأوان صعب ، «سيدي علي» «سيدي علي» يتقلب ، أوان تسقط يصرخ طفل ، تسقط كتلة خشب ، تتساقب دقات قلبها ، تصغي ، وقع أمر ، ما هو ؟ لا تدري ، فجأة ، يتدفق دمها مدعوراً في عروق أرجفها رعب ، لم تشعر باستيقاظه المفاجيء ، إصغائه ، جفاف ريقه ، أما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجلدي الأسود ، الذي يغطي قصبة الساق ويلم السروال .

* * *

من بوابة الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية ، خرج مناد غليظ الصوت ، يعرفه الناس ، في اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيته القريب من قصر الأمير قوصون الدوادر ، قرب حارة بير جوان ، يتجه إلى العطوف ، إلى الحسينية ، إلى حارة الروم الجوانية ، هواء خفيف عذب يحمل إلى الأذان دقات طبل وأصوات منادين آخرين ، نداءات توقظ النيام ، تفك تلامس الجفون ، عمال الحمامات يخرجون ، عمال المستودعات المجاورة ، باعة لبن ، باعة فول ، يتوقفون ، تصغي الأذان ،

النساء يصحن مناديات بعضهن البعض ، بائعة بليلة تزقق في حارة الميضة التي فتحت بوابتها منذ قليل ، فجأة لا تنادي المرأة على البليلة ، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع ، الرؤوس تطل من الأبواب الصغيرة في الحجرات الصغيرة داخل الربوع الضخمة ، أطفال صغار ، أطراف جلاليتهم بين أسنانهم ، يسرعون إلى أين بالضبط ؟ لا أحد يدري ، تلتو زغرودة في الهواء أطلقتها امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جداً ، جاوبتها أخرى ، ثم زغاريد ، نساء حافيات خرجن من العطوف ، الجودرية ، السكرية ، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن ، يصفقن ، يواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة .

* * *

سعيد الجهيني

من داخل رواق الصعايدة في جامع الأزهر يصغي سعيد الجهيني إلى ضجة الخلق ، نافذة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية ، تتدافع الأصوات إليه ، أخيراً . . أمسكوا علي بن أبي الجود ، رسموا عليه ، بالأمس قبيل المغيب رأيت الجموع موكبه ، هل جرؤ واحد على الظن وقتها أن نفس الطرقات ستشهد مشهراً مجرساً فوق حمار أزعر ، لا ذيل له ، الناس تسد الشارع كالجراد المنتشر ، في القلوب غل رأى الفرصة فانفجر ، سعيد يراه الآن بعيني عقله ، ها هو يمتطي حصاناً عليه كنبوش مذهب ، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء ، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه تدق أمام أي أمير . ها هو يمشي في الطرقات مترجلاً ، يحفه حرسه الأشداء ، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح ، ألحق الضرر بالمسلمين ، ملح الطعام عز وجوده . علي بن أبي الجود يمشي لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه في وجهه ، عمامته تذهل الأبصار ، لم تمض ساعات ، ها هو يركب حماراً بالقلوب مبهدل

آخر بهدلة، يلطمه الصغير والكبير، النساء يبصقن عليه، الرواق خال تماماً، كلهم خرجوا، في الهواء رائحة رطوبة، وخبز جاف مكوم في أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قائمة الجدران، أدخل قدميه في النعل القديم، لا بد من طلوعه إلى مولاه الشيخ أبي السعود، يمضي إليه في كوم الجارح، يتبادل معه الحديث، يصغي إلى رأيه فيما جري وما حدث، صحن الجامع الكبير يشغي بالمجاورين وطلبة العلم، فعلاً، لا بد من مضيه إلى مولاه أبي السعود، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامي الكبير القريب من باب زاوية العميان، يحس الأرض الصلبة يعود قش، سعيد يرقب ما تحي به الأيام بحذر، لا يخفي أبداً فرحته بزوال هذا الظل الثقيل، لكن ماذا تأتي به الأيام؟؟ بل ماذا يخفي اليوم نفسه؟ ربما انتهى الأمر بفتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شأن، تغلق أبواب وطيقان، تشعل حرائق في البيوت، تهدم مساجد وزوايا، من يدري؟ ربما جاء من هو أعنى وأقسى؟ هنا ضرب سعيد عود القش فانقصم، نفض يديه، عزل علي بن أبي الجود فيه رحمة بالعباد، ضج الناس وهاجوا، سعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين هنا منذ ثلاثة شهور، مال عليه عمرو بن العدوي، أخبره بما يضره، ضاق بما يأتيه على ابن أبي الجود في حق الخلق، المظالم المستجدة في كل يوم، عمرو يعلم تماماً ما يفعله الظالم، يخلو إلى نفسه ساعتين في كل ليلة، يفكر في طرق جديدة للمظالم، يختلق فنوناً جديدة لتعذيب ضحاياه، بل قيل بين الناس أنه أوصى زكريا بن راضي عليه سخط الله وغضبه بالبحث عن طرق جديدة، لإنطاق الضحايا والمساجين، أساليب لا يحلم بها إنسان، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل، فقيرة لا ظهر لها، ضربها بين يديه بالمقارع، أحرق أطرافها بالقطران حتى رمت ما في رحمها ولداً ذكراً في ستة شهور، لم يكتف علي بن أبي الجود بهذا بل شنقها عند باب زويلة،

لماذا، هل تدري يا سعيد لماذا؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبيع قفة بها ثمار العجور، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور، مال عمرو هامساً «نويت قتله» ارتجف سعيد، نظر في عتمة المغيب إلى عيني صاحبه البراقطين، جف ريقه، أطرق وعاد النظر إلى صاحبه، كرر عمرو «سأقتله لأريح الخلق منه» في تلك الليلة عينها بصق الشيخ أبو السعود ومضمض فمه بماء عذب، أصغى سعيد إلى صمت وديع يترقرق كماء الورد في أنحاء الزواية، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوي صامتاً.

«هل أتجنبه يا مولانا؟».

«لا، لم أقصد هذا، إنما الحذر واجب، من يريد قتل إنسان كعلي بن أبي الجود لا يعلن نيته...»

في الرواق راح سعيد يرقب صاحبه، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة، يحاول العثور في تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ أبي السعود، إذ يتحدث إليه، يتتقى ألفاظه لا يتطرق إلى نقد أمير أو كبير، يراه سعيد متجهاً إلى البيت القائم قرب المقطم، يخلو إلى زكريا بن راضي، لا، ليس زكريا نفسه، إنما أحد نوابه، طالب علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذي ترتعد لذكره النفوس، عمرو ينقل ما قيل، تحيء الأيام التالية برجال غرباء، يسألون خفية عن سعيد، يتبعه بعض المستصنعين لزكريا، يجهلهم لكنهم يعرفونه، يرصدون خطوات قدميه، الحارات التي يطؤها، ضحكاته، لحظات شقائه الخفي، فرحه وبهجهته، في لحظة معينة، لحظة يجيئون فيها كمصيبة، رعد أول الشتاء يفاجئ أهل مدينة آمنة، يمد أحدهم يده، يلمس كتفه، يلفظ لفظاً واحداً، يساق إلى سجن زكريا بن راضي، ينوعون له العذاب تنويعاً، يلقونه في سجن كبير، العرقانة، الحب، المقشرة، تنسل أيامه، ينسى خبره، يفنى

ذكره، يضيع أثره، سعيد يبدو مهموماً يسمع بشئ عبيد، قطع يد سارق، إشهار امرأة ضببت تسرق رغيفاً، تقطع يدها اليسرى، أو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، لماذا يحدث هذا كله، لماذا؟؟ تعلق الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان، حلقات غليظة في سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب، تسيل النخاع، تحفف ماء الحياة يود لو يزق من فوق مثذنة الأشرف قايتباي بالأزهر، يوقظ بيوت العامة الفقراء، منازل الأمراء، توخر عينيه أسوار قلعة الجبل، يرفع يديه، يطلق آذاناً طويلاً لا رجعة فيه، يسب كل ظالم أثيم، يرى بعينه زكريا بن راضي مخوزقاً بجوار باب الوزير، سعيد لا يود أن يمضي بين الناس إلا زاعفاً، راجفاً منحدراً من أمور تأتي، في كوم الجارح يهدئه الشيخ أبو السعود، الصالح، الطيب المنجب، النجيب، العارف بالأصول والفروع، دار ولف الدنيا، أقام زمناً بالحجاز واليمن، عرف لغة الهند، ولهجة الأحباش، عالج أمور المسلمين في فارس، وناقش علماء الأناضول، رأى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية، يصغي سعيد إليه، تغيب عنه لحظة دائماً يتوهمها، لحظة يضع فيها أحد المستصنعين البصاصين يده فوق كتفه، يضحك كاشفاً صفيين من أسنان صفراء.

«تسمح معانا»

الآن، علي بن أبي الجود نفسه مشكوك في الحديد؛ لتعرف البهجة طريقها إليه، بعد ذهابه إلى مولاه سيمضي إلى الشيخ ريحان، يبادل الحديث، حتماً سيقول الشيخ ريحان، إنه علم الخبر قبل أيام، ربما تمادى ومال على إذنه هامساً: قوصون وقاني باي لم يتحركاً إلا بعد استشارته، سعيد سيداري ابتسامة، ويتتظر، ربما تبدو سماح ابنة الشيخ ريحان، عسى أن يسمع ضحكاتها، حفيف ثوبها، ربما تدخل على

أبيها فتداري وجهها، لكن الشيخ ربحان يدعوها، سعيد ليس غريباً، وهو ابن جهينة، ولو تأخر ميلاده سنوات لأمضينا وقتاً في اللهو، في اللعب، ربما أسعده الحظ بقدر معقول، يشم رائحة طعام هي طاهيته، يأكل منه، يرتعش قلبه، ترفرف روحه، يعود إلى الرواق، يخلو إلى نفسه طوال الليل، يقتات اللحظة، يعيشها ألف مرة. الآن تثور ضجة بين المجاورين، يؤكد أحدهم استحالة محيء إنسان يشغل وظائف علي بن أبي الجود كلها، وكالة بيت المال، التحدث عن جهات الشرقية، ثم الحسبة وهي أجل وظائفه، إلى جانب مهمته الأصلية التي لم يعد يمارسها تقريباً في أعوامه الأخيرة، بشمقدار السلطان، كان يحمل نعل السلطان في أوقات الصلاة، وظيفة ليست غريبة عليه، من قبل عمل بمشمقداراً صغيراً للأمير طومانباي، وعندما علا نجمه وبرق، سطع فآله، وبلغ سعده، تبرأ من البشمقدارية مع أنها الأصل.

«من إذن؟؟»

الأسماء كثيرة.. لكنها لن تخرج عمن نعرفهم.. الأمير ملماي.. طغلق.. ططق.. قشتمر..

«آه.. عد غنياتك يا جحا..»

«لكن.. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف..»

«من مدة والتدبير عمال لإزالة علي.. فهل يطرده السلطان ليأتي آخر يستبد بالأمر كله؟؟»

من إذن.. من القادم؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب، تدبر أمور، في القلعة يدور همس فوق الحشايا، في الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء، والقضاة، علي ابن أبي الجود ينتظر مكبلاً في قبو مظلم تنتن الرائحة، يرى أيامه وهمماً، حلمماً ضاع، اندثر.

«ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط .»

«عد أغنامك يا جحا . . قلت لك . . يا جحا عد أغنامك .»

الدروس معطلة . لن يطول الأمر، ليس معقولاً بقاء هذه الوظائف شاغرة، أشعة الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يحف ليحفظ زمناً، طنين الحديد لا ينتهي، سعيد يرى عمرو بن العدوى، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى حجرها، من حلقة إلى أخرى ينتقل، يصغي، يشارك في الأحاديث، يغضب وقت الغضب، يفرح لحظات الفرح، يلقي رأياً يبدو عارضاً، قيل صدفة، لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتيه سفن زكريا، لا يقترب من الشوام والطلبة الأفغان، أو المغاربة، لا يههم أمرهم، دائماً بعيدون عما يجري، في المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه، لكن هذا المساء بالذات، إلى من يمضي؟؟ من يصغي إليه، يتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه، هل تبقى آذان زكريا وعيونه مفتوحة كالعادة؟؟ هل يجد الوقت ليصغي؟؟ هو أو نوابه؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب عمله بعد ذهاب ولي نعمته علي بن أبي الجود، علي هو الذي أقره كبيراً لبصافي السلطنة ونائباً له، لمن يمضي الليلة عمرو بن العدوى؟؟ سعيد يقرض شفته السفلى، كيف يعذب عمرو يوم القيامة؟؟ ربما أطاح رقبة بكلمة، يسفك حياة أسرة بوريقة، يقطع الأمل من قلب أب عجوز ينتظر عودة ابنه الفقيه ليؤم المصلين في القرية، آه لو يمضي سعيد الآن، يسكه من عنقه، ينفذ إلى أعماقه المكنونة، بنظرة حادة كسكين تغوص بين لوحين كتف، صمت في صحن المسجد، سعيد الآن حذر، كلماته تخرج بحساب، فراش عمرو وكيس جرائته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما، لو تقلب في الليل، لو خرج يتوضأ قبيل الفجر، عيناه تقعان عليه لا محالة، ربما يخطيء مولاه، لكن معاذ الله،

لا يظن السوء بإنسان، يستدير متمهلاً، رائحة الحصيد القديم، الرحبة خارج المسجد تفيض بالماراة، حمير مربوطة إلى جدار قريب، صوت المنادي لا يمل تكرار الخبر، إمساك الظالم الطاغي المتجبر، علي بن أبي الجود، الحوطة على ملوجوده، على حواصله وأمواله، على حريمه وجواريه، ترسيمه في جب القلعة حتى يتكشف أمره، امرأة تلقي درهماً إلى المنادي، حلاوة البشارة والنقود، بهجة تمتد إلى روح سعيد، بطيئة كسريان ماء في شقوق ضيقة، يرى سباح، آه لو تصحبه الآن، ترقب الناس معه، يسمع وقع أقدامها، لا يعرف صاحب الخطي، لكنه يثق عند جلوسه إلى الشيخ ربحان أنها هي، وهي بالذات، فرحة الناس تدفئه، لو فاض درهم عن حاجته لأعطاه للمنادي، ينحل خيط مر إنعقد في لعبه من قبل، يذوب متلاشياً، من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين، صبغوا وجوههم بأحمر وأخضر، يرقصون، يغنون.؟
إحزن. إحزن. . يا حسود. .
شالوا علي بن أبي الجود.

(مرسوم شريف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر﴾.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾

أما بعد

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف أشرارنا، والاهتداء إلى خيارنا، لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد، فمن بعد ترسيمنا على الباغي بن أبي الجود، وإقامتنا دونه الحدود، رأينا ملء وظائفه ومراتبه، وحتى نحفظ العدل، ونطلب منه المزيد، فكل منا عليه رقيب عتيد، رأينا توزيع هذه الوظائف على أرباب المعرفة والعلوم، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب، وبدأنا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم، ولا يمكن تركها شاغرة، وبعد الاطلاع على أحوال الناس، ومعرفة أي الخلق منهم يريحهم ويجنبهم الصعاب.

وبعد قراءة التواريخ الماضية، واستيحاء العبر، والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر. وبعد طول تفكير وتدبير.

قررنا

يتولى بركات بن موسى، حسبة القاهرة، لما تبين لنا بعد ما قدمناه، ما فيه من فضل وعفة، وأمانة وعلو همة، وقوة وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه، ومراعاة الدين، كما أنه لا يفرق في الحق بين الرفيع والحقير، لهذا أنعمنا عليه بلقب «الزيني» يقرن باسمه بقية عمره.

وقد أوصيناه بالنظر في المكاييل والموازين، والتحذير من الغش في طعام أو شراب، وأن يتعرف الأسعار، وأن يستعلم ويستقصي الأخبار، ما يتردد على أفواه الناس، في كل درب أو حارة، كل بيت أو سوق، بدون علم أهله، وأن يعين له نواباً ينظرون أمور المسلمين، بشرط أن يكونوا أمناء مؤمنين مأمونين، وألا يمكن أحداً من العطارين، من بيع غرائب العقاقير، وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل، وأن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع عن الفسق، والنظر في أمر فقراء المكاتب، والعالمات والمغنيات من النساء، ولا يمكن منهم أحداً، ولا يستنيب عليهم إلا من عرفت أمانته، وأثرت صيانتها، وأن يكونوا من أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعدوا عن المطامع، ونأوا عن السوء، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته، فلا يبالي باحتسابه بغض الناس له، وسخطهم عليه، أو رضاءهم عنه، وأن يكون مواظباً على سنن الرسول، من قص الشارب، ونسف الابط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، ونظافة الثياب، والتعطر بالمسك، هذا ما رأيناه، وبه أمرنا، وسلام على أشرف الخلق، سيد المرسلين، محمد بن عبد الله، ﷺ.

«قلمة الجبل»

ثامن شوال

زكريا بن راضي

في أي وقت أو مكان، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجري، النفاذ إلى الأحداث، الصغير منها والكبير، الآن بالذات يحاول تلمس الأسباب، ما يجري الآن يحيره، أول الليل، نزل إلى السجن الصغير المدفون تحت البيت، تقدمه المشاعلي مبروك، لا يذهبان إلى السجن إلا نادراً، مرات قليلة خطأ فوق الممر المعتم الضيق، في نهايته تجاوز صغرة في الجدران الرطبة المبللة اللزجة، تضيق الفجوة بقامة الإنسان، السجن يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوى، لا يمكنه تلفت أو قلب أو قعود، أو النوم متمدداً لضيق المكان ويسبب المياه التي يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار، يحافظ على منسوب إرتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة، زكريا لا يلقي المحاييس هنا، يبقى في الطرف الآخر للبيت، يجيء مبروك، يفك قيود المحبوس المطلوب، يعصب عينيه بمنديل، يدفعه بحرية قصيرة في ضلوعه، في النهاية يقف أمام زكريا، يبقى السكون بلا خدش فيتزايد رعب السجن، لا يدري من أين تحيثه الضربة، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده، يلمس كتف السجن، غالباً ما يلمسها برفق، على مهل، بتأن، كثيرون لم يحتملوا المفاجأة والمباغطة الخفية اللينة كبطن الأفعى، يسقطون مغشياً عليهم، ترفع العصابة عن العينين، في البداية تترقق ابتسامة هادئة، نازق قرب انطفائها، يمضي وقت، ترتفع صرخات زعيق وآلام، تصر عجلات الساقية التي تبدأ في رفع المياه من البئر العميقة، أحياناً يأمر زكريا بقرع الطبلخانة، خاصة في الليل، في السكون الغويط، يسمع من بعيد، يدرك القلائل جداً، أشد المقربين إلى زكريا والعاملين معه، يدركون ما يحويه قرع الطبلخانة الآتي من سفح المقطم، الليلة يمر زكريا بنفسه في

السجن المعتم الرطب، قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاوب من كافة السجناء، جميعهم لا يدري أحد بوجودهم، لم يصدر مرسوم بإمساكهم، زكريا لا يدري ما تحمله الساعات الآتية، لا يأمن أبداً مهما استقرت الأحوال، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره في جوف الزمن، لا يخطئ زكريا تقدير أضيق الثغرات، وأتفه الاحتمالات، من يدري؟؟ ربما أرسل أمير إلى السلطان يخبره بأمر المحاييس هنا، منهم من نسيه زكريا لطول المدة ربما جاء بماليك الغوري، الجلبان أو القرانصة، تسلقوا الأسوار، نفذوا من الأبواب الممرات والحجب، أمسكوه، بهدلوه، ثم يفتشون عن السجن، سوف يبحثون عن شعبان، شعبان بعينه، من شهور اختفى لم يدربه مخلوق، شعبان غلام السلطان المقرب، المفضل على غيره، جلسه في خلواته، أنيسه في سهراته، يقعد إلى يمينه دائماً في نفس مكان الأمير الدوادار، وأمير السلاح وأمير أخور وكبار رجال السيف والكتاب، شعبان فلقه قمر، هلال فضة مولود، شفتاه حبتا ياقوت، عينا هر، فمه مسك وطيب، خده ألين من حرير، يده في طراوة العجين، لا يتجاوز العشرين، عندما قرر زكريا اختطافه لم يأمره أحد بذلك، لم يوزر أمير، لم يدفعه وزير، أي مخلوق، قرر ان يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغوري، سؤال محير ألهب مرقده، أحرق ما بين جفنيه، هل يهوى السلطان الغلمان، هل يؤثرهم على النساء؟؟ أمر كهذا لا يغيب عن زكريا أبداً، إذن لا بد من الوصول إلى الحقيقة، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون، منذ توليه أمور السلطنة لم يسمع أنه أزال بكارة أو أضاف إلى مشروعاته جديداً، فيما عدا عشر جوار وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده الى القاهرة من شهور، زكريا يعرفهن، لديه اسمائهن، أوصافهن ويعلم من مصادره أن السلطان لم يقربهن، وأنهن يتقلبن متحركات، ولولا أن الرجال المسموح بدخولهم

إليه طواشية لأتين من الفعال ما تتندربه أجيال وركبان، أيضاً لم يتزوج الغوري إلا اثنتين، إذن، هل توجد صلة بين السلطان وشعبان؟؟ ولن يجيب عن السؤال إلا شعبان بشخصه. راح مبروك يرقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور كاملة، حتى ألم بعاداته، حفظ المواقع التي يتردد عليها، انتحاءات طريقه، عدد البيوت على جانبيه، مواقع الخلاء فيه، وفي لحظة معينة خلعت السماء من القمر، من ضوء النجوم، كمن عدد من الرجال المثلثين على جانبي المدق الرمي الموصل إلى أول طريق القلعة، وفي الليلة نفسها وصل مقر زكريا، تأمل شفثيه، تعجب من خلقتها، من رقتة، مديده وتحسس نعومة بشرته، استرسال شعره، دهش لنصاعة أسنانه، طيب رائحته، رهافة لسانه، أمثل هذا يخلق بين جنس الرجال، خلع ثياب الغلام قطعة قطعة، الولد لا يدري غائب عن وعيه، صرف زكريا رجاله. مال فجأة وقبل الغلام، قال لنفسه، وقع القبلية بعد صحوه أحسن، وفعلاً رأى في الصباح تورده الوجه المليح، ورد سقاه الندى، أبدى كرباً، ورأى الغلام هادئاً واثقاً، تحدث إليه، لم يفصح عن غرضه مباشرة، لم يكشف قصده، استمع إلى وصف بلاد رآها شعبان، تساءل بعدها، أحقاً لم يتجاوز العشرين، شعبان رأى الصين، زار فارس، ورقص في جبال الأناضول، عالم بلغة الفرنجة، يتقن لهجات البربر، أهالي الجبال في بلاد المغرب، كيف ألم بكل هذا، متى اتسع العمر القصير، كأن زكريا يجالس شيخاً خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه، خلاصة الحكم والمقولات، متى استمع إلى هذا؟؟ كيف لا يسأل عما يراى به، لحظات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء أخرى عديدة للغلام، شعبان واحد منها، ثلاثة شهور مضت كاد زكريا ينسى الهدف الأصلي، يضل عن الوصول إلى حقيقة ما بين السلطان وبين شعبان، في البداية حام ودار، أنكر شعبان، في

ثنايا الأحاديث والكلام يلقي زكريا بخبيث السؤال، يبدي الغلام تجاهلاً، مرت الأيام، وصبر زكريا ينفذ كحبات الرمال من بين الأصابع، في ليلة ضاق به الأمر، نزل إلى القبو، أوثق الغلام، عراه، قبله في شفتيه، رأى انسحاب الدم من الوجه المليح، من أذنيه، تحسس العنق الناعم الأملس، زام شعبان وعض يد زكريا، طرحه أرضاً، أفسد الأرض البكر، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان، وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر، لم ينظر في وجه الغلام، غادره كدراً متضايقاً حزيناً، لماذا؟؟ لا يدري، ليس السبب فشله في الوصول إلى حقيقة العلاقة، بعد ثلاثة أيام نزل القبو، رأى وجهاً بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام، في البدء ظن أن الغلام أبدل، أين ملاححة الوجه، روقان أول العمر، ناداه، لم يجب شعبان، لم يفه حرفاً، زال زهاء الشباب، انكسر غصن الورد، نسي الغلام بلاداً زارها، قرى رآها، ثلوجاً بيضاء تفنن في الحديث عنها، أي لغز يحير زكريا، غادر القبو مسرعاً، عاد إليه مرات خلصة، روعه ما رآه وأفزعه، نحل الغلام وكاد يفنى، لو امتد الوقت، لو في الزمن فسحة، متسع، ربما توصل إلى سر ما حدث، يضع يده على بدايات الأشياء، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلّامه شعبان، لكنه الليلة محسور، الغيظ يهرسه، للأسف، يقرر خنق شعبان ودفنه حياً، بنفسه راقب الخنق، مبروك وحده قام بالعملية، ضربات معوله الصماء عالقة في أذن زكريا، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها رنيناً قائماً خفيفاً، لكن، لا بد من تنفيذ ما أمر به، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حياً، يطلعون به إلى السلطان، يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضي كبير البصاصين، ونائب علي بن أبي الجود، يا مولانا خانك زكريا فاخطف أحب الناس إليك. فسق في أقرب الخلق منك، بدله وغيره. أنهى أوله وآخره، كبير بصاصيك الذي جثت به يوماً، كدت تظهر

ضعفك أمامه، طلبت منه بقلب كلیم، أن يطلق رجاله، عيونه، بحثاً عن شعبان، حبيبه وصفیه، زكريا هذا... هنا لا بد من هلاك عظيم، فناء أكيد، لن يوسط، لن يخوزق، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى، الموت خنقاً أمنية صعبة، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله، سيأمر السلطان بشيه حياً على نار بطيئة، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود - قيل مجرد القول لإنهم شوهوا في صحبة الغلام مرات - لم ينتظر ليستقصي، من هم؟؟ من أي جنس؟؟ ما الذي يجمع ثلاثة من العامة بشعبان، زكريا نفسه لا يعلم، لم يخبره الغلام عنهم، سبب اجتماعهم به، عموماً، إذا مرت الأمور بسلام، الليلة، غداً أو بعد غد، سيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاين وأشدهم بأساً وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام، من يدري؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت ما لم يعرفه قبل موته، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عاقل، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر، فعلاً، ليس من الأمان بقاء شعبان حياً، وغيره من المساجين، أي شخص يبقى هنا، حتى حقير الهيئة، مبتور الأصل فاقد النسب، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية، سيعلوشأنه وقتئذ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة، يحطون في حقه كل قبيح، زكريا يحبس خلق الله، زكريا لديه سجن تحت بيته، ترى كم من الأرواح أزهرق؟؟ أي الطرق سلك في تعذيب أجساد خلقها الله، وقتها يقوم الكارهون، الأمراء، أولاد الناس، مساتير الناس، مشايخ الطرق، طلبة الأزهر والمجاورون، سيرون في المحابيس، كل من أمسكهم زكريا مساكين، أرواحهم بريئة، لم تحن ذنباً، لم يتأمر أصحابها، لم يسرق بعضهم، لم يقل سبأاً في طريق عام ضد أمير أو كبير، الآن، يفتش السجن بنفسه، يتناول المشعل من مبروك، ينبش تجاوبف السجن بعينه، عطن وندن يتصاعد

إلى أنفه، العفن لزج، لكن صبراً، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحه، لتخل التجايف من الآهات والتأوهات والأنات ليال معدودات، لن تترد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن أسمائهم، عن قراهم وبلادهم، الأسباب التي جاءوا من أجلها، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب، رأى وجوها لا يذكر أصحابها، كأنهم جاءوا بدون علمه، نسيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل، الآن، اطمأن زكريا، يخرج إلى الهواء الطري الآتي من أعالي المقطم، يمكنه أن يخلو إلى نفسه، مبروك يدرك تماماً ما يريده أستاذه، يبتعد مندجماً بالظلام، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير مسموم النصل، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثابتة، لعباءته خفيف، ضحكة ناعمة كخيوط حرير، كشرنقة فراشة، تحيء من أعلى، بعضهم يتسامرون في الحرم ملك، لن يخلو الليلة إلى أي منهن، لن يرى ابنه يس، يدفع جزءاً في جدار، يغلقه، يطلع سلام ضيقة تؤدي إلى أعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت، الناظر من بعيد، حاد البصر، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقبو المشرية، لكن مهماً أوتي المرء من دهاء، مهماً انكشف عنه الحجاب، لا يمكنه أبداً تخمين ما يضمه الطابق العلوي، زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب، تقلقل الأمور، تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاف الزمان، انهيار القوائم، تحلل الأسباب، قبل بداية العمل يتكئ إلى حشية لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسوبرخام أحمر ملون بأسود، يغمض عينيه، ما معنى الذي جرى؟؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظة التي جاءه فيها الخبر، حوله تشهق الجدران تسند طوابق خشبية مقسمة إلى مربعات وخانات، كل منها يضم عدداً من الدفاتر، تختلف ألوانها وأحجامها، هنا تتلخص الديار المصرية، دائماً يقول زكريا لأعوانه المقربين، عندما أود الذهاب إلى أي بلدة في مصر لا أبتعد عن بيتي، أجيء إلى هنا، لكل بلدة

قسم، كل قرية، أي كوم أو عزبة، أي إقطاع في بر مصر من أدناها إلى أقصاها، كل دفتر يحوي أوصاف المكان، ما اشتهر به، ثم أهم الأشخاص فيه، كافة ما يتوافر عنهم، القسم الخاص بالقاهرة يحوي حاراتها وخططها وجوامعها، رجالها وشيوخها ونساءها وغلماها وجواربها وبيوت الخطأ فيها وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها وأسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتا وملاهيها، وأسماء الأروام المقيمين والقادمين والراجلين والافرنج العابرين، ومن يتصل بهم، يتردد عليهم من المصريين، كل أمر كبير أو صغير هنا، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم، أمزجتهم وعاداتهم، مشاربهم أهواؤهم، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا، يقول زكريا متباهياً، هذا القسم في الديوان مفخرة للسلطان وغرة في جبين السلطنة المصرية، لم يحدث قط أن أعد شيء كهذا في تاريخ أي بصاص مصري أو افرنجي، ويأذن الله العليم القريب سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت، الآن، يبحث بين الدفاتر، بالضبط هذا ما يريده، دفتر أحمر مجلد بقماش، هنا يرقد المباشرون وأرباب الوظائف أصحاب الطوائف الصغيرة، وفي آخره ملحق يتضمن من يظن وصولهم إلى مناصب يوماً، نوعيتها، لا يذكر ما دون عن بركات بن موسى، شهاب الحلبي ناظر الديوان أضاف إسمه منذ عامين تقريباً، لم يطلب زكريا صفحته للاطلاع عليها، لا يدري هل أضاف شهاب الحلبي معلومات جديدة عنه؟؟ الآن يتأخر الوقت، الليل يوغل حتى العظام، لولا سرية الأمر لأرسل في طلب شهاب الحلبي ليجمع كل ما تناثر من معلومات حول الزيني، لكن لكي يرسل إليه، لا بد من اجتياز حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه، ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنون البعض، لا داعي لحضوره، لا داعي، زكريا يضيق، بوغت

بإعلان الخبر، لم يستبق كافة رجاله في الديوان، ولم ينفذ ما اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله وأعوانه، لا بد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيذ من الغد، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لتاه الآن، لا يدع أحداً من نوابه يستأثر بأمر ما حتى لو كان صغيراً تأفه الشأن، لا بد من إلمامه بكل ظروف العمل، طرقة ومصاعبه، حتى لا يلعب به أحد رجاله، يخدعه، لكن ما أحوجه الآن إلى شهاب الحلبي بالذات، شهاب الحلبي لا يكلف روحه عناء البحث، لديه ذاكرة عجيبة، يعرف آلاف الأشخاص، ما يخصهم، لا ينسى أمراً قط ولو مرت سنون، يذكر ما تبودل من أوراق وتقارير، ما أضيف من معلومات وسطور، فيأي سنة من السنين، الآن يقلب الدفتر، يمسك بالشریط الملون الذي يفصل الصفحات عن بعضها، حرف الألف لا يعنيه، غير مهم، ربما مات بعض أصحاب هذه الأسماء، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات أخرى لتغير أوضاعهم، أو اختلاها، آه مثلاً هذا، أحمد بن عمر خادم مسجد سيدي سويدان، أصبح إماماً للمسجد يقرأ فيه الحديث والقرآن ويؤم المصلين، تزوج امرأة حبشية، يشاع عنه هواه بالحبشيات، مع هذا ما زال لقبه واسمه في طائفة الخدام، كل حريمه هنا. واحدة فلاحه من أوسيم، أم أولاده، منهم طالب أزهرى، لا يجب تنبيه شهاب الحلبي، ربما قيل وما أهمية هذا؟؟ أبداً، أبداً، كل شاردة وواردة يجب تقييدها، رصدتها ربما جاء منها ما لا يدري مخلوق، ها هي. الباء، حرف الباء. بالضبط بركات، بركات بن موسى، أعلى الصفحة، أقصى الركن الأيسر كلمة واحدة، حروف خمسة لا غير، المداد أسود، الخط رفيع.

«بركات»

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خلودها من أى حرف عدا الإسم، وما الذي يعنيه لفظ واحد في صفحة بيضاء، ناصعة تلمع تحت ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزدهمة بالدفت، زكريا يمسح الورقة بقلاب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلة، شيئاً فشيئاً تبدو ملامح الحروف، تنكشف الكلمات، يد خفية تخطها، زكريا يمر بالقلاب مرات، نفخ الهواء حوله، فقط أربعة سطور، أربعة فقط، يستعيد بالله العلي القدير، ملهم البشر، كاشف الأسرار، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا يأتي من ناحيته إلا الحيرة؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبي أربعة سطور. (بركات بن موسى، له مقدرة الاطلاع على النجوم، أمه اسمها عنقا)

زكريا يطبق الدفت، أى شخص من سفلة الخلق، من طلبة الأزهر المشاغبين، أي غانية، أى بائع جبن مقلي، أوسنبوسك، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة، وهذا الإنسان يساوي سطوراً أربعة يتيمة، يغمض عينيه، ليل ساكت لا يكشف سراً ولا خبراً، يعرف أن القوم يسهرون الآن، يهمسون، يحطون آراءهم في المحتسب الجديد، وما ينتظرونه منه، آه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاص ما قيل على بعد آلاف القرى والبلاد، لا يبعد أمر على الله . لولا ثقة زكريا فيما نقل إليه بعد الغروب ما صدقه الآن، أكثر من مصدر، أكثر من بصاص، كل بصاص يجهل الآخر، نقلوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير قاني باي، طلوعه إليه، بقاءه عنده، حديثه إليه، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قاني باي ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء. ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة حتماً إلى الأمير

طغاز، أصابعه تقبض على حافتي الدفتر، ها هو أول الليل يسمع ما يحيره، ما يجعله ينطق لفظاً يكرهه «لماذا؟؟»، لكن هل يعقل هذا؟ من أي طينة خلق بركات هذا، هل جاء المسيح الدجال متنكراً، هل نفذ إلى العالم ولم يدر به زكريا، كيف، كيف؟. بعد إصدار المرسوم السلطاني الشريف، بعد الثناء على بركات بن موسى، بعد الانعام عليه بلقب الزيني مدى الحياة، بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينار ليشترى المنصب، بعد طواف المنادي نهاراً بأكمله، بعد هذا كله يطلع من بيته في بركة الرطلي، يشق دروباً جانبية، لا طبلخانة تتقدمه، لا دق كوسات بلا ضجيج، أول ركوب به، يطلع متخفياً إلى القلعة، ينبطح أمام الأمراء جميعاً، يبكي، دموع حقيقية، لا شك في ملوحة طعمها، ينطق ما يجعل زكريا يروح ويحيى حتى الآن، لا يمضي لرؤية ابنه الوحيد، أي من حريمه، يثقل الليل فوقه، لا يعنيه إعدام علي بن أبي الجود، لا يهيمه الآن استمرار السلطان الغوري أو خلع وتوليئه أسفل الخلق مكانه، كل هم الوصول إلى تفسير لما جرى من الزيني بركات بن موسى، في القلعة، وأمام من؟ أمام الدولة كلها، ما لو سمعه إنسان لضرب الأكف عجباً ودهشة. في ساقه خدر، طابور غل رفيع يسري تحت جلده، يعقد يديه وراء ظهره، ربما لم يدفع ثلاثة آلاف. لكن أبداً، لا أحد برفقة زكريا الآن، يهز رأسه بقوة، أبداً، أبداً، يثق من صحة عيون بصاصيه المتخصصين في أمور قاني باي، يعلم تماماً دخول ألف دينار إلى خزائن الأمير قاني باي يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى، لم تصله إیرادات من أي جهة أخرى، أما الألفان المتبقيان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة، آه لو يتخذ السلطان رأيا الليلة لاستقر زكريا، لكنه أمر الزيني بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون، زكريا يمسك الدفتر، يفتح الصفحة من جديد.

«بركات»

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه أمر بركات بن موسى، ليضيف شهاب الحلبي ما يروق له من معلومات إلى سطورهِ الأربعة التي لا تبلى ريقاً، لا تشفى غليلاً، يميل زكريا إلى دولا ب صغير يتناول منه دفتراً مجلداً بحريير أخضر، الليل حوله أخرس معسوب العينين، يخرج من جيبه لفافة أوراق، ما وصله من القلعة، كل مدار في قاعة البيسارية، بركات بن موسى قبل رخامها، بللها بدمعة، لم يحدث هذا في تاريخ سلطان من السلاطين، منذ الآن . كل ما لمس هذا الزيني من قريب أو بعيد سيقروء بنفسه، ينقله هو، عيناه ستتوليان أمره كلما جاءت الفرصة وسنحت، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة، يتناول وعاء من فخار، يغمس قلماً خشبياً رفيع السن في إناء ملون .

«الصفحة الأولى»

عاشر شوال عام ٩١٢ هـ

(على مرأى من الأمراء في حضور جمع عظيم، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التأثر، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوت مرتجف «الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيداً عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة، لا يقلقني فيها سب إنسان، أو سحق مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه» .

كوم الجارح

عدددهم كثير، غير أن هدوء البيت لم يחדشه صوت عال، فوق حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفن الزمن زهاء ألوانها، يجلس مولانا الشيخ أبو السعود، يطيل الإصغاء، يعرفهم كلهم، بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمناً مجاوراً لعمود رخامي في مسجد سيدي سويدان، أو مسجد سيدي إسماعيل الإمبائي، يدرس الفقه والأصول، يفسر المتن، يشرح الأحاديث والآيات البينات، يقص التواريخ، ها هم يوغلون في سنين العمر الأخيرة، يعرف الإنسان عند مروره بها أنه لن يعيش أكثر مما عاش، أكبر شيخ الطوائف سناً ومقاماً، الحدادين، القصابين، المرحمين، البنائين، الشعراء، مشايخ حارات، أعيان وأولاد ناس، يجيء سعيد بطبق كبير مليء بالبلح المجفف المغسول، يسنده أمامهم، يميل الشيخ رضوان كبير الفحامين وأكثر الموجودين تقدماً في العمر.

«لن يقنعه . لن يقنعه إلا أنت .»

تبقى الكلمات معلقة في فراغ البيت، ينسل هدوء عذب رقراق كسرب عصافير على علو شاقق، في اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير، تموت الأصوات كلها خارج جدران البيت، تنفذ رائحة لا

تنتمي إلى جنس نبات أو عطر معروف، ائتلاف الريحان بماء الورد المحفوف بروح السوسن، يتمهل كل منهم في تفكيره، يغمق الهواء، يميل إلى لون الرماد، يملأ الصدور خشوعاً ورهبة، تتدحرج حبات المسبحة، اصطدامها يسمع بوضوح، إيقاع تفكير الشيخ أبو السعود، يقلب ما يسمعه، ما يراه فوق الوجوه.

«لم نسمع برجل مثله . . ونحن ما نرضي إلا به . .»

إبتسامة خفيفة، ذرات نور تنفلد من ثقب مشربية ضيقة العيون، خاطفة كبرق بين غمام.

«أعرفتموه؟؟»

يقول الشيخ القصبي شيخ حارة زويلة . .

«رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا . .»

سعيد لا يقول لفظاً، ليدع الضيوف يتحدثون، أول الليل في مجيئه المعتاد إلى الشيخ، تحدث إليه بألفاظ أكثر عدداً مما قاله جميع هؤلاء، آخر النهار لا يزوره إلا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر، يجيء المريدون في الصباح، يقرأون القرآن والأحاديث، بعضهم ينظف أركان البيت، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطري، أقصى آمالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا، سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق أو غضب، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع في الأسواق أو أروقة الأزهر، يقوله هنا، حتى لو رأى فيه أي إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ، في التجاعيد آثار عشرات السنين، ربما تجاوز المائة، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل، يكره الانطواء، يعرف سعيد أي وجد يهجه إذ يسمع صوت الرعد، يقول، هذا حس الدنيا، صوت الكون، لا يفهمه ويفسره إلا

العليم الرحيم، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد، فرحته بنزول النقطة، أول دمة تنزل من السماء كل شتاء، سعيد كل سنة بسمع الرعد في الرواق، في المقهى، في الطريق، في لحظات تساؤله الغامض عما تفعله سماح في لحظة بعينها؟ يتوقف، يعلم تماماً أن الشيخ يصغي، يقف في منتصف الفناء تماماً، تشرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن، ترح روحه في كون آخر، يناجي الأولياء، يذكر بالأسى ما جرى من أحوال في كربلاء، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء، أول همسات المطر يتلقاها عاري الرأس بلا عمامة، ممدود الكفين، الآن . . توغل برودة، ينفذ الليل إلى السماء واثقاً أسود الجبين، يميل الشيخ البهجوري كبير المرخين . .

«لم يحدث يا مولانا أن رجلاً متعمماً أو غير متعمم أياً كان مقامه أو رتبته، عرض عليه منصب ورفض، الناس كلهم، المجاورون وأصحاب الطوائف، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزيني بركات . . الزيني بركات .»

«ومن نشر الخبر يا ولدي؟»

الشتاء ساهي الوجه، بارد النظرات، عفي البرودة، حقيقة، لا إجابة جاهزة عند أي واحد من الحاضرين، لا يدري سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية في القلعة، ربما خدّم القلعة . ربما بعض المسالينك، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف، العامة في الحسينية يؤكدون، لم يخفّض الزيني رأساً، لم يحن هامة أمام السلطان، لم يرتجف أو يهب، قال أمام الأمراء أجمعين، لا أقبل الحسبة لأنني لا أريد رؤية الظلم وأسكت عنه، أمام الناس في الجودرية وحرارة الروم الجوانية والباطنية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفياً تاماً، قالوا أنه أرسل إلى السلطان مكتوباً يعتذر فيه بأدب وحسم عن ولاية الحسبة،

لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد، وصار الخير والعدل في أبعد واد، هذا يخالف طبيعته، ينافي شخصيته، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين. الزيني بركات بن موسى لن يقبل هذا أبداً، وقيل في بولاق، والحمائم العامة، خاصة حمامات النساء، انه وقف أمام السلطان كزينة الرجال، وأشجع ما يكون عليه الفرسان، دفعه في صدره دفعاً هيناً حازماً وهذا لم يقع من قبل، ولم يفعله أي إنسان، قال ستأمرني بظلم الرعية وأنا لن أنفذ هذا لأنني أخاف نسبة الظلم إلي، كيف أقابل خالقي يوم الحساب؟؟.

- «الحق يا مولانا، لا ندري كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجاجها». عينا الشيخ نبعثا صفاء، من يصلح إذن للمنصب غيره؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله؟ يخشى الله ليس تصنعاً أوزيفاً، إنما يجهر بهذا أمام السلطان نفسه، وعلى مرأى ومسمع من أعني الأمراء وأشدّهم بأساً، وأقواهم شوكة، قال البعض انهم رأوه يدخل قصر الأمير قاني باي ولم يطلع حتى الآن، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع، سعيد يرى الآن الجامع الأزهر، عمرو بن العدوى يتنقل بين الطلبة والمجاورين، يخرج إلى المقاهي القريبة، دكاكين الحلوى والمشبك، يتسمع رأي الناس، ما يدور بينهم، آه لو اقترب سعيد من هذا الزيني، لم يره أبداً في حياته، كلما ظن خلو الزمن من الجراءة، تنفي الأيام انعدام المروءة، دائماً يصغي الشيخ أبو السعود إليه، روايته لما يجري في المدينة من فظائع، ما من رجل شئق وراح على نفسه ظليماً إلا وسعيد يحفظ إسمه، يخوزق فلاح لسرقته ثمرة خيار، توسط امرأة لعنت مملوكاً فاسقاً اختطف ابنتها البكر، في اليوم نفسه يجيء سعيد إلى مولاه، يذكر الضحية، يتساءل ملوماً مقهوراً، كيف يجري هذا؟ كيف يمضي الإنسان بأرخص الأثمان لا دية له، لا قوم

يطلبون أثره، تترقق الشفتان الرقيقتان بطيف إبتسامة كعير النعناع،
أحياناً يهمس، «ألف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير. . .» حدقنا عينيه
انطبع فيهما المهول من الأمور، الطواف عبر بلاد الله، وصوله أطراف
الدنيا، عبوره صحاري لا حرث فيها ولا نسل، اعتلاؤه جبالات تضرب
قممها في شامق السماء، نزوله إلى قرى فقيرة في ربوع الشام، صحراء
الحجاز، نجد، حضرموت، وديان اليمن، سعيد لم ير في حياته
الجليد، أحياناً يتساقط البرد من سماء القاهرة، لا يحدث هذا إلا نادراً،
يطرق كالحجارة لكنه غير الجليد، في الساحات البيضاء الشاسعة التي
تشع دخاناً يتجمد في الفراغ، يمتد صمت يرعش الخوف في قراره
النفوس، الفراغ والزمن بلا آخر، بلا آفاق، لا نهائي، غير محسوس،
لا يفنى، عندما رأى بحارا يعلو موجها كالجبال، حيث اليابسة حلم ما
زال بعيداً ووهما ضئيلاً، هنا تتجمع قوى غريبة في أعماقه، يطلق صيحة
في وجه اللانهاشي، اللا محدود، زعقة تبلغ جبال قاف، تحدث الزلزلة،
تجمد المحيط. . .

«حي . . . الله حي . . . موجود».

أصحابه كثيرون، يطلقون الصيحة نفسها في أماكن عدة، يلقاهم
مرة واحدة في كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام، يتبادلون الجدد،
يتناقلون ما راوه، ما قاموا به من أجل نشر راية الإسلام، التذكير بأهل
البيت، بطراوة دم الحسين الذي لم تحفزه أزمنة وعصور، في الكعبة
يرثون من لم يجيء، من ذهب إلى أبد لا يدركه حي، بعد الحج، إنتهاء
الطواف واللقاء، يولي كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات
الأرض، لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد، «الله
موجود» ممدود عبر الزمن، تلين اليابسة، منذ أعوام جاء الشيخ أبو
السعود، رجع إلى بلدته التي لامست رأسه أرضها، إلى مصر، من

وقتها لا يروح، لا يجيء، يعيش في كوم الجارح، يفد إليه الدراويش
الطوافون، أرباب الطرق، في أي ساعة من ليل أو نهار، لا يرجع
طارق أو قاصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من أجله،
أوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه، أحياناً يقطع تأملاته،
عبوره أزمانا سحيقة البعد، يصغي إلى صاحب حاجة، يشير عليه إما
تلميحاً أو تصريحاً، مرة أخرى يود سعيد لو يشارك المشايخ أحاديثهم،
لوجاءه الليلة عمرو بن العدوى، عيناً، لن يخشى أذنًا تسمع، أو
تقريراً يرفع عنه، لن يخشى زكريا بن راضي نفسه يكفي اسمه وصيته
لبث الرعب في أوصال البلاد كلها .

يقول الشيخ القصبي :

«والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فلا خير فينا .»

يقول شيخ الفحامين :

«أنا والله لم أسمع به في حياتي . . لا أعرفه يا أخوان ولم أره . .» .

يميل مولانا إلى الإمام، يكف الشيخ القصبي . .
وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمي إلى أصحاب الوظائف
الكبيرة . . مجهول للناس؟؟
يلقي الشيخ سؤالاً يثيره أسئلة .

«ما أدرانا يا مولانا . . ربما غفل عمن يعرفهم من أشرار وفجرة . .
وهده الله إلى الزيني بركات . .»

«لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت . . أنت يا مولانا والبركة فيك . .»
يميل الشيخ أبو السعود هامساً . .

«اللهم ول علينا خيارنا ولا تولي علينا شرارنا . .»

الأربعاء . . . عاشر شوال

عندما سمعت بلدهاب الزيني بركات إلى الجامع الأزهر، ليخطب في الخلق، قلت والله لا تفوتني رؤية وجهه أبداً، ظننت أنني الوحيد، وعندما ذهبت لم أجد لقدمي مكاناً وكأنه يوم الحشر . . قلت لنفسي . . من أين جاء هؤلاء؟؟

يميل الصفدي بائع العطور في الحمزاوي، أحسن من يستقطر الزيت من السوسن، يلخص ويركز روح السوسن، يبسط يده فوق صدره .

أنا شفته . .

إليه ينظرون . . ،

«يا سلام على التقوى . . يا سلام على الصلاح . . كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل، مثل لم يخلق لينحني أمام جبروت أو سلطان . .»

محمود اللبان يسأل . .

«أهو أسمر قصير . . سمعته يقولون انه أسمر اللون، كبير اللحية؟؟»

«أبدأ وجهه كأي وجه منا . . .»
يضحك المعلم مرشدي،
«فأل الله ولا فالك . . أقصد أنه يشبه خلقتك أنت . . خلقتك
العكرة . .»

يعود جاداً . .
«رأيتك يركب بغلة المحتسب في الطريق فلم أحكم . . أهو قصير أم
طويل؟ لم أره فوق منبر الأزهر . .»
هنا يقول عمرو بن العدوي، وحبات مسبحته تندفع بسرعة . .
«قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم . .»
«أي والله يا شيخ عمرو . .»

جاء صبي المعلم الصفدي يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب،
يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة
الهواء، من عادات الصفدي شرب التمر هندي، والخروب والليمون
في قرارة أيام الشتاء، يقول: هذا يفتح دروب القلب، يشرح الصدر،
شفتا عمرو تتمتان بأدعية قبيل شربه، تظل نظراته فوق الوجوه
لحظات، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين، لا يتكلم كثيراً
إنما يصغي، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشي به، كل آرائهم تحيى على
ألسنتهم بدون حرج، لا يضطر إلى إلقاء جملة تبدو عارضة، مستترة،
الغرض منها توجيه الحديث في طريق بعينه، برودة الخروب تنفذ إلى
أطراف جسمه، مر النهار صعباً، ليلة أمس لم ينم الخلق، الدكاكين لم
تغلق لحظة، أصحابها يجلسون أمامها، الأمراء أغلقوا بيوتهم، دقوا
الطبلخانة وقتاً أطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة، بينما
تحيى الأخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد
عنه، «الزيني نزل من القلعة» «الزيني يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة

بالقلعة»، «أبدأ. . الزيني لم يغادر بيت الأمير قاني باي»، في الفجر طارت الأخبار، أرسل الشيخ أبو السعود في طلب الزيني بركات، مجاور أزهرى من مجاوري الأزهر الشبان سعي إليه، صحبه إلى كوم الجارج، حيث اختلى الزيني بركات بالشيخ أبو السعود، عمرو لم يهدأ، لن تفوته شاردة أو واردة، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها، ضحكة غريبة الإيقاع لا بد أن يرصدها، أي نكتة يقولها واحد من الخبثاء، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل في مثل هذه الأحوال إلا القعاد على أرضية الأسبلة، وأمام دكاكين المشبك، السنسوسك، يضحكون، يسخرون، عمرو يعلم أنه ليس بمفرده، هناك من يرقب الخلق معه، يرقبه هو أيضاً، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصي القاهرة، عندما أخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على حجر، تساءل كثيراً. . من هم؟؟ حاول الاستدلال على واحد منهم، ظن الظنون لم يستطع فآثر صرف الفكرة، لكنها تغيب، تحوم دوماً، لورفع أحدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو، ولم يبلغ عنها، هنا يتعرض للمساءلة، يتهم بالغفلة، مجاملته البعض على حساب الآخر، ليس أميناً فيما ينقله، ما يسمعه، يزعم مقدم البصاصين، يستدعيه، يقابله بنفسه «أنتم لا تعرفون ما ألاقه بسبب غفلتكم، السلطان ينزعج إنزعاجاً شديداً، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله، أستم عيونه، أستم أذانه؟؟ إذا عميت عين طرشته أذن، كيف يعرف أحوال الخلق إذن؟؟ كيف يعدل في الرعية، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعيني المهمل غير ذات أهمية، لكنك لا تدري، لا تعلم ما يتسبب من ورائها؟ في زمن سالف الذكر السلطان أشرف قايتباي تأمر عليه بعض الكبار، هل تدري كيف تأمروا كأنما يخافون عيون السلطان، كبير البصاصين وقتل بلغ حداً من الدقة والقدرة على استبصار الأمور ما جعله يكشف كل مخامرة أو مؤامرة على السلطان، كيف استمر

السلطان قايتباي، كيف عاش زمناً طويلاً فوق عرشه، ثلاثون سنة كاملة، بمهارة بصاصيه، يقظتهم، همتهم، لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة، يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة، كأنه يتمشى، يستنشق الهواء عند برك الرطلي، في بولاق، بين أشجار الألبانية، في نفس الوقت، وقته متفق عليه من قبل، يبدأ الأمير المشي من اتجاه الطريق المقابل، يلوح الواحد منها صاحبه، يزعم عليه، يصيحان كأنهما لم يريا بعضهما منذ زمن طويل، ويتبادلان حديثاً موجزاً مختصراً سريعاً جداً يتفقان فيه على عظام الأمور، ثم يفترقان، من يخامره الظن، من يشك هنا؟؟ من تراود عقله أدنى فكرة أو شك؟؟ ولكن الأمر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد، أذكى من تولى منصب كبير البصاصين في تاريخ الملوك والسلاطين، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضي، أدرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين. هكذا ظاهرها، لكنها في الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين، جعفر أول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحاذة ثم جلوسهن في الطرقات العامة، بجوار الأسبله، بجوار المقابر، أمام البيوت يطلبن حسنة أو صدقة، لكنهن يرصدن الشاردة والواردة، المهم . . أدركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين أمامها، طريقة اللقاء بين الأميرين، كل منهما يلقي الآخر فيصيح عليه: «لم أرك منذ زمن . . .» قيل وعلم هذا عند ربي كاشف الغيوب، إن المرأة البصاصة كانت عمياء، أدركت الأمور كلها عن طريق أذنيها، من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتأمرون، كبسهم الشهاب جعفر في الليلة السابقة على شروعهم في الكروب على الأشرف قايتباي، رحمه الله، أقرأوا التواريخ يا ناس، أنتم عيون العدل، أنتم العدل نفسه، كيف تهملون، كيف تدعون أمراً يفوتكم . . كيف؟؟ . .

قام المعلم الصفدي . .

«نحمدك يا رب، جرت الأمور كما نشتهي . . .»
يبحث الشيخ القصبي عن عصاه . . .
الليلة في الحمام إن شاء الله . . . نغطس في الماء الساخن، نتطهر حتى
نلقي المحتسب الجديد أطهاراً أبراراً . . . عند مروره علينا . . .

محمود اللبان . . .
«أنت تبغي استرداد عافيتك . . . وطررد الرطوبة»
تترقق الضحكات، تهتز اللحى، يميل الليل بسواده، يحوي النهار
المولي، يودعون بعضهم بعضاً . . .

«ربما جئت . . . عندي شوق إلى المغطس . . .»
«المغطس . . . والمكبساتي يا شيخ عمرو . . .»
يضحك عمرو ضحكاً سريعاً، ترتعش أصابع يديه مرة واحدة،
أصغى إلى مقدم بصاصي القاهرة، تحدث إليه معنفاً عندما فاته نقل
حوار دار بين ثلاثة من مهاجري الشوام، من لحظتها أدرك أنه تحت
رقيب عنيد، أحد هؤلاء، المعلم الصفدي، اللبان، ربما الشيخ
القصبي نفسه، ما عليه، لن يشغل عقله بهم، لماذا يتساءل أيهم
يراقبه؟؟ سيدعوه المقدم، يسأله، لماذا فكر في الوقت الفلاني بمن
يراقبه؟؟ لن يشغل نفسه بهذا، يا سلام، تتغير الأحوال دائماً، وتتغير
معاملة المقدم، عندما أرسلوا إليه أول مرة، مشى بعدها في الطرقات
والارتياح يغزوه، أطرى المقدم صلاحه، كم من أزهرين فسدوا،
أخبره أنه يعرف حاله كله، يعرف أنه لا يعيش إلا على جراية الأزهر،
لا يصله درهم من بلدته، بل هو في أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى
أمه العجوز، يومها أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينسأه عمرو أحياناً
ولم يذكره مخلوق، ليس هذا فقط، بل أخبره المقدم عن عمرها، هي
نفسها لا تدري في أي عام جاءت إلى الدنيا، ارتج على عمرو،

أصغى ، كيف يضربها زوجها الذي اقترنت به بعد وفاة والد عمرو؟؟ تعيش الآن في تكعيبية بوصى، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقاً، ربما تموت عرياً وبرداً، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالشهور، قال المقدم انه سيوافيه بأحوالها كل أسبوع مرة، ليطمئن، يمكن موافاته بأدق أخبارها يومياً، لكنه لا يرغب أن يشغل باله، أخبره المقدم بعدد المرات التي قرأ فيها القرآن، كل صباح، في عز البرد، يذهب إلى بيت كبير من التجار، يتلو الآيات البينات، يرسل إليه الرجل طبقاً به قطعة جبن حاليوم وفول مدمس ملء قبضة اليد، وكوز من لبن الماعز، ونصف درهم.

«تلاوة القرآن يا عمرو في بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهرى، إنها صناعة الفقهاء العمى، أنا شخصياً لا أرضاها لك، لا أرتاح إلى هذا، يقلقني جداً. . صدقني يا عمرو يضايقني وأنت طالب أزهرى، ربما أصبحت في يوم ما، وهذا يصبح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد. . ربما صرت قاضياً كبيراً، تفضل في أمور هؤلاء الذين يرسلون لبن الماعز والفول المدمس لتفطر، لتسد جوعك، بإذن الله سوف نساعدك نحن في أن تصبح قاضياً. . رئيس ديوان. . شخصاً له هبة ومكانة، إنما دعنا في حالك الآن. . هل ترتاح إلى هذا. . لا. . لا أظنك ترضى. . لا. . لا لا يا عمرو اعتبرني أنا شقيقاً لك. لا تخف عني أمراً. . حتى مشاكلك الخاصة، الخاصة جداً. . يح لي بها وأنا. . أنا وحدي أساعدك في حلها. . ثق بي. . ثق بي أرجوك. .

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم في الأزهر، يقول الأزهريون أن ثمة طلسمًا مدفوناً تحته يمنع العصافير والثعابين والعقارب من الجامع، قعد أوقاتاً طويلة، يناجي أمه العجوز، أمه تقلع جذور الفجل والبطاطا من غيطان بنها، والبلاد المجاورة، توقد الأفران، تنقل

الحطاب، تحزم البوص، تحش النجيل، لم تعرف راحة، لم تغمض عينيها ليلة على هناء شحيح، من مدة عرف بسفر شيخ زاوية العميان إلى بنها، جهاز زواتته وبغلته وعزم أمره، عمرو وقتها لا يملك درهماً، الشيخ سيمضي إلى البلدة التي تعيش فيها أمه، سيرف الناس، وتعلم أمه بمجيء رجل من مصر، من الأزهر بالذات، إبنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشاً أسود تلف فيه جسمها عاماً كاملاً، ربما تظنه ميتاً، دهسته خيل المالك، راح في وباء، ليلة بطولها لم ينم عمرو، يضيق به الحال، حجر هائل كجبل المقطم يزحف إليه ويبدأ. دار على أصحابه في الرواق، يجلس إلى الواحد منهم، يخوض في أحاديث قريبة وبعيدة، يضحك مع الضاحكين، إذ يهم بالسؤال، ينقذ لسانه، يرتج صوته، تخونه الحروف والألفاظ، يقول هذا لا يصح، سأمضي إلى آخر، يعبر صحن المسجد، لن يدور لن يلف، لكنه يجلس فينقذ العرق فوق جبهته، يختلط عليه الأمر، تخونه الألفاظ، تشق المعاني على لسانه يدهمه الخجل، هذا الوقت، يذكره الآن بمرارة وحزن كعفار يهب من الجبل يعكر يوماً صافياً، لم يعرف وقتئذ واحداً من المعلمين أو أصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن، يتسمع ما يقولون وينقله، وقتها كان خجولاً، حياءً، لم يجرؤ على اقتراض دراهم يرسل بها حاجة أمه، حمل جرايته من الخبز الجاف، في النهار، يقف المجاورون أمام الأزهر يبيعون جراياتهم، أو يستبدلون بها الغموس، خرج إلى الطرقات بعيداً عن الجامع، بادله أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة، في المغربلين والصنادفية، والعطارين، والفحامين، وأهالي الجودرية وسوق الشرايشين والمارة في شارع الصليية، والمتسكعين عند باب الوزير، كلهم هزوا رءوسهم، قالوا «على الله»، وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب، يرى جبل الحجر أكثر قرباً منه، تعثر الهواء في صدره وكبا، فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه؛ رفع

يده، إنساب صوته عالياً بالآيات البينات، نزل البرد ونفذ إلى حشاه، يرى عيني أمه فتوشك عظامه أن تضيء بما يشتعل فيهما من هم، لإقتراب النهار، سمع صريراً، أبواب الحارات تفتح، طلعت الشمس وفي يديه أحد عشر درهماً، ألقاها إليه مارة مجهولون، لم يروا وجهه، لم يعرفهم هو، اشترى سكرأ، وحلاوة معقودة، وفي زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل . .

« الشيخ سافر في الفجريا عمرو . . »

ها هو مقدم البصايعين في القاهرة:

« عمرو . . لا أقبل هذا لك . . لا أرضاه لك . . »

في البدء بدا رقيقاً، آه؛ يهز عمرو رأسه، لكل أول آخر، خجله من مخالفة الخلق، أين هو؟ ابتعاده عن الناس، أين ذوي؟؟ ما يحشاه الآن، غضب المقدم، بعد الهفوة الأولى عفا عنه، الثانية من يدري ماذا يجري؟؟ تنفصل الرأس عن الجسم، ما أسهل الأمر، ربما قتلوه بقية عمره حياً، يصير فضيحة متحركة تشير إليه الأصابع، يطرده المشايخ، الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة، لم يقل له أحد كلمة ذات معنى، ها هو النهار يولي، لحظات نزول الليل يحلو الكلام، تكثر الفضفضة، أمام دكاكين باعة الحلوى، التزوية، في زاوية سيدي الحلوجي جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء، يفسرون الآيات، الأحلام التي طالعته في المنام، لا ينفذ غريب إليهم، لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية، أداؤه الصلاة، تأدبه عند اصغائه إليهم، طول صمته، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونه من آراء، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا الحياة، ألبوا بالعلوم، الأيام قربته منهم، لو تغيب ليلة يسألون عنه، المقدم يثني عليه دائماً، يشيد به لنجاحه في النفاذ إلى هؤلاء، حديثهم

خافت على غير عاداتهم، توشك أذناه على سماع جديد، يخرج عن
مألوف ما يرفعه، ربما يبلغ السلطان، يقترب عمرو من المقدم أكثر،
ييدي رضائه، يثني عليه، منذ فترة لم يره عمرو، يضمن عليه بلقائه،
تقاريره يتسلمها نائبه الحبشى، يتساءل عمرو، هل غضب عليه، هل
يدبر له أمراً؟؟ ها هو المعلم حلیم الدين يطم شفتيه .

«والله يا مشايخ فرحة الناس لا تأخذني . . .»

يتمتم عمرو . .

«أي والله . . أي والله . .»

«الأيام علمتني الحذر، لم نر منه ما يسر أو يضر، فلم هذه البهجة
كلها، ثم . .»

تنظر إليه العيون . .

«ما أتاه اليوم لا يعجبني . .»

بسرعة تخرج كلمات عمرو . .

«لماذا يا شيخ حلیم الدين؟؟»

آه، لماذا التسرع؟؟ هل بدا في سؤاله ما يريب، أحدهم على وشك
أن يسأل نفس السؤال، المفروض ألا يوجهه هو، ما زالت عنده خفة،
لو الجمع كبير لسجلت عليه زلة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم
هو، لكن، ما أدراه؟؟ ربما تنصت الجدران، ربما يرقبه أحد، يقرأ ما
تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلى سماع حسه، يعلم بوجود هؤلاء
البصاصين، ألم يقل مقدم البصاصين، «لدينا طرق لا تخطر على بال
إنس أو جن نعرف بها الحقيقة، حتى لو همس بها المرء وراء جبل
قاف». آه . . لا بد من التزام الحذر، بهدوء ليرقب رد الفعل بينهم . .

أول الليل : الأربعاء عاشر شوال

أخيراً ها هو مبروك، يحمل لفافة أوراق، طال ترقب زكريا لوصولها، في الصباح سلمه مبروك تقريراً عاجلاً، أعده مقدم بصاصي القاهرة، يحوي حركة الزيني بركات، كيف انتقل من بيته أول الفجر بصحبة طالب أزهرى إلى كوم الجارح، قضى مع الشيخ أبو السعود زمناً خرج بعده من البيت، ومع أول مجيء الشمس إلى الحواري والدروب، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل، قيل إنه أحد خدام الزيني، نقل إلى أهل المدينة ما عزم عليه الزيني بركات، من ذهاب إلى الأزهر الشريف، عنده كلام سيعلنه على الخلق، مناد جديد لا علم لزكريا به، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده، ينقل إلى الناس رغباته وأحكامه، هذا ما تنص عليه الأصول، لكن الواقع يكذب هذا، يلغيه، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصي الأشرف قايتباي أن يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين، ترسل إليه نصوص النداءات، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام، بل ان كبير البصاصين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصنع الحزن والفتور لحظات نشره، كلها عوامل تؤثر في الخلق، هناك مناطق وخطط في المدينة يجب ألا يطوف بها المنادون،

كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله؟؟ ثم إن الزيني بركات لم يحتسب بعد، كيف يعطي لنفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب، بلا وسيط؟؟ هكذا يبدأ أيامه بإخلال الأمور، يعث بالنظام، في بداية النهار كان زكريا مرهقاً، الليلة السابقة قضاه بعيداً عن حريمه، عن وسيلة الجارية الصغيرة، لم يمض عليها أكثر من أربعة أيام في بيته، حاول النفاذ عبر الأيام، أي أحداث مقبلة؟؟ هذا الزيني لا يثير اطمئناناً، منذ سماعه باسمه، ولا يجيء من ناحيته إلا عجائب الأمور، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصي القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالب مفصلة، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزيني بركات وإرسالها إليه أولاً بأول، ثانياً، استنفار كافة بصاصي القاهرة، لتلتفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس، إصفاؤهم إلى ما يقوله الزيني، المطلب الثالث، أن يرتفع عدد التقارير التي ترسل إليه في مقره إلى أربعة وعشرين تقريراً بواقع تقرير كل ساعة، على غير المعتاد، وهو إرسال تقرير في أوقات الصلاة الخمس، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن أحوال القرى والبلاد، إن ما طرد بقايا النوم من عيني زكريا، ما جعله يأكل بسرعة، لا يفكر في وسيلة الشامية ابنة الستة عشر ربيعاً، ما جعله يهمل تهذيب لحيته، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر، تساؤله الملح، ما الذي ينويه الزيني بركات؟؟ ما الذي سيقوله للعمامة، بأي لسان يتحدث؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله؟؟ أبداً، زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة، والبعيدة لم يتحدث محتسب في جمع من الناس أبداً، بل لم يسبقه أي أمير، كبيراً أو صغيراً في هذه الفعلة، تحدث العظيم إلى العمامة مباشرة يفقده هيئته، يضيع مهابة الحكم والحكام، يتناول العمامة على الكبار، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم، لماذا لا يفعل مثله الأمراء؟؟ ألم ينبه أحد إلى هذا؟؟ أول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة، غرفة طويلة،

ضيقة، تحوي كل ما يخطر على بال من ثياب، عمامة سلطانية، وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الألو، سلاريات، معاطف فرو، سراويل شامية، جلابيب بدوية، فرجيات لمشايخ الأزهر، قفاطين، جلابيب رخيصة لبائعي حلوى، وجزارين، وتجار فاكهة، زكريا يعرف مقصده هنا، انتقى جبة بيضاء متسخة، عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال أحمر، أمسك عصا من سعف النخيل، خرج من الباب الخلفي للبيت درويشاً من أتباع سيدي مرزوق تلميذ سيدي أحمد البدوي، مشى متمهلاً، يتوقف بين الحين والحين، يطلق صيحة قوية، . . الله حي . . الله حي مدد . . مشى على مهل يتبعه جبران الأخرس، أحد رجاله الأشداء، دائماً يسافر معه، يحميه من غوائل الطريق، ما تحبسه النفوس من حقد، ربما تجسد في خنجر ينسل محاولاً إيجاد الطريق إلى قلبه، برغم همه وحيرته، ابتهج كعادته إذ يلقي نفسه بين الناس، لا يعرفه أحد، حتى لو التقى به أقرب المقربين، مقدم البصاصين نفسه، لن يتبينه، أي واحد من هؤلاء في متناول يده، أليس هو عيون السلطان وآذانه؟؟ آلاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه، لا يعرف بعضهم البعض، ينقلون الهمسات والحركات من البيوت والربوع، من كل شبر في المدينة، إذا شذ شهيق لإنسان عن البقية عرفه، نُحي إليه بواسطتهم، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلاً، لم يحدث أن رأى مثل هذه الجموع، إنتابه غم، كيف يسكت السلطان، أيدرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء؟؟ ما يجري خطأ فظيع. لا بد من تنبيه الكبار والسلطان نفسه، السكوت على الأمر ربما أدى إلى استفحاله، انتشاره، هذا ما لا يسمح به قط، هذه سابقة تنذر بعواقب لا يعرفها الجاهلاء، ها هو زكريا الآن يفرد اللفافة التي أتاها بها مبروك . . تقارير مقدم بصاصي القاهرة، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وأرصاد طوال اليوم . .

«فوق منبر الأزهر القديم وقف، المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الأعمدة، وكادت المآذن تميل، بدا وكأن كل قوة ستعجز عن إسكاتهم، لكن الزيني رفع يده اليمنى، مفرودة الأصابع (يده عادية، أصابعه خمس)، وكأن قوة سحرية تسيل منه، طاف الصمت مغلقاً أفواه الناس، قيل فيما بعد انه أوتي مقدرة على جعل الخلق يصمتون، ولو أراد أن يذرفوا الدموع لفعل، سرى صوته بين الناس هادئاً، قال ما معناه:

«أولاً» أنه لم يكن يقبل الحسبة أبداً، لولا اطلاعه الأمراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد، ولولا الشيخ العارف بالأصول والفروع، الزاهد الناسك ولي الله أبو السعود، لما قبل أبداً..

(هنا علا زعيق الناس، ردوداً «ما نريد إلا أنت» «ما ينفع إلا أنت»، إلى غير هذا من النداءات التي تؤدي المعنى نفسه، وإن اختلفت الجمل والألفاظ، عادت يده تهتز بتؤدة فاستكان العامة وأصغوا).

«ثانياً» أنه لا يخشى إلا الله، كيف يلقي ربه إذا ظلم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لا يدري؟ هذا ما لا يطيقه ولا يمكنه سماعه قط، من هنا، لو وقع ظلم على إنسان، فقير أو غني، ناء أو دان، عليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتض من ظلمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها.

«ثالثاً»: لن يمكث في القاهرة، إنما سيلف الوجهين، فقد أضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة، سيدور ظاهراً أحياناً ومتخفياً حيناً آخر، يطلع على أحوال الناس، أما بيته في القاهرة، فمفتوح أطراف الليل وآناء النهار لكل ذي حاجة، لا حاجب بينه وبين الناس، صغيرهم أو كبيرهم، على اختلاف مراتبهم، لو ظلم أحد من البشر فليقتض منه على مرأى من الجميع..

«رابعاً، وهذا خطير»

«في كل حارة، ودرب وقرية، وبلدة وأقطاع، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينما تقع، يبلغونه بها».

(بعد خروجه من الأزهر، شق طريقه راكباً بغلة عالية بسرج متواضع، وكنبوش عادي، (أثار هذا رضاء الناس عنه، قالوا، أنظروا، كيف العدل والحكام؟)، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرايشين، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجوههم إنسان (جاري البحث عن أصولهم)، أحدهم يحمل سيفاً، وآخر يحمل ميزاناً، وصنجاً، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين، خلف الموكب مشى عبد العظيم الصيرفي، أما الزيني فراح يهز رأسه هزاً خفيفاً وعلى وجهه خشوع وتقوى..

لفتة أولى:

أجمع رجالنا على وجود طالب أزهرى، بقي طوال الركب على مقربة من الزيني بركات، بدا متحمساً، بالكشف عنه، اتضح أنه هو الذي صحبه من بيته إلى زاوية الشيخ أبو السعود - في كوم الجارح، ولأسمه «سعيد الجهيني».

لفتة ثانية:

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعيني العابر رؤية أسوار سجن المقشرة، ومدخله العلوي، ظهرت امرأة سمينة، متقدمة في العمر، ترتدي السواد، تتشح بطرحة قديمة، شقت لنفسها طريقاً حتى وقفت أمام بغلة الزيني، زعقت زعقة عظيمة، حتى حظيت بانتباه الخلق، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة.. يا لثيم يابن اللثيمة. وعندما تنبه العامة هجموا

عليها، ذابت كفص الملح، وجاري الكشف عنها، وتحري حقيقتها،
من هي وما أصلها؟.

لفتة ثالثة:

أطلقنا أحد البصاصين المهرة في أثر الزيني لرسم صورة دقيقة وافية
للملاحه، سنقلها إليكم فور إتمامها لاطلاعكم عليها، وإجراء اللازم
من فحوص.

الآن يطل زكريا من طاقة المشربية، الشتاء يتدثر بليل أسود بارد،
نور يلمع في الناحية المقابلة، تسهر وسيلة، تخشى مجيئه فجأة، الليلة لن
يحتوي نهديا، لم ير مثلها طوال عمره، صلابة وليونة، رقة وقسوة،
خوف ونشوة، إقبال وانفلات، اقتراب وابتعاد، كرتا عجيب أملس
طوع راحتي يديه، يهوى نهوداً لم تمسها يد بشر هكذا يشترط مع عارف
شيخ دكة الرقيق، عارف أحد عيونه وأخلصها، عندما جاءته وسيلة
فرح بها فرحاً عظيماً، استوثق أولاً أنها قدمت فعلاً من بلاد الروم، ربما
دسها عليه أمير إبتغاء غرض خفي، قضى ليلته الأولى معها مبحراً في
عحيطات لم يطأها إنس ولا جان، يرقب الألم الأول اللذيذ، رعشة
تترقق في عينين واسعتين، فكر في تجنب العمل أياماً ليرقيها، يرتشف
رحيق العمر الأول، جاء هذا الزيني فجأة، أقصاء عن الآهة. وحلاوة
العرشة، ها هو يواجه سابقة لم يطلع على مثلها، عليه بالحدز،
والثبات، سيذكر فيما بعد أنه تصرف بعقل، بحزم، ما يقوم به الآن
سيراه الخلفاء فيستنيرون ويهتدون، منذ قليل أرسل في طلب شهاب
الحلبي، سيحضر القلم والحبر الذي يجف بعد مدة بعينها، مدة تكفي
لوصول الرسالة إلى مقصدها، وقراءتها، ثم يجف المداد، يتلاشى،
تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها، تطير كبخار صباح
أضاعته شمس قوية، حدث في زمن السلطان فرج بن برقوق، أن

اطاحت رسالة برأس كبير البصاصين، الآن لا يمكن لمناد أن يواجه
زكريا بكلمة واحدة مدونة، تناقش في هذا الأمر طويلاً مع كبير بصاصي
دولة الشاه إسماعيل الصوفي، قال الرجل وهو من عتاة البصاصين،
يحسن بالبصاص الذهاب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شفاهة،
خالفه زكريا، الحديث لا يروح من الدهن، ربما شهد عليك جمع من
الناس فأطاحوا بك، لكن ما الرأي لو وجد نوع من المداد يكتفي
ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة، لم يقل لكبير بصاصي الشاه انه
حصل فعلاً على هذا المداد، هذه وسيلة ينفرد بها ولا يفرط فيها
بسهولة، كبير بصاصي الشاه أنكر وجود مثل هذه الطرق، الزمن الذي
يجيء بمثل هذا المداد ما زال نائياً، لكن الليلة ستصل رسائل منه، إلى
الأمير قنك، وقافي باي، وقوصون، وطومنباي، وكافة كبار الدولة،
سيشير إلى ما أتاه الزيني من أمور منكرة تخالف أصول الحسبة. تتعدى
على وظائفه هو خاصة بعد إشارة الزيني إلى إطلاق عيونه وأتباعه. هل
سيستحدث نظاماً آخر للبصاصين الدم يتدفق مغتاضاً في أوردة زكريا
وشرايينه ربما يعلم اللثيم ما يتبعه أحد المهرجات في الهند لا يكتفي
بنظام واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة نواب. يتبع كل منهم فرقة خاصة
من البصاصين. وهكذا يضمن استقرار الوضع. ألا ينفرد بصاص
واحد بالأمور، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهرجا، فكر
في السفر إلى الهند ليطلع عليه، أو يرسل أحد نوابه المقربين لنقل
تفاصيله، لكن مجرد سفر نائبه سيثير الشكوك، ربما ترمى إلى السلطان
خبر الترتيب المتبع، ينقله إلى السلطنة، هنا يضيع زكريا، لا ينفرد
بالرأي، بالمشورة لكن كيف يحصل الزيني على هذه المعلومات؟؟ زكريا
يملؤه غيظ، حتى الآن لم تصله معلومات كافية عن الزيني، ربما يلاقي
مقدم البصاصين صعوبة في جمع ما يلزم، ربما يغفل الغبي عن أهمية
الطلب، لا بد من معرفة عادات الزيني، ساعات نومه، نسائه، إلى أي

البلاد سافر، كم لغة يجيد، عاداته في الفراش، لا بد من استقصاء أمر المرأة البدينة والقبض عليها مهما كلف الأمر، أيضاً الشاب الأزهري، يبدو أنه مقرب إلى أبي السعود، هذا يلزم له شأن آخر، سيوليه عناية، الآن، يقف في منتصف الغرفة تماماً، يمسك وعاء مملوءاً بالحليب الساخن المحلى بالسكر، يحب شربه كثيراً، بعد صحوه، أول الليل، يقول، أواجه نهاري بالحليب الدسم وليكن ما يكون ثم أختمه به، إنه ليس شرهاً كالآخرين، الأمير قبلك يجرع على الريق سطلاً مترعاً بخلاصة مخصي الديوك، تنبئ التقارير أن باستطاعته أن يضاجع نساءه الأربع في ليلة واحدة، يشبع كل منهن ويروها، ولا يمل ولا يكل، مع تجاوزه الأربعين، من يدري، ربما يفضل الكوب الصباحي الآن، تهرق في ذهنه خاطرة، سيخاطب الزيني بركات رأساً، صحيح، المفروض أن يبدأ المحتسب الصلة معه، باعتبار أن كبير البصاصين نائبه، لكن زكريا سيبادر بجس النبض، الليونة مطلوبة الآن، على ورق عادي، بمداد عادي، سيأمر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلة، في نفس الوقت تمضي الخطابات الأخرى إلى الأمراء.

﴿اللهم اجعل هذا البلد آمناً﴾

إلى الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة

نبدأ بأن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نقيمها في كل حكم، وتحاول سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة عليهم وهم بكم، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان، وأعدل أمر أمته بالوزن بالقسط، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه احتسبوا في سبيل الله جل عنائهم، وسلم تسليماً كبيراً. . . وبعد. . .

أعلم أننا بدأنا إليك بالمراسلة، وأردنا إطلاعك على ما تحويه المكاتب، ابتغاء أمن العباد، في سائر النواحي والبلاد، لأنكم لن تطلعوا على خافي الأمور، إلا بما نطلقه بين المسلمين من عيون، ولن تصغوا إلى ما يدور من تافه الهمسات ذات الغرض الخطير، بين الأمير والحقير، إلا باستنادكم إلى جهتنا، والاستعانة بنا، فهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ أن وعينا وأدركنا، وجرت العادة ألا يتولى هذه الأمور التي تدرأ الصغائر والكبائر من الشرور، إلا نيابتنا التي يخدمها آلاف الخلائق ممن لا حصر لهم ولا عد، وهم في خدمة السلطان ورجاله لا ينامون، وحفاظاً على راحة الرعية يسعون، يكدون ويشقون، من هنا رأينا الإشارة عليكم، وإعلامكم بما يجب أن يتم من جانبكم، وهو

ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا، كل ليلة، نطلع منه على ما تم من مخالفات ضبطتموها، حتى نعرف من ارتكبوها، فندرجهم في زمرة الأشقياء، ونحمي الأتقياء والأولياء، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعونا من منادين، لمراجعتنا ما يقولون، ما يوجهونه إلى العامة وينقلون، فهذا الأمر الذي يبدو لكم تافهاً حقيراً تترتب عليه عواقب منها الضار والخطير، يمكننا شرحها لكم عند أول لقاء بيننا لأننا نهدف إلى ما فيه سلامنا، وللعلم، فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم، منذ وقت غير معلوم، وما نقوم به من زمن، وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسحة الأجل، وليست هذه نظم من اختراعنا إنما أصول درج عليها أجدادنا .

ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية .

كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم

.. زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين
«الشهاب الأعظم»
زكريا بن راضي إلى السلطان والأمراء

« . . وإذا أوضحت هذه المخالفات، سأعدد وأطول، غير أنني على سبيل الاختصار أوجز فأقول :

أولاً : لأول مرة، وليس لها سابقة أبداً، يحدث أن كبيراً يجمع عامة مصر كلهم، أسافلهم وأعاليتهم، يخطب فيهم، مهيجاً جوارحهم، ولا يعلم إلا الله أي جمرة نار كان ممكناً أن تنطلق في البلد، فتقيد ولا تنطفئ، لولا إستنفار رجالي، ومحافظتهم على الأمن والأرواح . .

ثانياً : إطلاقه منادين لا يعرفهم أحد، لم أراجع النداءات، لم أرتبها ولم أطلقها الوجهة المقصودة، ولست بحاجة إلى سرد دلالات هذا الأمر الخطير . .

ثالثاً : إذعانه، تلويحه بقرب قيامه بإنشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه، يشرف عليها بنفسه، وتؤكد لي هذا بعد اطلاعي على مكاتبات نوابي التي لا تخطيء، والتي ترصد حياة الزيني منذ نشأته حتى الآن، كل ما يدور عنه، وقصدي من هذا سلامة الأحوال، ولا يسعني إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو أن كل موظف كبيراً كان أو صغيراً أنشأ له فرقة من البصاصين، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب أو سلطان، وأنا

لن أسمح قط بهذا، وسأحول دونه . . فأنا ورجالي فقط عينا السلطان وأذناه .

رابعاً: تفيد التقارير أن العامة بدأت عيونهم تتفتح على الأمراء، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون أو يخطبون فينا، هل هم أقل شأنًا من الرجل الطيب الزيني بركات؟؟

وبعد، فلا أطلب منكم إلا تبصر الأمور، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغي، واضطرب النظام وضاع الأمن، وراح السلام. وأشهد الله ربي، كاشف الغيوب، على صحة ما أقول.

«عاشر شوال ٩١٢ هجرية»

«كبير بصاصي السلطنة»

الشهاب

زكريا بن راضي

السرايق الثاني
شروق نجم الزيني بركات،
وثبات أمره، وطلوع سعده،
واتساع حظه



يا أهالي مصر
أمر مولانا السلطان
بتسليم المجرم بن المجرم
علي بن أبي الجود
إلى ناظر الحسبة الشريفة
الزيني بركات بن موسى
ليتولى أمره
ويأخذ حقوق الناس منه
ويذيقه ما أذاق لعباد الله الفقراء
المساكين الأولياء
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
كل من وقعت عليه مظلمة
كل من سلبت منه حاجة
كل من راح ماله بالباطل
بسبب علي بن أبي الجود

عليه التوجه إلى باب
الزيفي بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي
ليرد عليه حقه وماله
يا أهالي مصر .
يا أهالي مصر .

طال به حب هذا البيت وأهله، حجارته، أخشاب مشربياته،
نقوش جدرانه، الضوء في فراغه، قاعة تلاوة القرآن في رمضان، عالية
السقف، قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة، يطل من ورائها
الحريم، يستمعن إلى الآيات البينات، آمناً عيون الغرباء، من
إحدى النوافذ تطل، ترقبه، تتأمله، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة
الملونة ترصع أرضية النافورة التي تتوسط حديقة البيت الصغيرة،
الحشايا الوثيرة التي تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها، سماح تطل
الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الزوار، راحة خفية في صدر
سعيد، لا يعد هنا من الغرباء، لحظات إصغائه إلى الشيخ ريحان،
يراها بعيني قلبه، تروح ونحيب في إحدى الغرف، تنظر من ناقلة
تضطجع إلى حشية، وسادة، منذ سبعة شهور، ثالث أيام عيد الفطر
جاءت، مال رأسه، مثقل بحيرة، بخجل، باضطراب، احتوى راحة
يدها الصغيرة الدقيقة، رعشات الأمل في قلوب المنتظرين ليلة السابع
والعشرين من رمضان، همسات نهار ولید، آه من ذوبان الوجد، لا
يراها جسداً ونهدين، ونحراً وجيداً وعنقاً، هي إلى الروح أقرب،
طيف خيال، وشوشة لا تمس، سوسنة لا تقطف، عينا ملاح فيهما

حيرة، في الطريق يرى الحريم، متشحات، سافرات بلا براقع يجردهن في عقله من ثيابهن، قطعة قطعة، تستند أمامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحرير، كلما جرد الواحدة منهن، عاد يكسوها، برفق، بأناة، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها، يبدو لحم الذراعين، تكور النهدين، ثم انبساط لحم البطن، يتوه عندئذ بنظراته في الفراغ، يروح بخياله إلى بيت «أنس»، يقصده أصحابه المجاورون الذين يجري المال ميسوراً بين أصابعهم، يقال انه يحوي قاعة فسيحة تمتليء على آخرها بحشيات وروميات، قيل انه توجد هنديات، في العام الماضي جاءه مال بعد نسخه كتاباً في المنطق لأحد مشايخ الصعيد، ألح عليه أصحابه في الذهاب إلى بيت «أنس»، عصر أصابعه، هز رأسه مرات، رفض، لا يدري ما الذي دفعه إلى الرفض؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون، أهالي الربوع والحارات في الباطنية طيباً، رقيقاً، متديناً، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال، يسعى لتخليص امرأة من يدي مملوك يبغى اختطافها، يزعم منادياً الطلبة، الأزهرين، مهيجاً الرجال، يلتفون حول المملوك، يقول عامة الناس، لو أوتي سعيد قوة قرقماس المصارع لما جرد مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة، لكن الله خلقه ضئيل الحجم، كثير الأمراض، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق، يتوافد إليه الناس على اختلاف أصنافهم وألوانهم يسألون عنه، ماذا لو عرفوا ارتياده بيت «أنس»، دفعه دراهم ليمتلك امرأة بعض الوقت . .

«لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد . . .»

ينفي الخاطر والفكرة، تحوم سماح من بعيد في عقله، سره الدفين الذي أقام عليه أرصاداً دونها أرصاد، لا يمكنه رؤيتها بعيني عقله عارية، أو تقف في حمام، كل ما ترتديه قبقاب خشبي عال يمنع عن

باطن قدميها الماء القذر، سماح خلاصة نساء الأرض أجمعين، منها
تفرعن، عنها أخذن، إليها يعدن، في المستقبل البعيد لا يراها إلا معه،
ينظران معاً من طاقة مشربية، يمشیان في حديقة، يسافران بلدأ، منذ
أيام يشتد البرد، في البرد يرى سماح موطنأ ينبع دفثأ وسلامأ.

قال الشيخ ریحان:

«هیا بنا إلى الغرفة العلویة».

طلع سلم البيت الداخلي، كأن لأنفاسها أثراً تعلق في الهواء، تجسد
إلى أبد خاف أن يسمع الشيخ ریحان دقات قلبه، يرى ارتجاج أمره
واضطراب لونه، يتربع الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة، ينفت
الدخان هادئأ، تقرقر الترجيلة، قام نصف قومة، مال عليه سعيد. . .

«شتاء العام لم نر منه بردأ بعد. . .»

«ليس باردأ كالسنين الماضية. . . لكنه في الرواق لا يطاق. . .»

تنوهج الحجرات، يسقط شيء ما في البيت، ربما وعاء، علبة
تمسكها، الليل هنا ناعم فيه هدوء البيت، وأمن عائلي.

كاد ممالك طشتمر يطفشون في الناس اليوم. . . لولا خروجنا من
الأزهر والوقوف بينهم وبين الناس. . .

«ياه. . . لم أسمع بهذا فأنا لم أخرج طوال النهار. . . تقول ممالك
من؟؟» طشتمر. . .

«غريب. . . كان هادئأ وممالكه لا بأس بهم. . . ما الذي غيره؟؟»

«أبدأ. . . كان الأمير خاير بك حط في حقه كلامأ عند السلطان. . .

وأشيع أن السلطان ينوي اعتقاله. . .»

«يا سلام. . . طول عمره طشتمر متهور. . . متهور. . . لا يسمع
الكلام أبدأ».

هنا يصمت سعيد، يبدو الأمر مسلياً، لكنه يبرره، يبحث فيه عن فضيلة ما لأنه صادر عن والد سباح، دائماً لا يجيء اسم أمير، موظف عظيم إلا ويسارع قائلاً ومؤكدًا بوجود رابطة قوية بينهما، أحياناً يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال أو استفسار، كأن يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمي؟؟ هنا يتراجع الشيخ ربحان إلى الوراء، يزعم منادياً الخادم ليحضر جرات للنرجيلة، «يا سلام.. طشتمر ربيته أنا على يدي.. كان يجيء هنا عندي وقت أن كان مملوكاً ضعيفاً، عرفته قبل زواجه بخوند زينب امرأته الأولى»، سعيد لا يعرف أحقاً تدعى امرأة طشتمر خوند زينب، أو لا؟؟ إنما يقول، أظن طشتمر والأمير ملكتمر الساقى من...» لا يدعه الشيخ يتم كلامه، يسارع قائلاً، «ملكتمر.. ملكتمر هو الذي أنصفني على موسى بن اسحق عند اختلافي معه في بعض أمور بيت المال.. استدعاني ملكتمر في منتصف الليل تماماً، أي والله منتصف الليل، طلعت إليه في القلعة نفسها، أنا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لأحد غيري، المهم أنه قبل يدي.. أي والله ملكتمر قبل يدي فأنا أكبر منه سناً قال.. إنه يعرفني صالحاً تقياً، لهذا سيلغي أمر موسى بن اسحق تماماً، واذكر أنه ربت بيده على كتفي.. فأمسكت ذراعه.. بالضبط يا سعيد يا ولدي أمسكت بذراعه..»

«وعندما جاء الزيني بركات بنفسه تفرق بمالك طشتمر.. بل قبض على أربعة منهم وأرسلهم إلى المقشرة».

«الزيني.. بركات.. آه.. كان المفروض أن أزوره منذ يومين..»

«الزيني بركات أرسل إليك يا عمي؟؟»

ياه، تسرع سعيد بالسؤال، في كل مرة يسكت، لماذا الآن لماذا الآن بالذات؟؟

«الزيفي صاحبي . . كان المفروض أن أزوره لولا صحتي التي لا تساعدني .

«قواك الله . . .»

«أي زيفي يا ولدي . . أمثاله كانوا لا يدخلون عليّ إلا بصعوبة يسعون في ركابي . . إلا قل لي . . هل الناس راضية عنه؟؟»

«جداً . . .»

«أعرفه . . فهو عادل وأهم ما فيه أنه عاقل . . عاقل جداً ما آخر أخباره؟؟»

«لم نعد نرى المتابعين لزكريا . .»

«زكريا بن راضي . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . إخفض حسك يا ولدي . . ربما سمعنا . . .»

الآن، تنسال مرارة في حلق سعيد، أي طالب مجاور لا يجرؤ على لغته، سعيد يلعنه في سره، يعرف امتداد ظله بين الأوراق والحجرات، إلى محراب المسجد، تحت حصير الجوامع، غرف النوم في البيوت، يقول عنه الشيخ أبو السعود، هذا من علامات الساعة، لا بد من بقائه فوق الدنيا ممثلاً لإبليس حتى يتعذب الخلق أضعافاً مضاعفة، وقتها تضايق سعيد من كلام الشيخ أبو السعود، ربما يقول هذا لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضي، باستطاعة الشيخ أن يفعل، لا حاجة إنسان، لكن أين زكريا ليمسكه، لم يره أحد، يقال إنه يقيم في أكثر من مكان، لا يدري أحد عمره الحقيقي، يعرف الناس مقره الأصلي، بعيداً تحت جبل المقطم حيث يتهاشم البعض بسماهم صرخات بشر يجلدون، تحرق أطرافهم، يحوزون لكن هل يقيم زكريا هناك فعلاً، يقولون إنه ينام كل ليلة من مكان مغاير، إن وجهه لم يره إنسان، حتى

الشيخ أبو السعود، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين نوبيين، دائماً يعيشون معاً، يقرأون في مصحف واحد، يأكلون في قصعة واحدة، ينامون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصاً بعينه، هكذا تعودوا، بين الحين والآخر، يختفي مجاور أو طالب، أحد العامة من السوق، لا يدري أحد عنه شيئاً، يترك ذهابه خوفاً وعكارة في النفوس، من يدري، ربما جاء الدور على هذا أو ذاك غداً، عند اقتراب الأثر الذي أحدثه الإختفاء من الزوال، يضع إنسان من جديد، ترتجف القلوب، سعيد لم يطق نفسه عند ذهاب النوبيين، تمنى لو زعق محرضاً الأرض والنجوم والقمر والكواكب، يوقظ الأحاسيس في الجهاد، يومها قطع الطريق جرياً إلى كوم الجراح، أصغى إليه الشيخ قال «أحقاً سبوا زكريا . . هكذا سمعت» سعيد لا يدري، دائماً يتحدثون لغتهم الغريبة، لغة لا يفهمها أحد، كيف وصل الأمر إلى زكريا إذن، كيف؟ يقول العامة، لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان، يمكنه فك طلاس الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضي إلى جبال واق الواق، لا يرجع أبداً، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة، سعيد لم يقل هذا للشيخ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق، في المساء خجل من روحه، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ، تلا سعيد «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

«ابق لتأكل معنا».

يحن إلى مذاق طعام بيتي، مرق تشرب منه سماح في الليلة نفسها، ملعقة ربما لامست شفتيها، لكن كربا يؤرقه، لا يطيق بقاءه في مكان واحد، الشيخ ريجان لم يلح، دس سعيد قدميه في نعليه، يعبر الممرات الصغيرة في الحديقة بمفرده، يهم برفع عينيه، لو أنها تنظر الآن، لو يراها

مقدار ساعة، يقضي والله عمره متنقلا فوق مآذن الدنيا، زاعقاً بإسمهما في وجه السماء، معلناً ما يتقلب في صدره، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه، زاده عيناها، آه لو تصغي إليه آه لو يركبان في زورق عبر النيل، أياديها في التيار، تنثر رذاذاً أبيض، يراها في مدينة لم تعرف الطواحين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق، لا يتوجع امرؤ لخطف إبنته، لا يساق الفقراء إلى الحب، إلى المقشرة، لا تقضي أعمار في سجن العرقانة، لا تنزع يد من جسم لأنها سرقت خياره، سماح تطل على طريق لم يُجس فيه أحد، يحتضنها بذراعه. يضحكان، تمضغ لباناً جاءها من العجم، في عزلته الليلية، بعد نوم صحبه في الرواق، تحيئه سماح، همسة دفء يجود بها برد ضنين، رعشة ريح باردة في قبض صيف عفى يخنق الأنفاس، لا يذكر لون شعرها، لكنها أمل النجاة من دهر بأكمله، ها هي الحوارية تثقل عليه، جمال مثقلة بالدريس، إلى أين؟ أي مكان يحتويه؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوي، العطارين، ينجل من المجاملة والتحيات، يعرفونه، الآن لا يطيق البقاء في الرواق حتى الصباح، فراغ خائق لوبقي وتناول العشاء، لكنه أكل مرتين في أسبوع واحد، يجب ألا يثقل عليه، ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين أمها، مجرد تخيله ما يقال يرجفه خجلاً، هل يذهب إلى دكان «حمزة» يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسمن والحليب، يبادل الخلق أحاديثهم يستقصي حديث الهموم، دكان «حمزة» يمتلئ بعد العشاء، بمدخني الحشيش، ربما قال الناس، أنظروا تلميذ أبي السعود ينسطل ليعرف كيف يصلي الفجر، إلى أين إذن، يجب استقراره في مكان، لو تكرر مروره في نقطة معينة بالطريق يرصد البصاصون، يصل إسمه إلى زكريا، يوقن من وصول إسمه يوماً ما، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع إسمه هناك، من يدري؟ ربما مئات الصفحات عنه أمام زكريا؟ هل يغفل رجاله عن سعيد، عموماً زكريا لا يملأ كل

شيء كالعادة، هذا ما يحسه سعيد، لم يخبره أحد، لم يطلعه كبير على سره، إنما هو واقع أقرب إلى الوعي والإدراك، لأول مرة يطوف منادون في طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب البصاصين، بل إن الشعراء في المقاهي وأرباب المغاني والطرب، أصحاب فنون الرقص، الحواة، وعاظ المساجد، يخضعون بشكل أو بآخر إلى نقابة البصاصين من هنا يعني سعيد حقيقة مرور منادين يرتدون سروالاً أزرق وقميصاً أخضر حوافه محلاة بالقصب، زي جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه، لم يكتف الزيني بهذا، إنما رتب مرورهم، أول النهار، بعد الغذاء، قبيل المغرب، قبيل العشاء، ينطلقون بلا حرس، كل ما بأيديهم عصا قصيرة، يقرعون بها طبلية صغيرة، ينقلون إلى الناس ما استجده الزيني من أمور، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لثيم، عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تردد في قبوله وانتابه شك، أو تاجر كبير، قريب لوزير أو أمير، قريب الزيني نفسه؟؟ هل يجري عليه ما جرى للآخرين، لم يحدث هذا ولو حدث لبداً أمراً عجيباً، بعد النداء بأيام ثلاثة، سمع سعيد ضجة، تجمع الناس حول مناد يرتدي الثياب الجديدة، ما الأمر؟ ترزي من ناحية المغربلين، ليس خيطاً صغير الشأن، يفصل الفرجيات والقفاطين للأمرء، لأرباب الدولة، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه بداء مكين، وأثناء مشيه في سوق الخيامية، أعجبه غلام صغير، قال للغلام ما اسمك يا شاطر؟ قال إسمي كمال، قال تعال آخذك إلى أبيك في الجامع لأنه ينتظرك هناك وسأشتري لك سنسوك، غير أن اللعين ساقه إلى خرابة قديمة وراء الجامع الأزرق، مال عليه، لم يحتمله الغلام فانفزر من ثلاث جهات. وذهب إلى أبيه يفجع غارقاً في دمه، طلع الرجل إلى الزيني باكياً، أمر الزيني بإحضار الترزي، سأل الغلام، أهذا هو الرجل؟ فأوماً الطفل باكياً، زعق الرجل، الولد كذاب،

فضربه الزيني على وجهه، قال: الأطفال لا يكذبون. أمر بإشهاره على حمار في القاهرة كلها، وسجنه بالعرقانة، حتى يكون من أمره ما يكون، طلع إلى الزيني بعض المشايخ قالوا، ما جرى يحدث كل يوم، مالوا في كلامهم. لم يصرحوا، إنما لمحوا، الرجل يعرف بعض الأمراء ممن يترددون عليه، وهؤلاء ربما.. يعني ربما، قيل إن الزيني قام واقفاً، نتر فيهم، أمر بإخراجهم، قال لن تحدث فاحشة في زماني أبداً، أنا ما أخشى إلا هو، أشار بأصبعه إلى السماء، قيل بين العامة، انه ضربهم على أكتافهم بمقرعة مقبضها عاجي، مزخرف بذهب، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة؟ سعيد خشي على الزيني، خاصة وإن علي بن أبي الجود الذي تسلمه منذ عشرين يوماً، لم يعلن المنادي خبراً عن إكتشافه المال المخبأ، ما يهم السلطان المال، ربما وجد زكريا الفرصة ليوغر صدر السلطان، عندئذ يقلل الزيني من الحسبة، الواقعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت، لكن.. ما هذا؟ أيقلق سعيد من أجل الزيني؟ أيتمنى سعيد وقوع العذاب بعلي بن أبي الجود ليفشي سر المخبأ من ثرواته، أيرجو العذاب لإنسان ما؟ حتى علي بن أبي الجود؟ طبعاً، وكم إنسان عانى ما عانى منه؟ كم؟ ثم ألن يوقع به الله عذاباً أشد وأنكى يوم القيامة، لا ينكر سعيد قرب الزيني من روحه، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ أبو السعود، كان الوقت ليلاً، خرج إليه الزيني ملثماً. عمامته صغيرة. ثيابه عادية شأن فقراء المتصوفة. مشياً صامتين. ينظر إليه سعيد من طرف خفي. رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله في قرية نزة، الصوف الممتزج بعرق الرجولة، رغبة راودته. لو يراه بعض أصحابه يمشي مع رجل يذكره كل لسان في القاهرة اليوم كله. في أي الملامح يكمن الإباء؟ القدرة على رفض منصب كبير؟ كل من صدر مرسوم بتوليته وظيفة من وظائف علي بن أبي الجود انتابته فرحة. بقوا في بيوتهم يتلقون المهنيين، أما

بركات بن موسى المرشح لأخطر وظيفة . رفض . يندر الرفض في زمن
بخيل بكل ما يحلم به المرء ، بعد سكوت قال سعيد «أمرني مولاي ألا
أرجع إلا معك» . لفتنة منه وهزة رأس . خجل سعيد . ربما يفكر في
أمور خطيرة . فجأة قال «مولانا لا يمكنني أن أعصي له أمراً» وتتابع
أسئلة الزيني . أخبره سعيد بأمره كيف جاء من البلدة . كيف التقى
بمولاه ، تردده عليه ، رفيقه له ، أخذه العلم عنه ، بقاءه عنده طوال وقته ،
الآن يذكر أسئلة الزيني ، ثم صمته المفاجيء لا يدري سعيد ما يجري
بينهما . أمره الشيخ بالعودة إلى الأزهر . من يومها لم يقترب سعيد من
الزيني . فيما عدا موكب عودته من الأزهر . لكنه مشى منفرداً بين
الخلق . لا يدري الزيني بوجوده ، لا يصغي إليه . آخر المنادين طاف
منذ ساعتين ، لا يدري ما قاله للناس . في الأسبوعين الأولين يتجمع
الناس بقصد الفرجة والإستماع إلى ما يقولون . بمرور الأيام خف
زحامهم ، أما الأطفال فلا يفارقونهم . الآن . يقف سعيد فجأة يبدو أنه
اقترب من حارة قصر الشوق . رجل يمضي مسرعاً . أليس هو؟ لماذا
توقف . تجمد . أي حيرة انتابته . لا يذكر طول القامة . يذكره ممتكساً
ونحيلاً . معتدلاً وذو حذبة . لا تثبت صورته في الذهن . إنما هذا الماشي
هناك . هو هو بعينه . اجتاز حارة بيت المال . يمضي طريق إلى حارة بيت
القاضي . آخر إلى مسجد الشهيد الحسين . اختفى . لكن أين الحرس .
كيف يأمن على روحه؟ وإذا كان هو الزيني بنفسه . هل رآه . . هل
عرفه؟

يا أهالي مصر .
نوصي بالمعروف ونهي عن المنكر .
اليوم . .
خرج السلطان إلى الريدانية .
بدأ لعب الكرة ، وكله عافية .
أمدّه الله بالصحة والقوة .
يا أهالي مصر .
ما زالت الوحشة والقطيعة مستمرة .
بين الأمير طشتمر والأمير خاير بك .
وكل منهم مترصد للآخر . فانتبهوا . .
يا أهالي مصر . .
العطار صابر بن الحمزاوي غش في الميزان .
وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم .
غش المغات ، ودس السقنقور الهندي .
وعنده منه الكثير ، حتى يغلو ثمنه .
لأنه الوحيد تاجر السقنقور .

رأي الزيني بركات بن موسى . .
ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي .
منفذ تعاليم الشريعة، وحافظ حقوق الناس .
وخادم السلطان .
بتغريمه مائة دينار .
والحوطة على مخزونه من السقنقور .
وتوزيعه على سائر العطارين .
ليتنفع به المخاليق، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد
والله منتقم من كل غشاش لئيم .
إعظوا .
يا أهالي مصر .
يا أهالي مصر .

زكريا بن راضي

صباح الثلاثاء سابع ذي القعدة ٩١٢ هـ

يخلو إلى نفسه تماماً إذ يتأمل طفلاً، يداعبه، رقة العمر الأول،
ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف، لو يبقى الإنسان طفلاً إلى
الأبد، يحرك اليدين كما يشاء يضحك في كل اتجاه، يحبو، يعبت،
ينكي فتهرع نفس حانية تحفف الدمعات، الأوهام والمخاوف لا تتخذ
من قلبه الصغير خاناً أبدياً، يرى الدنيا بعين الدهشة والتساؤل، محال
هجرة زكريا عبر الزمان قاصداً بداية سنيته. أحياناً يوقن أنه لن يمر بمثله
أبداً. لا يذكر يداً ملست عليه. أصعب الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه
الأول والأخير حتى الآن. يس. يجيئه ملفوفاً في قماط قطيفة سوداء
مطرز بذهب، يحمله، أمه زينب ترقبهما. تحكي أخبار يس. كم مرة
أرضعته. ابتسامته الهادئة عندما راح في نومه. إذ يستيقظ كأن عينيه
تبحثان عن الغالي أبيه. تعثره في الحروف. تطيل الحديث. يس هو ما
يقربها إلى الرجل. تتباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه. لم ينجب
منهن. أما هي فولدت له يس. تتجاهل أحمد الذي جاء منذ أربع سنوات
ذهب بعد شهور. أمه الحبشية لا تزال تقيم في البيت. مجهولة لا يعرفها
أحد، لسعة حزن حارقة تغشي قلب زكريا بين الحين والحين. لم تطفئها
السنون. تخفف حدتها. أشد الظروف فظاعة لم تعطله عن لحظات

يمضي فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليل برغم تحذيرات أمه . يلعبه .
يناغشه . من شهور أمسكوا في خان الخليلى تاجراً رومياً قيل إنه يكاتب
ابن عثمان بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا . راقب عقابه بنفسه .
تعصير أكعابه . حرق جلد ظهره بنار هادئة . ومبروك قائم على تعذيبه
بهمة عالية ، بإخلاص وتفان . نزل الصمت كالجثة على بقية المحابيس
في حفرهم . وهم يصغون إلى صرخات الرجل التي لا تنفذ إلى الفراغ
الخارجي أبداً . يعرف زكريا أي رعب يمتلكهم . ما يقع في أرواحهم
من رعب والألام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم
حتى ، أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة ، خاصة حديثي
العهد منهم بالحبس ، من يدري ، ربما جرى عليهم ما يجري على
المنكوب الرومي ، طال صمته ، لم ير زكريا إلا تقلص وجهه ، جحوظ
عينيه وتضخم أنفه ، تدلى فكه ، لكنه لم يفه حرفاً ، ما غاظ زكريا ، ما
كاده ، تأكده من وجود شركاء للرجل ، بعد مرور نهار بأكمله ، أمسك
زكريا بسبيخ رفيع طويل كالإبرة محمي ببطء ، على مهل راح يدفعه في
بطن الرومي ، حول سرتة ، زكريا يخشع بدخان اللحم المحترق ،
خرج ، نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء ، عبر الفناء إلى جناح حريمه ،
طلع السلم المؤدي إلى غرفة زينب ، سأل : هل نام ؟ ، أومأت . . نعم ،
قال : أريد رؤيته ، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل ، تأمل قضاء الليل معه ،
بقائه عندها حتى الصباح ، لن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا
بنجاحها في استبقائه الليلة كلها ، طلب رؤية يس مرة أخرى ، قالت . .
نائم منذ فترة يا سيدي ، قال بصوت أجوف أرعشها خوفاً أنا لم أقل
صحيحه . . مشت أمامه ، بين الخشايأ رق وجه الطفل مستديراً مغمض
العينين ، قمر بين غمام ، بشرة تفاحة ملساء ، قماش حريري يشف عن
ملاحه ، قرب الشمعدان منه ، تمايل الضوء ، بقي مقداراً من الزمان ،
يرحل وجه الرومي مبتعداً ، قالت المرأة : هل أخلع القفطان يا سيدي ؟

إعتدل فجأة، لم ينظر إليها إنما مضى إلى الباب، تقارير اليوم لم يراجعها، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومي، أسرعت خلفه، خيبة أمل لا تحجل من التواري في صوتها.

الآن، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت، ينفذ الريحان إلى صدره، وشيش سعف النخل، أضجار غريبة أرسلها إليه كبار البصايبين في الهند، في اليمن، في الحبشة، في ركن الحديقة الأيمن، زهور صفراء قليلة، لا ينسى إحداها، همسة تجسدت زهرة، رقيقة صفراء، حوافها بنفسجية، قلبها أحمر قان، به ثلاث ذرات من لون أخضر قاتم، رآها تتفتح أمامه، شهد إطلالها على العالم أمام عينيه، يذكر المنظر متعجباً، في الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة، صياح، بعضها غريب، الآن لا همس لها، في الشتاء يرى عصافير طليقة، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد، من بلاد ليلها ستة شهور ونهارها ستة شهور، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف قاحلاً منها، زكريا يؤرخ اليوم الذي يرى فيه أول العصافير في حديقته، يتساءل، أهذه العصفورة بعينها هي التي جاءت في العام المنقضي، كم تعيش إذا لم تغتلبها يد صياد؟ تموت موتاً طبيعياً، أمثل هذه المخلوقات يموت؟ فكر في إطلاق المنادين ليأمرؤا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع، ربما ظن بعض الأمراء الظنون، ربما قبول أمره باستخفاف، هل خلت دنيا زكريا من المشاغل تماماً حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور، في الأيام الأخيرة يكثر من تأمل عصافيره حبسة الأقفاص، مداعبة يس، لكن ضيقاً وقلقاً يزحم صدره، يضيق عليه، لولا الطيور ويس، الخروج بين الحين والحين متخفياً، سفره إلى إقطاعه في سرياقوس ربما طق له عرق من الغضب، لكن صبراً، مثل هذه الظروف تتطلب لبونة وبأساً، لم يصله رد الزيني، حتى شك في وصول

الخطاب، لكنه استوثق من وصوله بين يدي الزيني نفسه، تعب جداً حتى تأكد من وصول الرسالة، ما من بصاص واحد يتبعه يعمل في بيت الزيني، ومقدم بصاصي القاهرة لم يهتم بدفع بصاص إلى بيت الزيني من قبل، فلم يكن له شأن يذكر ولا حس يسمع، وعد بإدخال عين إلى البيت، حتى خدم الزيني لم يعرف واحداً منهم، كأنه أحضرهم من بلد غير البلد، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في أثر هذه المرأة التي طلعت أمام موكب الزيني، زعقت في وجهه . . يا لثيم . . إذن هي تعرفه، ربما أدى الإيقاع بها إلى كشف المستور من سيرة الزيني، قال المقدم في أول تقاريره، هي امرأة بلا أهل، سكان بين السيارج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية، يعرفونها، يرونها أحياناً منذ صغرهم، لا يعرف بيت لها، قيل انها تنام في أحواش الموق خارج باب النصر، واسمها أم سهير، وقال آخرون بل اسمها «مسكة» وليس لها بنت اسمها سهير، وحدث أن شتمت الزيني في شارع الصليبية مرتين، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر كأن الأرض انشقت، ابتلعها، وقيل في تقرير بصاص موثق به مكين، أن رجلاً عجوزاً يجلس بجوار سبيل بشتاك دائماً، معصوب العينين، حدث فقال هذه المرأة تذهب إلى الزيني بركات بن موسى، تعانقه، يتبادلان البكاء، تحتضن رأسه بين يديها، تناجيه بأرق الألفاظ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له وما يدبر ضده، قال العجوز انها تخاوي عدداً من الجان يخدمونها، ويأتونها بصادق النبوءات، أما من هي، فلا يعرف العجوز، متى تخلو إلى الزيني، لا يعلم، لماذا زعقت في وجهه أمام الخلق، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق، وألمح العجوز إلى احتمال قيام صلات خفية بين الزيني وعالم الجن، الزيني تجاهل الخطاب، كأنه لم يقرأه، لم يطلع عليه، شهاب الحلبي سأل منذ أيام، هل وصل رد من الزيني؟ زعق زكريا في وجهه، ثار، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابته؟ أهذا ما

علمته لكم؟ أتعرفون ما عاقبة الثثرة الكاذبة؟ عاقبة الفضول، الكلمة التي تخطها يجب أن تنساها، إرتعب شهاب الحلبي، أشد ما يخشاه غضب زكريا، الأدهى من ذلك، لو ظن شيئاً من وراء السؤال، ربما ارتاب هنا لا يدري شهاب الحلبي ما قد يفعل به، عمله الطويل لا يغفر له أي زلة مقصودة أو غير مقصودة، دائماً يردد زكريا على مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من السنين، لم يكن إلا بصاصاً وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي، ألد أعداء الخنكار، شهاب الحلبي حريص دائماً على حركاته وسكناته، ليس هو فقط إنما أي إنسان يعمل في ديوان البصاصين، زكريا تعجب لحدة غضبه، لكن تأخر الزيني بضايقه، سؤال شهاب الحلبي نغزه، كل يوم يقول، ربما أجاب الليلة، غداً، لكن الزيني تمادى في غيه، الأمير الجمدار هز رأسه، قال، السلطان يوافق الزيني على كل كبيرة وصغيرة، الزيني يطلع إلى السلطان كل ليلة، يخلو به مقدار ساعة، لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما، زكريا يواجه ظروفاً لم يعرفها أحد أسلافه، ربما يرد إسمه في هذه الخلوات، ربما تدبر له الملاعيب، عاوده انزعاج ليل وصول تقرير يؤكد استمرار الزيني في إقامة فرقة بصاصين خاصة به، الأمير منكلي بغا - وهو قريب الصلة من زكريا - ألح في لقائه مع الزيني إلى أن الأصول تقضي بوجود فرقة بصاصين واحدة في السلطنة كلها، وأن يتبع زكريا بن راضي المحتسب كما هو متبع، لكن الزيني هز رأسه، قال لا أطمئن إلا لرجالي، أن توجد فرقة بصاصين أخرى فهذا ما يقلق زكريا فعلاً، ربما تسرب أحد إلى بيته، إلى ديوان السر، أصدر أوامر مشددة إلى مقدم بصاصي القاهرة، إلى مقدم بصاصي الوجه القبلي، الوجه البحري، مقدم البصاصين ببلاد النوبة، أن يرصدوا ما يقيمه الزيني، أن يتعقبوا أفراد الفرقة الجديد، من هم، أين، كيف

يعملون؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا الموضوع باهتة، عموماً لا بد من العمل في تأن، لكن بلا هدوء، لا بد من حسم أمر الزيني وإلا أصبح تاريخ البصاين كله مهدداً، استدعى كبير الشعراء والمغنين في مصر، ابراهيم بن السكر والليمون، ابراهيم من أخلص مستصنعيه، يشرف على الشعراء في المقاهي، وأصحاب الربابة، المنشدين في الموالد والأذكار، كافة ما يقولونه من المواليا والدوييت والأراجوزات والسير، كل ما ينشد لا بد أن يقره لإبراهيم بن السكر والليمون، يحذف منه ما قد يراه مخلاً بأصول الديانة والأخلاق، ما فيه من تعريض بوجه كبير أو أمير من أمراء الدولة، إبراهيم يحيى إلى زكريا يوم الثلاثاء في كل أسبوع، يحكي له أخبار المغنين والمنشدين، أحوالهم وما يدور بينهم، وما ينتويه كل منهم. ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى والطرب. يسخر زكريا في سره. لا يخطر هذا ببال الزيني.، يستمع الناس إلى الشعراء في المقاهي. يرون سيف بن ذي يزن ينشأ الأرض بحثاً عن كتاب النيل. ترتعش القلوب حباً لذات المهمة. يتابعون أخبار البرامكة مع بني العباس. أبوزيد ودياب والزناقي خليفة. سليمان وكيف تحكم في الجان. استشهاد الحبيب النجيب في كربلاء. لا يدري إنسان أن ثمة خيطاً يربط كل أرباب المغاني والمنشدين والقصاصين في مصر بعضهم إلى بعض. خلا زكريا إلى إبراهيم بن سكر والليمون. طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة. عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه الجاه فجأة، فادعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة منشدين في دكان «لأنضى»، «دكان البهجوري» بالحسينية، ودكان «يونس» بالفسطاط، ودكان «أبو الغيط» في بولاق، الدكان الأول والثاني من أكبر دكاكين الحلبة والجنزبيل والنراجيل في مصر وروادهما من ميسوري الحال، ويبدأ شرب الكيف فيها بعد العشاء، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل القوم،

جلهم من الفعلة، بعد يومين تنشر الحكاية في عشرة دكاكين، في أحياء مختلفة من القاهرة، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها عن البلهاء، غادر إبراهيم بن سكر والليمون بيت زكريا، قام، نزل إلى الحديقة، إنه الآن أكثر نشاطاً، يفكر بسرعة، تندفع إلى ذهنه الخواطر، يذكر عشرات الأسماء، المواضيع، يضرب راحته بقبضة يده، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط، ينسى روحه تماماً، تولد مشاريع لا يمتضي وقت طويل حتى تتحقق، إنه لا يغفل التفاصيل، أدنى ما يخص المشروع، كافة ظروفه وأحواله، بعد انصراف إبراهيم بلحظات، في غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امرأته زينب، احتضن يس، رفعه، حمله فوق كتفه، حبا أمامه على أربع، قلد أصوات الشاة والحمار، كاد يرمي روحه في الفراغ مرحاً ونشوة عندما علت ضحكات يس، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى، دخانها نعناع، وريحان وبلسان، فجأة أسنده إلى يدي أمه، نزل مسرعاً، فارق ولده لم تندesh زينب، تعودت منه كل غريب، أرسل في طلب المعلم عوض المعروف بين العامة «بابن كيفه» لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكاح، جاء، وقف صامتاً، ينتظر ما يقوله زكريا، فهو من مستصنعيه، زكريا سروره زائد عن الحد، هل يدرك الزيني أن رجالاً كهؤلاء رهن إشارتي، يتبعونني؟ ربما بدوا في نظره تافهين لا شأن لهم، لكن ما أعظم خدماتهم، جاء المعلم «ابن كيفه» ضخماً عريضاً، صوته كالنعير، مع هذا بدا مرتجفاً؛ عندما رآه زكريا هجم عليه، احتضنه مقبلاً، حار الرجل، أيرد القبلة أم يقف ساكناً في حضرة كبير بصاصي السلطنة، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة، أخذه زكريا، مشياً إلى مقعد رخامي تحت نخلة عالية كسي أسفل جذعها

بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق، سأل زكريا عن أولاد المعلم، وحال حريمه، هل تصالح عن امرأته الثانية التي أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم ما زالت الفرقة بينهما، قال بسرعة، انه سمع بعزم المعلم على طلاقها، هداً صوته، تراجع برأسه، ألا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم؟ أنت تعرف، أبغض الحلال عند الله الطلاق، لكنك لو أصررت لا يمكنني الإشارة عليك بأمر آخر. لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضاً. زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة. غرق في خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكاً. بيني وبينك الحق عليك أنت يا معلم انت لا تعطيتها حقها كما يجب. زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله. لا يا معلم. لا بد من العدل. العدل مطلوب هنا. آخر مرة ذهبت إليها متى. آه. متى؟ أخبرك أنا، منذ شهرين وأسبوع، أنت رجل تفهم الدنيا وتزنها على طرف أصبعك، وتلقي العيب عليها، تعظم خجل الرجل. انقلب نعيه همساً وحشجة. تبدو منها كلمتان، معك حق، معك حق، فجأة قال زكريا: مهمة صغيرة جداً أتمنى إتمامها. غمز بعينه، فرد أصابعه، يثنى واحداً وراء الآخر كلما ذكر أمراً أو مطلباً، يضيق المعلم عينيه، يصغي، تروح التفاتة منه هنا أو هناك، صوت زكريا هاديء، كأنه يطرق أي باب للحديث، قد تهب روحه بألف سبب وسبب، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجته منبسطة كلغة «صباح الخير»، حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيداً، ما يريد الآن مجموعة أقوال وشائعات وأحاديث معينة، تنتقل بين الناس بخفة ويسر، أصغى المعلم، قال «بسيطة لك غلى ألا أجعل حديثاً على لسان الخلق إلا ما تريد»، تضيق عين زكريا «لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق. يسرع المعلم جريئاً في مقاطعته. «اشتمني ولا تقل هذا. بسط زكريا يده «أعرف. أعرف، المهم ألا تظهر القصد في حكاياتك ورواياتك»، ضرب المعلم صدره براحتته، «ابن

كيفه يعرف شغله . . » ضحك زكريا « تعجبني يا زينة الرجال » قال بعد لحظة « ولا تنس مراجعة نفسك في الموضوع » تساءل المعلم ، أي موضوع ؟ ثم تدارك أمره عندما رأى الابتسامة الجانبية على شفقي زكريا ، « أي والله سأعمل عقلي يا شهاب . . أعرف أن أبغض الحلال عند الله الطلاق » يهز زكريا رأسه ، يقطب جبينه . يضيق عينيه وكان الأمر مفروغ منه « اذهب إليها بقطعة من القماش » بشيء من الحلوى . النساء عقولهن كالأطفال ، يؤمن المعلم على كلام زكريا . يتراجع . ينحني محيياً . يتبعه مبروك إلى خارج الحديقة . صوته العالي يبيء ملقياً بالسلام . كلما صادف باباً أو شرخاً في جدار أو نبتة زرع يلقي عليه السلام ، الآن يتضح مذاق الشتاء في النهار . يكسب حصى الطرقات بريقاً هيناً ليناً خفيفاً . النبات الغريب . الطيور حبيسة الأقفاص لا تكف عن أحاديثها الغامضة . في الليل تحرس . أما الآن في النهار فتبوح . يدخل إلى غرفته في الطابق الأول . أعدها للمقابلات . رطوبة خفية تسري في الحشايا الوثيرة المحشوة بريش ناعم . يحلوه أن يخلو إلى روحه هنا ، تلتصق النباتات الخضراء الخصبة بالمشربية من الخارج ، حركة النبات كل ما يسمع هنا ، السقف عال منقوش بالفضة والذهب ، ونقوش أبدعها « الخسرواني الفارسي » بجواره طبق نحاس ، يقرعه بيد قصيرة من الجلد . مرة واحدة . يجيئه « مبروك » لو همس سيده باسمه يجيء فوراً كأنه يقف الوقت كله منتظراً لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما تدور الأسئلة بعقله . كم عدد التقارير التي تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة في ورقة واحدة ؟ ربما يموت إنسان في هذه اللحظة بعينها . هذه اللحظة بالذات . آه انقضت . حلت لحظة غيرها . مات ، كم إنساناً يذكر اسمه الآن ؛ أي أفكار في ذهن الزيني الآن ، الآن تلد امرأة طفلاً . ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاماً بأي أرض يموت ؟ ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبئ بالمصير المحتوم في قرارة البحر الشرقي

الكبير، أحياناً والليل مسدل. يحاول النفاذ بعيني عقله إلى أحشاء
الظلام. كم رجلاً يعلو امرأة في المدينة الآن؟ أعداد لا أول لها ولا
آخر. لحظات كهذه يدرك فيها أنه مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور
ممتنعة عليه. لو يجيء زمان. يعرف بصاصوه كم من الرجال يضاجعون
حريمهم، أي أطفال سيسكنون أرحام أمهاتهم. أي طفل منهم سيولد
ويكبر، يثر فتناً وقلاقل. لو عرف هذا لمنع الرجال من اتیانهم المرأة التي
ستحمل الطفل. هكذا يجتز الشر من جذوره. قبل أن تنبت له جذور.
لو أوتي فرعون مصر بصاصاً عظيماً نفذ إلى حقيقة الطفل الذي ألقته أمه
في النهر. لما عرفت الدنيا نبي الله موسى. ولنجا فرعون وجنوده من
الغرق. يثق زكريا من مجيء زمان يعرف بصاصوه ما يدور في بر الشام
وهم جلوس فوق المقطم. إذا قارن أساليبه الحالية. هل تشبه ما
استعان به بصاص الدولة الأيوبية. بصاص الأشرف قايتباي منذ ثلاثين
عاماً فقط؟ الدنيا تتغير؟ لا يبقى أمر على حاله. زمان بمجرد إمساكهم
للمذنب يوسعونه ضرباً. ربما زهقت روحه. . الآن. . لا يحدث هذا.
موت المذنب آخر مطلب، تبدل عليه الآلام وهو واع حي. لو غشي
عليه فهناك من الأساليب ما تجعله يفيق. كأنه صحا من نوم عميق أكثر
نشاطاً. أمور كهذه يجهلها الزيني. وإلا أين نتيجة تعذيبه لسلفه علي بن
أبي الجود؟ تسلمه منادوه منذ شهر. لم يعلن منادوه استخراج درهم
واحد منه أو تقريره بأي ذنب. قيل بين الناس ان الزيني يجهل طرق
تعذيب المحاييس، تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما أشيع حول
علي بن أبي الجود، قال الأمير يلبغا الجاشنكير. إذا ما شنع العامة
والسوقة على كبير في الدولة فهل نصدق ما يقال؟ لا يصح هذا أبداً.
تجاهله الزيني. لم يرد على رسالته. فليلق عاقبة مكره.

تجاهل آلاف البصاصين وهم أطراف جسمه. يسمع بهم ويرى.

يشط الفكر بزكريا إذ يذكر أن كل إنسان يمشي حاملاً ملكين . ملكاً يرصد الحسنات فوق الكتف الأيمن، والآخر يدون السيئات فوق الأيسر، لا يكفي هذا، إنما ينتظر ناكرونا كير في القبر، يسألان، يستقصيان ويستفسران، ينتزعان الحقيقة بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف أبشع من قسوتها، كم عدد الناس في الدنيا؟ لكل إنسان ملكان، هل يوجد أتباع لناكر ونكير، لودفن رجلان في وقت واحد، كيف يستجوبانها؟ كيف يسألان في وقت واحد، ناكرونا كير لا يمكن تواجدهما في كل قبر، الموجود في الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى، يطيل زكريا التأمل، نظام عظيم وترتيب أروع، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة، يوما ما سيخلو إلى نفسه ويضع مطلباً مفصلاً بما يرجوه للبصا صين، ما يتمنى بحبيته من أساليب، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الانسان، أخرى تعيد زمناً انقضى برمته لمواجهة إنسان ينكر ذنباً اقترفه، الآن يقوم زكريا، يقطع الحجرة بحجة وذهاباً، يقيس طولها بخطواته، أربع عشرة خطوة يشيها متمهلاً مطرقاً تهاجمه الخواطر فجأة، يد خشنة تقبض قلبه، ها هو الزيني يبدأ العداء، حتى الآن لم يخط زكريا خطوة واحدة لهدم الزيني وايدائه، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا، هنا يبدأ العمل، ولو تهادى السلطان في مساندة الزيني؟ هنا تضيق عيننا زكريا، تسرع خطواته؛ يصبح طول الحجرة عشر خطوات، من الذي ساند الملك المؤيد شيخ الحموي عندما جاء إلى دست الملك من؟ الزيني لا يعرف، السلطان لا يدري، من الذي دفع به إلى كرسي السلطنة بعد سجنه زمناً طويلاً في خزانة شمائل، في السجن أقسم لو أنه خرج ليهدم الخزانة البشعة ويقيم مكانها مسجداً تتحدث به الأجيال، وفعلاً خرج، هدم خزانة شمائل، أقام مسجداً تفخر به القاهرة الآن، لكن هل يعلم المصلون فيه

والفقهاء من الذي ساند الملك المؤيد؟ من السبب في بناء المسجد؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا، إنما الأمر محفوظ في ديوان البصاصين، كبير البصاصين هو السبب، كرسي السلطنة ليس بعيداً عن يدي زكريا، من هنا يرحله، لو طال العمر بشعبان حتى يقر بما بينه وبين الغوري، لكن الضرورة أوجبت قتله، كان قمراً، لكن لا بد للأقمار أن تغرب وتمضي، اليوم سيرسل زكريا في إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل، نظام دقيق استحدثه يتفاخر به على البصاصين في أنحاء الدول والإمارات، كل حمامة تعرف أي الطرق تسلك، لا تطير فوق بيت فيه إنسان، فوق قافلة في الصحراء، إنما تعير الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن، اليوم ستطير الأسراب، ليعلم المباشر وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد، حتى العامة من الناس الذين خدعوا في الزيف، أي خطأ أتاه السلطان عندما ولى على أمة الإسلام في مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل، لم يره أحد يصلي جماعة في يوم جمعة، يظهر العدل، ولا يعرف أحد ما في عقله، أبطأ في استخراج أموال علي بن أبي الجسود، ومن يدري؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد في أذية الخلق، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادي العمائر، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفي، سيعلم طغلق أن بشتاك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذي بناه للسلطان في سوق الشرايشين، في نفس الوقت يعرف بشتاك أن طغلق يضحك عليه، يقلده ويلمخ إلى محاولات بشتاك في التشبه بالأمراء المقربين جداً من السلطان، يقول عنه، هذا رجل محدث نعمة؛ الآن يبتسم زكريا. خطواته تسرع. سيتنفخ فم طغلق يرمي زبداً أبيض. يسلط كل منهما مماليكه على الآخر. تضطرب أحوال الناس ترفع البضاعة من الأسواق. يكثر

النهب . يقوم عدد من أشداء البصاُصين بخطط عدة أبكار وغلماَن ،
الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجيء ، يمضي النهار وادعا يكاد يسمع
سريانه في الفراغ ، ما أحب الشتاء إليه . أمسك المطرقة الجلدية خبط
الطبق النحاس . مرة واحدة لها رنين .

مساء الثلاثاء سابع ذي القعدة

نداء

يا أهالي مصر
نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر
نعبد ونسجد ونحمد
من أذل كل لئيم متجبر
يا أهالي مصر
البشرى لكم
يأمر مولانا السلطان
بعد اطلاعه على أوفى بيان
رفعه الزيني بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلي
وشرح فيه حقيقة الأحوال
وما يمس العباد من الرعية الفقيرة
تلغى الضريبة على الملح
وتطلق يد التعامل فيه
من بعد أن كان حكراً على القلة القليلة
يا أهالي مصر

يأمر مولانا السلطان
بعد أن أطلعه الزيني بركات على حقيقة الحال
برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر
وسائر أنواع الخضار
وأن يبيعه الفلاحون في الأسواق بلا وسيط
حتى تنحط الأثمان
ومن يضبط حارساً أو مملوكاً
من القراصنة أو الجلبان
يتقاضى ضريبة على جملة خيار أو خضار
عند أي باب من أبواب القاهرة
يشنق بلا معاودة .

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء، سابع ذي القعدة

يأمر مولانا السلطان
بعد أن أطلعه الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
على الأحوال
ألا يمشي مملوك ملثماً بعد المغرب في الطرقات
وإذا تدخل مملوك بسلاحه الحارات
بعد العشاء

من نداء غير عادي شهره رجال الزيني مساء الثلاثاء، سابع ذي
القعدة، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر وما
يقال :

بعد الاطلاع على رأي الشريعة

واستشارة أهالي الرأي والمشورة
والبحث فيما مضى وانقضى
يأمر الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
بإبطال عادة نعي الموقى بدق الطارات
ومن ضبظت تدق طاراً على ميت
تشهر بغير معاودة . .

نداء أعقب السابق مباشرة
خصص الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة القاهرة والوجه البحري
باباً من أبوابه
لتلقي المظالم . .
كل من وقع عليه ظلم
من أي كبير أو صغير . .
فليتوجه إلى الزيني بركات
لاسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة ، وصلت إلى دار زكريا بن راضي ، مع رسول خاص
من رجال الزيني).
«والتين والزيتون . وطور سينين وهذا البلد الأمين»
إلى كبير بصاصي مصر . ونائب الحسبة الشريفة .
الشهاب زكريا بن راضي له السلام . .

نداء في ليلة الثلاثاء، نفس الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى
زكريا . .

من الآن فصاعداً
ستعلق فوانيس كبيرة تضيء بالشحم
هندسها وسواها
الأمير طغلق شادي العمائر
بعد استماعه إلى رأي الزيني بركات
متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي
على كل باب حارة
تحت كل منزل وقصر
أمام كافة الوكالات
ستعلق الفوانيس الجديدة
وسيقوم رجال الزيني بإضاءتها كل ليلة وبمعرفتهم
حتى تنام القاهرة آمنة
وحذار أن ينزع مصباح من مكانه
وإلا جوزي وعوقب أصحاب المكان
يا أهالي مصر
لن يكلفكم الأمر درهماً
فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
ياأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضي نائباً للمحتسب كما كان
في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب «الشهاب»
يا أهالي مصر

يا أهالي مصر
اهتموا. اعتنوا بالفوانيس الجديدة
ومن يضبط مخالفاً لأوامر ناظر الحسبة
شتق بغير معاودة. .

من عمرو بن عدوى

إلى مقدم بصاصي القاهرة
تقرير في وصف ما دار وما جرى
بين العامة والناس. ليلة الثلاثاء
سابع ذي القعدة

أجمع العجائز. وكتبه الدواوين. والقضاة، والمطلعون على حقيقة ما
جرى خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذي
القعدة لم يحدث من قبل قط. لم يعرف مثيله في بلد آخر. سمعت هذا
بأذني من مجاوري الأزهر. وعجائز زاوية الحلوجي وتجار الغورية
والباطنية. والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين. وزاوية العميان.
بجامع الأزهر. إذ لم يحدث طواف المتادين من قبل. كل نصف ساعة.
يتقدمهم طبل. وفي كل مرة ينقلون أمراً أو خبراً جديداً إلى الناس.
ولكثرة ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت
من قبل أن يردد النداء السلطاني أسبوعاً كاملاً خمس مرات يومياً إلا في
حالة وقوع حدث مهول، رأيت الزحام عظيماً، خرجت الباطنية برجالها
ونسائها أجمعين، الناس كلهم زغاريد وأيد تلوح وحناجر تزعق،
وتفاوت كلام الناس، وحتى لا أطيل وأكرر، أجمل ما سمعت كما يلي:
أولاً: كثر الدعاء بعد النداء الأول والرابع، للزيني بركات، وكثر
الكلام الطيب من سائر الأفواه؛ خاصة النساء، اللواتي رحن يهتفن

ويهرجن ، ويصحن «أدام الله أيام الزيني» ، وأجمعن على معرفة الزيني بما يقرص أبدان الناس وأرواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعالياً ولا متغرباً ، إنما يعرف أحوال الخلق ، ويقشعر جسمه لذكر المظالم ، يأنف تعذيب الإنسان ، ويركع الصلوات في أوقاتها ، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول ، اسمه شمس الرمضاني ، ويسكن أول ربيع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين ، لحيته بيضاء ، أعرف مكانه) انه يرى الزيني ينزل متخفياً في النهار والليل يتسمع أحوال الناس ، يحس ما يؤلمهم ، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيراً للفقراء ، وقال انه يعرف خادماً في بيت الزيني بركات يقول ان سيده يبكي طويلاً قبل نومه لعلمه تماماً أن الليل يرخي سدوله على حزاني مظلومين ، الزيني يتعذب كثيراً بسبب هذا ، يطلب من الله السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم ، وأشيع بعد النداء الرابع طلوع الزيني بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة ، قال فيها للسلطان «أنت مسئول عن هذه الرعية أمام الله تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب أنت وأحاسب أنا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه ، أين نروح يومها من جبروته ، أصغى السلطان طويلاً إليه ، كان حديث الزيني مشفوعاً بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، ونصوص من متن لا يجيدها إلا أفقه العلماء (قال التجار انه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه أحد) ، تحدث الزيني عن الأمير شاربك ، واحتكاه للملح في بر مصر كله ، وأنه الوحيد الذي يتجر فيه إذا ضبط إنساناً غلبان يبيع بنصف درهم ملح يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى ، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين ، واليسرى إذا سبقتها اليمنى ، أو يحضر ابن المخالف أو أخاه أو أمه أو أباه إذا وجد بلا أطراف ، احتكار شاربك للملح جعله يزيد في سعره كما شاء ، أحياناً يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الخضيض ، إذا شط مزاجه وغضب شهر

المناداة برفع السعر، هذا لا يضر إلا بالعرية نفسها قال الزيني، الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وإظهار الثقمة عليه والغيط منه، قال الزيني الأمر أدهى وأفدح خطراً بالنسبة للخيار، لأن الأمير طغلق حرج على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شراءه إلا عن طريق نوابه، وأكد التجار أن الزيني أجرى الدمع من عيني السلطان حتى أطلق السلطان يده فيما يشاء، بشرط ألا تنخفض مالية البلاد درهماً واحداً، السلطنة أحوج ما تكون للفلوس هذه الأيام بعد انقطاع عديد من الموارد، أبدى الزيني مقدرة على تحقيق هذا. بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولوطاته الأيدي لقطعته حتتاً، كما جهر البعض بهذا، لعن العامة أجداد الأمير شاربك وكثر الدعاء عليه، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطاً للمنادين إظهاراً لفرحتهم وبهجتهم . .

ثانياً: سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لا نضي) «أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندراني من سكان باب الشعرية، عنده معصرة زيوت، وله من العمر خمسة وخمسون عاماً، يقولون كلاماً له طعم آخر، إذ أبدى فتوح الاسكندراني شكاً وريبة في نداءات الزيني، قال فتوح، الأمر لن يستمر على ما هو عليه، السلطان لن يسمح باستمرار الأمور هكذا، إلا . . إلا إذا احتوى الأمر غرضاً يتفق مع مصالحه، وبذل جهداً في إقناع الحضور، أكثر من إشارة يديه، بادرت إلى نكشه محاولاً استخراج ما في رأسه ولم يخرج حديثه مع صحبه عن هذا، وفي مقهى آخر صاح رجل اسمه أبو غزالة في مصبغة بحارة الميضة «حقاً . . ومتى كان أحد الحكام يظهر العدل؟» .

ثالثاً: قرب سوق التريبة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام هناك، تساءل الرجال عن مغزى منع النساء من دق الطارات

حزنًا على الموت؟ أجمعت آراؤهم على حق الزيني بصفته محتسباً في منع هذه البدعة، لكن الأمر الأخطر من هذا، الأكثر فداحة، ما يخص الفوانيس، قال عبد الحميد رئيس طائفة السفائين في القاهرة (ومجلسه دائماً عند هؤلاء التجار)، قال هذه بدعة ما يصح نشرها في أمة الإسلام، وقال أحد الماورين في نفس الموضوع (اسمه جاد الله، صعيدي يسكن رواق الصعايدة) يريد الزيني إدخال بدعة جديدة تنسب إليه، قال آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس، كثر الحديث عن تعليق المصابيح، قال آخرون، ربما منع هذا هجوم المنسر في الليل، وأجيب على هذا بسؤال، هل يمنع الضوء هجوم المنسر؟ يعني إذا قصد المنسر أو المالك الهجوم على حارة من الحواري هل يمنعهم هذا؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم، قال اليهود ما دمنا لن ندفع درهماً لا بأس، وقال بعض المشايخ، لم يظهر من الزيني إلا الخير فلا بد من احتواء الأمر الجديد على نفع، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج رجال الزيني طلّعوا فوق سلاّم خشبية يدقون المسامير الكبار في الجدران، يربطون إليها الفوانيس، ثم يشغلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون «هيه». . دامت الفوانيس، «هيه عاشت الفوانيس» الفوانيس، الفوانيس ولم تنم القاهرة في هذه الليلة بسبب ذلك. .

رابعاً: أثناء دخولي جامع الأزهر عند الفجر، رأيت طالب العلم الأزهري، سعيد الجهيني (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة، كان يكثر من هز قبضته، على وجهه غيظ، وعدم رضا وكمد وحقد دفين، وكلهم مصغون إليه، ألقى السلام، وروعت إذ وجدته يشير إلى أمر يتردد على ألسنة الناس أبداً، لم أسمعه من مخلوق، سعيد الجهيني يعلق على ما جاء في النداء الخاص بالفوانيس اقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضي نائباً للمحتسب، تركز كلامه في الآتي:

١ - وقسوع قهر على الزيني بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائباً للحسبة .

٢ - إنه عليم بالزيني بركات وتأكدته عن عدم رضائه عن القرار .

٣ - كسم أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما في الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه .

٤ - قال بالحرف الواحد الجمل التالية :

«بدأت الأمور تضطرب»

«هذا فال سيء» .

«اللهم نجنا واسترنا» .

وحق كتابتي هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهز بنيتي في الطلوع إلى شيخه أبي السعود، شارحاً له الحال، طالباً تدخله في الأمر، وهو مستمر في سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ، وأقبحها .

خامساً: خطب بعض الوعاظ، وخطوا في حق الفوانيس، من فوق منابر المساجد، وسخر الشعراء في المقاهي من الأمر الجديد، وألفوا شعراً قالوا فيه

«الحق يا متعوس، وإلا علقوا لك فانوس» . .

الجمعة، عاشر ذو الحجة، ٩١٢ هـ

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
اليوم، قابل السلطان
قاصد ملك الحبشة
وقاصد ملك البنادقة
أنعم على كل منهما بخلعة
كاميلية محمل، بغرو سمور
يا أهالي مصر
وقعت قطيعة مفاجئة
بين الأمير بشتاك فول مقشر
واومير طغلق شادي العمائر
لأن البشتاك شنع على المئذنة
الجديدة في جامع السلطان
قال، بها بعض الميل

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين، تغيب التفاصيل،
تطغي رغبة، آه لو هج في بيداء لا أول لها ولا آخر، لا عرض لها ولا
طول، ينحل شعره، يبلي جسمه، ربما عرف ما غاب عنه، ما هجره،
ما كساه السحاب، ما تقنع بالضباب، كيف يفني عمره، يذوب وجده
في عشق لا أمل فيه، زاده. . شعوره بوجودها في بيت لا يطرقه كل
أسبوع إلا مرتين، إنما يتمنى رؤيتها، تطلع الشمس من الشرق، تنزل
في الغرب، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية، عن الثالثة؟ هل تقاس
المسافة بالطول أم الزمن؟ كم تبعد النجوم عن الأرض وأي سلاسل
ضخمة تربطها، تمنعها من السقوط وهذه النجوم التي تهوي أهي
أرواح شريرة مطرودة من الجنة؟ تبدو لحظات في العتمة، تضيق فلا
تصل الأرض ولا تستقر في سماء، حتى ذبول اللهب التي تسحبها تمحي
كحلم ثقيل، كيف لا تطغي البحار على اليابسة؟ كيف يمتلىء النيل
ويفيض ثم ينحسر من جديد؟ عندما ولد الزيني بركات هل دري بما
كتب في لوحه المحفوظ؟ يوماً سيصبح محتسباً؟ سيتنظره رجل اسمه
زكريا، كيف، كيف، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضي نائباً له،
يحيط الحسبة بأعتى البصاين، أكثرهم مقدرة في بث الرعب والخوف،

في حجارة المباني، في الطيقان، الزوايا، فوق وسائد النوم، وماذن المساجد، في أرضية محراب الصلاة، هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزيني ليصاحبه إلى كوم الجارج، لكنه ما زال يعلن، من له مظلمة فليطلع عنده، ويومياً يتردد على بابه كل صاحب شكوى، الناس لا يقصدون إلا هو، عطل أبواب الأمراء والقضاة، حتى أشيع أن الزيني ينوي الجمع بين القضاء والحسبة، ورد الزيني على هذا بركوبه بغلته وتوجهه إلى جامع الأزهر لصلاة الجمعة، خطب في الناس نافياً كل ما يتردد عنه، قال إن الحسبة تقتضي منه وعياً وبقظة، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى، هلل الناس له، كبروا، حاولوا تقبيل عباة، نترفهم الزيني وأبدى غضباً وغيظاً، لحظتها أطبق لهم على ضلوع سعيد، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضي، أول نواب الزيني، يمشي وراءه، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة عادية بلا علامات، ياقوتة حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها، شكا إلى منصور صاحبه وزميله في الرواق همه، قلق منصور، الأروقة تشغي من جديد برجال زكريا، بمستصنعيه، لا بد من التزام الحذر في الكلام، سعيد لا يجهلهم، يسمع خطاهم الخفية وراءه، انسلاله من الهواء، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوي، عمرو اشترى عباءة جديدة ومركوباً، أشيع أنه يذهب إلى امرأة في بيت «أنس» يشتري لها اللحم، والخضار والسنبوسك، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف، ما الذي يدفعه إلى رفع كل آهة وهمسة إلى زكريا؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقاً بزكريا، قال: الزيني لا يتحكم في الأمور كلها، هو جديد على المنصب، ورجل مثل زكريا لا يستهان به، ومستحيل تجاهله ومن يدري . . ربما هذه خبطة واعية من الزيني، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة، يمسك بأسرار السلطنة والأمراء فهل يصطدم به الزيني أم يضمه ويحتويه . . لم

يقبل سعيد حرفاً، أي الأمور أصبح، رأى كل أمر في الدنيا يسلك طريقاً لا حيدة عنه، طريقاً ملتوياً، عليه ضباب، دخان كثيف، منصور ينتحي ركناً في مقهى «لانضي» يمد يده، يسوي الدخان فوق حجر الجوزة، يغرق في لب الدخان، خلاصة النجاة من الأحزان، حبيبته النائية تدنو، يفتح ذراعيه، يحتوئها، تقترب إليه، تجثو عند قدميه، يهاجر إلى أرض واق الواق، يغزو جزر النساء، يرى الزيني رسولاً منزلاً، وزكريا تابعه الأمين، يحمي الأمن، يقصي البلاء، يدفع الفتنة، منصور يقول قبل هجرته إلى دنيا النسيان، لا أمر يعنيني فلماذا أشغل نفسي، كتبت على سنين أعيشها في الدنيا، والدنيا فانية، فلأنهل من ينبوع اللذة، أسلك طريق السلامة، ولا أكون خفيف العقل، فأتشنع لحظة، وأتقلص لحظات، يدعو سعيد إلى رفقته فهو يشعر بالوحدة لحظة هجرته إلى عالم الغيم الأزرق حيث الحور والولدان، يضيق سعيد، يمضي خارج دكان «لانضي» الطرقات تضيئها الفوانيس، أهوم مع تعليق الفوانيس أم ضده؟ لا يدري، لم يطلع إلى مولاه منذ أربعة أيام، أه لو يرحل إلى الصعيد، يرمي عن كتفيه ما ناءت به منذ سنوات مجيئه إلى الأزهر، أه لو يمضي إلى جامع الحسين، يشد عمره إلى الباب الأخضر، لا يفارق الحبيب، يتلو الأذكار ويناجي الشهيد، أه لو يمضي إلى سماح، ينزع حمارها، يضمها كنزاً غالياً وطمسماً وشعراً لم ينشد مثله وجنة ضائعة، لكنها سراب ظاميء لا يدري ما يفعل، سماح مسخت النساء كلهن فلم يعد إلا هي، ما عداها أرض خراب، الأمان في بعده عنها، تحرقه الرغبة ليالي، يتقد فراشه في الرواق بنيران هادئة لا تحبو، يحاول معرفة ما يجري في بيت «أنس» دخول الرجال، انتقاؤهم ما يريدون، لا يعرف الرجل إسم من ينام معها، قال منصور: في أول مرة سألت البنت عن إسمها فضحكت مني، قالت راوية، وعرفت أنه ليس إسمها، أه لو يذهب إلى بيت أنس، ألا يستطيع؟ سماح لا تتجرد

من ثيابها في خيلته أبدأ، لا يجروء على رؤيتها مضطجعة في وضع مثير، أحلم هي؟ لا يذكر لون عينيها، مذاق نظراتها، ملامح وجهها التي نجعلها سماح، وليست إنسانة أخرى، من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجز فوقها المداد، لم يחדشها سن قلم، تمتلئ الدنيا أمامه بالحروف الآن، علامات التعجب والإستفهام، ألف سؤال حائر بلا هداية، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر باق مخلد في مخطوط عتيق تهرأت أوراقه، متآكل الخواف، كشطت حروفه . .

«قسم خاص»

به «نتف» مما قيل بشأن واقعة الفوانيس .

١ - جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق منابر المساجد، آخر ذي القعدة ٩٠٩ هـ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم .

«يا أهل مصر، يقول رسول الله ﷺ، لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم»، نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء، هنا ندخلهم في زمرة الكافرين، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكماؤها الفوانيس في شوارعها، فهل ذكروا لنا مثلاً بعينه؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس؟ وفي رحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضيء طريقه بفوانيس صنعها بشر، نقولها عالية، نقولها بلا حرج، نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية، والأحاديث النبوية، والمتون الخفية، والأصول المرعية، وهم جهلاء يخفون جهلهم، نقولها ولا نهاب لا نخاف، لا نخشى، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس

من قبل، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق، والفوانيس تكشف عوراتنا، خلق الله ليلاً ونهاراً، ليلاً مظلماً، ونهاراً مضيئاً، خلق الليل ستاراً ولباساً، فهل نزيح الستار؟ هل نكشف الغطاء الذي أمدنا الله به؟ هل نتناول ونبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة؟ هذا كفر لا نقبله، هذا خروج عن الحد لا نرضاه، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزيني بركات لقلنا انه يقصد ما يقصد، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه، لن تشككنا فيه، يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزيني بركات بن موسى أفراداً وجماعات، زرافات ووحداً، قوموا إليه، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء، قوموا إليه ضارعين متشددين، راجين حازمين، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتوتموه، لا تغيبوا عن مقصدهم، الفوانيس علامات آخر الزمان، من علامات دنيا تخرج عما رسمه الباري عز وجل، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزيني بهذا، بحرقه، برجمه، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم، آه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره، اللهم أبعدنا عنه، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه..

(وهنا تعالى بكاء الناس في الجوامع، وزعق بعضهم، اللهم اهدم الفوانيس، اللهم اسحق الفوانيس).

فتوى قاضي قضاة مصر:

«الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس»

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضي الحنفية يقول رأياً مخالفاً:

الفوانيس تطرد الشياطين، وتنير المسالك في الليل للغرباء، وتمنع

ممالك الأمراء والمنسر من الهجوم في الليل على الخلق الأبرياء .
قاضي القضاة بالديار المصرية :
«خرج أحد كبار العلماء عن الحد، خالف الأصول، ونفى الفروع،
بانهجازه إلى صف الفوائس» .

«الأمراء الكبار يطلعون إلى القلعة»

«مولانا السلطان، تسبب تعليق الفوائس بجميع الحارات في
تشجيع حریم العامة على النزول بعد العشاء والتجول في الطرقات،
والسهر أمام الربوع والأسواق وهذا مخالف للحشمة، وخادش
للحياء» .

«خاير بك»

«العيال الصغار لا يرجعون إلى بيوتهم الآن مبكرين . . إنما يقون في
الشوارع ساعات ينشدون ويغنون، وأحياناً يقلسون ويرجمون ممالكنا
بالحجارة، ويتبادلون قبيح الألفاظ» .

«قوصون»

«مثل هذا الأمر لا يتدعه إلا إنسان يبغى نشر الفتنة . . والفجور»

«طغلق»

«إنارة المدينة، وسهر الأهالي على ضوء الفوائس أمر جارح للهيئة،
ومهين للسلطنة»

«قنك»

«الزيني يرسل رجاله أول الليل، يطلعون فوق السلام الخشبية
لينيروا الفوائس وينظفوها، هذا ما يقول، لكنه يا مولانا يا أمراء . لا

يقدمون إلا بالتجسس على الخلق، وعلينا، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم»

«طشتمر»

«هذا حق . . هذا تمام . .»

«كافة الأمراء»

«قاضي القضاة عبد البر:

«سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل، خالف رأينا، قال . . لا . . وهذا حدث مهول»

رواق الصعايدة:

أبدى بعض المجاورين إستحساناً لرأي قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة، قالوا إن رجلاً مثله لا يمكن أن يشغل روحه بالفوائيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما يتهبأ للبعض، قال سعيد، تبالغون في الأمر، أشار إلى الطرقات الكبيرة في مدينة القاهرة، وإضاءة دكاكينها طوال الليل، هنا قال أحد المجاورين: كلام غير صحيح، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل والكل في بيته نيام، علا صوت سعيد، أكره أحدكم إضاءة الحواري والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم؟ ما يريد الأمراء أن تبقي العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون، علا صوت عمرو بن العدوي . . بالضبط ما يقوله سعيد صحيح، قال مجاور شامي «أنت يا سعيد تخالف دائماً» قال مهتاجاً، لا أخالف إلا ما أراه خطأ، تساءل مجاور نووي، وهل يخطيء قاضي القضاة؟ مال منصور إلى سعيد، يخالفه الرأي، ما الداعي لبدعة الفوائيس؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو أهم منها وأجدد بعناية الزيني واهتمامه ثم بصراحة يا سعيد هذه البدعة لا تزيد الأمور إلا

فساداً، أطرق سعيد، من يدري، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغراضاً تغيب عن عينيه هو، تساءل المجاور الشامي، الناس تقيم الدنيا وتقعدوها، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره، صاح مجاور من منفلوط «يأبون الزيني» قال عمرو «بالضبط» سخر منصور، أيتشاه أتابك العساكر نفسه؟ قرص سعيد طرف شفته العليا، آه لو يقول لهم، بدلاً من إتهامك أرواحكم أرقبوا ما يفعل زكريا، كيف فرض نفسه على الزيني، لكن.. أحقاً فرض نفسه، من يدري، ربما جاء المنصب برضاء الزيني، قال عمرو بن العدوي ولكن الحكاية فوانيس.. أبدا..»

«هتف الخلق في الجوامع والطرق»

لعن الله الفوانيس.

لعن الله الفوانيس.

من قبل، سعى إليه، بعد الفجر إلى الشيخ أبي السعود، ها هو البيت، البوابة مفتوحة، لم يزيد الزيني في بنائه، من حقه كناظر للحسبة الانتقال إلى بيت أكبر، لكنه يبقى هنا، أمام الباب يقف رجل نوبي يرتدي القميص الأخضر ذا الباقة والأكمام الصفراء، أمر جديد ابتدعه الزيني بالنسبة لنوابه ورجاله في الطرقات التابعين له، لباس واحد، في الناحية الأخرى يقف خلق كثيرون، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق الخلفي، تساءل النوبي: هل تبغي مقابلة الزيني بنفسه؟ أكد سعيد، نعم، غاب الرجل عنه، أصوات أصحاب المظالم خافته برغم عددهم الكبير، إذ يلتقي بالزيني يفتح له قلبه، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له، عندما مشى بجواره في هذه الليلة البعيدة، لم يقل الزيني كلاماً كثيراً، لم يخض في تفاصيل، لوراه الآن ينقطع الحديث بينهما، سعيد يقول له ما مهد الشك إلى قلبه، الزيني يذكر كافة ما يضايقه، ما يتطلبه منصب الحسبة، ما يجنيه من كلام الناس. عاد الرجل النوبي «نزل الزيني من البيت أول النهار، ربما رجع بعد العصر» وكأن سعيد توقف فجأة بعد جرى، تساءل ألا تعرف أين؟ قال النوبي، للزيني جولاته

التي لا يعرفها إنسان، ليطمئن على الناس، لكنني أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم. . كما تعرف هناك وقية بين ممالكك طشتمر وخاير بك، ناحية حارة الجوانية، انتهزوا فرصة الخناق ونهبوا عدة دكاكين في الخط. . والزيني قصد الحارة لإحصاء المال المنهوب وما لحق الناس من أضرار، ورفع الأمر إلى السلطان، وتساءل سعيد. . متى جرى هذا؟ قال النوبي معجباً، طوال الليل، كيف حدث ما حدث وسعيد لم يصله خبر، ربما لبقائه في الدرس حتى الظهيرة، لكن ألم يصبح الصلح وشيكاً بين طشتمر وخاير بك؟ هز النوبي رأسه، أبداً، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس كبقية الأمراء، قال خاير بك، لا أنفق مع طشتمر أبداً، وعندما بلغ طشتمر هذا. . صاح. . أيقظني والله لأقلبها فوق رأسه. فجأة علت ضجة، فلاحون وجوههم معفرة، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال، رأى سعيد أطفالاً صغاراً في قرية البعيدة، رؤسهم ضخمة، رقابهم نحيلة كالعيدان، يعضغون تراب الطريق، عيونهم أوطان للذباب، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحاً يشقى في الغيط، في رفع الماء من الترعة إلى القنوات، تفرض عليه الآتاوات، يجلبده الكشاف، يسعى إلى المدينة ليجهر بالشكوى، لا يرجع إلى عياله أبداً، لم يقطع ما يفكر فيه إنما تهادى حتى تساءل، كيف حالي لو خلقت فلاحاً؟ سأل البواب النوبي بعد لحظات صمت؟ «لكن ما الذي تقصده من مقابلة الزيني؟» أكد أن نائب الزيني الموجود حالياً يمكنه الإصغاء إلى ما يقوله، قال سعيد «الزيني يعرفني لا بد من مقابلته هو» سعيد لا يشي بأحد لكن أمامه أدلة وقرائن تثبت أن برهان الدين ابن سيد الناس، تاجر الفول صاحب عدة مراكب في النيل، ومكامير في منية ابن خصيب، برهان منذ مدة يشتري الفول من الفلاحين ويخزنه عنده، أنشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد في ساحل أثر النبي بمصر القديمة، يبرطل على عدد

من كبار الأمراء ليفوز في نهاية الأمر بإقرار شرعي من السلطان يقضي بإحتكاره الفول، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزيني على انائها وهي احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من الخضار أو البقول أو البضائع، فما بالك والأمريهم الخلق أجمعين، ماذا لو طلعت في دماغ برهان الدين بن سيد الناس؟ يمنع الفول عن الأسواق حتى يعزز وجوده والحق لم يسمع لها مثيل، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول في مصر، لن يسكت الزيني، تساءل سعيد: أيقلقه الأمر فعلاً؟ أم ينبغي التأكد من عدل الزيني؟ الحق أنه لا يدري الآن، يعبر طريق أمير الجيوش، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر، تشكله حللاً وأباريق، مكاري ربط حماره إلى وتد في الطريق قعد بجواره يمضغ رأس فجلة وخبزاً، ها هو دكان حمزة بن العيد الصغير يرتاح إلى الجلوس فيه لا يعرفه مخلوق هنا، يخلو إلى روحه تماماً، حتى منصور صاحبه يتعد «أهلاً . أهلاً . يا نهار الفول» ترحيب دافئ من حمزة، يرده برفع يده، بسط راحته فوق صدره، طلب جوزة، في الأنفاس الأولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسي من الحشيشة، يرتاح إليه، ما أحوجه إلى تأمل ما راح وما استجد، استعادة ما سيقوله للزيني بركات لو التقى به في المساء، أما رؤيته سماح بعيني عقله، فلها مذاق آخر، إذ يجلس هنا .

مرسوم سلطاني

«يقضي الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاضٍ لمذهب الحنفية».

«من قاضي قضاة مصر إلى السلطان»

«حميت الحق، وأعليت كلمة الإسلام، أقصيت المارقين، أبقاك الله حامياً للديار .»

مرسوم سلطاني
«تبطل عادة الفوانيس . . ويزال ما علق منها، وكأنها لم تكن»

* * *

من أمراء الديار المصرية وأكابرها
«ما قمتم به حق، ما أثبتموه عدل، لعن الله الفوانيس»

«إحك عن دنياك . . .»
بحار من أين يبدأ؟
«مات الشيخ البلقيني عالم الحديث في الأزهر . . . مات عن ثلاثة
وتسعين عاماً .
لا يبدي الشيخ جزعاً، إنما يهتز رأسه هزاً خفيفاً ليناً . .
«يرحمه ويرحمنا أجمعين . . .»
«زكريا والزيني على اتفاق . . .»
«أعرف هذا . . .»
يبدي سعيد دهشة . . .
«الزيني جامعي أمس . . . بعد سماعي الخبر، فكرت أن أرسل إليه
لأعرف حقيقة الأمر، لكنه دخل علي وشرح الأمر . . .
عودة مولاه ألا يطيل السؤال أو الاستفسار، إنما يصغي إلى ما يقال،
يستنتج ويحاول الفهم . . .
«مولانا . . . كل شيء يحيرني . . .»
ابتسامة تقطر صفاء
«كل شيء؟؟»

«مولانا أنا صحبت الزيني إلى دارك، مشيت أمامه في موكب كأي
ركبدار، بشرت به، تحمست له، أنا الآن أشك فيه، أتضرر منه، من
شهر قلت فلأمض إليه أنقل ما سمعته، ما استوثقت منه، عن رجل
يقال له برهان الدين بن سيد الناس .

برهان الدين؟؟

«نعم يا مولانا . . برهان هذا شرع في احتكار الفول، عرفت
أساليبه، مكاميره، عرفت أن سعر الفول سيشط في الأسواق، عندما
جلست إلى الزيني، بعد مرات عدة ترددت فيها عليه بدون جدوى،
شكا إلي ما يثار حول الفوانيس، قال إن الأمراء غرروا بالناس،
ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان يلغيها،
تحدث طويلاً عن موضوع الفوانيس، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء
الفوانيس، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم، تحدث عن ضيقه
بمنصب الحسبة، ما يجره عليه، تصور يا مولانا، شكا من قلة المال بين
يديه، لأنه قبل الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف
بعينها، يشرف على أرض قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض
والرزق، ومرتبته من الديوان خمسون ديناراً لا يكفي المظاهر التي
يستلزمها منصب الحسبة، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلا بد من ارتدائه
أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيراً، لم يخف عني
شيئاً، أدق أموره حكاه لي، واللّه يا مولانا وجدت نفسي قريباً جداً
منه حتى كدت أصرح له بما يزعجني، لماذا قبل استمرار زكريا بن
راضي نائباً له؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله زكريا بالناس، لم تتغير
عوائدهم، يملأون الأزهر، فهل يقبل؟ كدت واللّه يا مولانا، لكنني لم
أفهم حرفاً أبداً أبداً، قلت له ما جئت من أجله فعلاً . . هز رأسه
وقال . . سأكلف نائبي بمراقبته ورصد حركاته، وعندما يثبت صحة ما

يفعله يلقي جزاءه، تصوريا مولانا. من سيقم العدل، من سيمنع
برهان الدين بن سيد الناس.. زكريا بن راضي. لكنني قلت في دماغي
ربما يحاول الزيني استخدام زكريا لما فيه خير الناس، رحت أرقب برهان
الدين، لكنه استمر على حاله، طلعت إلى الزيني مرة ثانية قال مثل هذه
الأمور تستغرق وقتاً، وذكر حادثة الخياط الذي عاقبه لا اعتدائه على
غلام صغير برغم شفاعته أكبر الأمراء له عند السلطان، لا أدري يا
مولانا ما الذي يقصده الزيني؟ حتى الآن لم يهز أصبعاً في وجه برهان
الدين، هل أندم على سيرتي أمامه يوماً، من ناحية أخرى توجعني
المظالم، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير من الأزهر أمه جاءت من
الأرياف تزوره.. لماذا.. لأنها فلاحه! كيف أصدق يا مولانا أن الناس
خلقوا متساوين؟ كيف، وما حدث وما سيحدث ينكر هذا ويكذبه،
كيف، أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد. ليس في
الديار المصرية وحدها، إنما في الدنيا كلها، لكن أعمارنا ستضيع وتمضي
ولن نقدر على هذا.. تصوريا مولانا، إنني أخاف، أخاف عندما أرى
عمرو بن العدوى، أتساءل عما سيكتبه في أوراقه عني، ما يجعلهم
يلقون بي، يوماً في المقشرة، في العرقانة، أو الجب، لكن ماذا يفعلون
بي، ربما قطعوا دراستي بالأزهر يمنعون راتبي ورزقي، يسدون أبواب
الوظائف في وجهي، فليفعلوا.. ما قيمة هذا كله، إذا رفعت الظلم
عن إنسان، ما قيمته؟ لكنني أجد نفسي من جديد أخشى الحرمان
والسجن والقيود والعذاب، ارتجف لو سمعت باسم زكريا، تصوريا
مولانا.. أنا الذي يعذبني مرأى الذباب على عيون العيال في بلدتنا،
أتمنى.. أحمد الله.. تصوريا مولانا.. أحده، لأنه لم يخلقني فلاحاً
أعاني قسوة العيش وظلم الكشاف، مولاي أعذرنى لأنني وضعت أثقالتي
كلها عندك.. لكن ما حيلتي والزمان يلجمني ويكسر فكي ويخرس
البوح في صدري..

الليل يمضي صامتاً، في البداية ألوانه خادعة تزداد مع ضياع النهار
قتامة وعمقاً، حتى يغرق الكون في سواد، تضيع أصوات العباد، تدور
أصابع الشيخ حول بعضها البعض سعيد يخشى الليل، لا يلقاه في
الرواق أبداً، يرى نهاية الضوء في الطرقات، بعد أطراقة تدور عيناه في
الفناء الصغير، راسخ جذع النخلة المروية بالسنين، مرتفع من الأرض
يتوسط الفناء لم يلحظه . الشيخ ساكت، يشير سعيد إلى كومة التراب،
بروز الأرض . . «لم أره من قبل . . »

بأي سؤال يكسر الصمت .

«من حين إلى آخر احتاج إلى خلوة . . من أجلها حفرت لنفسني هذا
السرداب، حفرته لجسدي أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها
الزمان . . »

هذه الفتحة الضيقة تؤدي إلى سرداب الخلوة، بمفرده انتزع لنفسه
مكاناً من الأرض، داخله يخف من أثقاله، من أحماله، تحلق الروح إلى
وإد يمكن فيه الوصول إلى الحقائق الأولية، يدق أبواب الكون، يفصح
عن خباياه، عن أسرارهِ، فيصير القلب يرى ما يرى . .



يا أهالي مصر . .
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
انكشف المستور
ظهر المقبور
بانت فضيحة علي بن أبي الجود
الليلة قبيل المغرب
سيقرا الفقهاء في الجوامع
وثيقة تلقون فيها ما تشاءون
لتروا، كيف امتص الظالم
دماء المسلمين
فحق عليه عقاب مبين .

السرايق الثالث
وأوله ..
وقائع حبس علي بن أبي الجود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحان الذي كشف كل غطاء، وبسط الأرض، ورفع السماء، نتوجه إلى أمة الإسلام، نكشف أمراً طال به الترقب، ليكون عبرة لمن اعتبر، الحي ومن غير تفاصيل هذا كما يلي . . منذ عام، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المدعو علي بن أبي الجود، وتسليمه إلى متولي الحسبة الشريفة وذلك لعقابه، وكشف المخفى وراء أبوابه، ومنذ البداية أضمرنا حتى النهاية، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان، أن يحرق عضو في جسمه، أو ينعل كالفرس وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا علي بن أبي الجود، وكشف أمره، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان، وكل هذا امتص من دماء المسلمين، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه .

بلغ دخله اليومي من أملاكه وأطيانه وضمائنه وحماياته تنمة ألف دينار يومياً واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهباً ووجد عنده ياقوت أحمر، زنة الفص رطل ونصف، وستة صناديق فيها جواهر، ومن الماس وعين الهر مائة قطعة، وعلى ذهب مقدار قنطار، وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير، ومائة قفطان بفرو سنجاب، وأربعمائة قفطان بغير فرو، وسروج ذهب. عشرون سرجاً، وجد لديه

أيضاً خمسون فرساً ومائة بغل، ومائة جمل، ومن الغنم والجواري والمهاليك شيئاً كثيراً، ووجد عنده في المرحاض شبه فسقية، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهباً، ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف أردب، ووجد عنده سبعون مركباً سارحة في النيل.

كان اللعين يخفي ثراه ويبدل الكثير حتى لا يشعر به أحد من الناس لكن صبرنا وطول دأبنا أوصلنا إلى ما خبأه وأخفاه، وسيتم طلوعنا بما له غداً محمولاً فوق بغال، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان، في وقت نحن في أشد الحاجة إلى المال، لتحرك أعدائنا علينا، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر في تمام الساعة الرابعة عربي وقت الضحى، أيضاً سيعرض عليكم علي بن أبي الجود وسترونه سليماً معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب..

تم الحوطة على ثلاثين جارية، ومائة وعشرين عبداً، وأربعين خصياً خصاهم اللعين بيده.

يا أمة المسلمين.

يا أهالي مصر

أتوجه إليكم برجاء، أبلغونا حال وقوعكم على أي إنسان يكتنز المال من دم المسلمين، لا نقبل أبداً أن يجوع الخلق، وتستمتع قلة، أبلغونا: مهماً علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجواري أخذنا لكم الحق منه..

اللهم أجعل هذا البلد آمناً

وقائع تعذيب علي بن أبي الجود، مرفوعة إلى الشهاب زكريا بن راضي كبير بصاصي مصر، ونائب الحسبة الشريفة، من مقدم البصاصين في القاهرة.

بناء على ما أشرتم به، ونوهمتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب الأحوال وإظهار ما جرى لعلي بن أبي الجود، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة، وعقبات كبيرة، لنجتلي سر الأشياء، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع الزيني، لكننا لم نعتمد عليه وحده، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزيني، استوثقنا من مصادر أخرى، تعرفون بعضها، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة، أما بعد.

ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني الكائن ببركة الرطل فهذا البيت ضيق ولا يتسع لوجود سجن به، وأي صراخ فيه يمكن سماعه من قريب، لقد نقل «علي» إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة. لا نعرف متى انتقل إلى ملكية الزيني أو من شيدته وبناه وجار بحث هذا. يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة،

ليست زنازين بالمعنى الدارج، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر ونصف، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه؛ يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي إلى الخارج، ترى منها السماء قطعة فضية، لكن الفتحة لا تظهر أبداً من الخارج، فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب، حتى لو نام تحت الباب مباشرة، ولو أدار ظهره فحتماً يجدها في مواجهته، يأز الضوء ليلاً نهاراً، يحدث وشأ خفيفاً لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة، ويبرز من الجدران لوح خشبي قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه .

السجان القائم على أمور المحابيس هنا، شاب مليح الوجه، رقيق العبارة، جميل الصورة، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل، ابتسم في وجه «علي» خاطبه بأدب «إذا احتجت أمراً أطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة»، وعندما أقول من؟ فلا تقل اسمك إنما قل «واحد» أنت منذ الآن واحد، طوال حديثه لم تفارق شفثيه الابتسامة، حديثه في ظاهره رجاء لكنه أمر في جوهرة، نظافة المكان لم تطمئن «علي» أدركه رعب خفي، ليس حاداً، إنما يماثل غرابة المكان، هدوءه، الباب يوحي باحتمال فتحه المفاجيء، ربما انطبقت عليه الجدران، تتغير الابتسامة عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع أمامه أرزاً مفلفلاً، طبق ملوخيّة، قطعة لحم وبرتقالة وهذا لم يسبق حدوثه في تاريخ الحبوس، لكن لا بد من توضيح أمر هنا، لم يشعر بالشبع أبداً، إنما يعيش جوعاً خفياً، الأكل في مظهره أكثر من كاف، يحدث شبعاً مباشراً، لكنه لا يقضي على جوع خفي مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين.

بقي علي بن أبي الجود ثلاثة وتسعين يوماً لم يرخلها إلا وجه عثمان، إذا

دق الباب في أي زمان، يحييه مبتسماً كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبداً، كأنه يعرف متى ينوي دق الباب فينتظر، وبمضي الزمن بدأ علي بن أبي الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما، وربما وجد نفسه محصوراً بالبول، يكاد يطق، لكنه يأبى دق الباب.

إستعداد حياته لحظة بلحظة مرات، اختلط عليه الليل والنهار، بدا له الزمن جسماً شائهاً بلا ملامح، يعرف وجود آخرين بجواره، دائماً يسمع غثبان يسأل من؟ ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب، فشل ثاماً في الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين، بدأ يفكر كيف يفكر؟؟ تمنى لو يحرقونه حتى العالم يروح من عقله، ومثل المصباح يمزق لحمه ويحفف دمه، وفي لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزيني بركات بنفسه..

قال بصوت خال من افتعال المودة.

«أنا الزيني بركات..»

تطلع إليه علي بن أبي الجود متعجباً، لم يره من قبل، وما نقله هنا، قاله الزيني بالتقريب.

كما ترى يا علي، لم نفعل بك مكروهاً، لم نضايقك في بدنك، أنا أعرف حيازتك لمال طائل، أنت داهية في طريقة إخفائه، اخبرني عنه وكما تعلم أنا لن أضع منه درهماً في جيبي، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة، أما حريمك وعيالك فأنا أضمن معيشتها.

«أين الأموال؟»

هز علي بن أبي الجود رأسه.

«أتنكر؟»

أكد النفي، قام الزيني واقفاً.

«اللهم إني بريء من ذنبك».

بعد زمن لم يعرف مقداره، دخل عثمان، عصب عيني علي بن أبي الجود بقماشة مبللة، لحظة طال انتظارها، لا يدري ما سيفعل به، لكنه يفارق هذا المكان الغريب، هذا يكفي، نزل درجات، عبر أبواباً، تركه عثمان في قاعة خلاء، ارتعدت مفاصله، تهيب الجلوس، خطا الوقت ثقيلًا كالخيل إذ تحتضر، ارتعشت أطرافه، دب الخدر إلى ظهره، جسمه كله يهتز، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه، أطارت شرراً ونجوماً زرقاء في فراغ عتيم أحاطه، ثلاث صفعات صنعت حزاماً ساخناً حول قفاه، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد علي بن أبي الجود.

اليوم الأول:

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح، احضروا عنزة صغيرة سوداء في رأسها بياض راحت تلحق الماء المالح على مهل، التوت شفته، ارتجفت ضلوعه، صار يصرخ، ثم ينقلب صراخه ضحكاً حتى غشي عليه، سكبوا على وجهه ماء بارداً،

«أين أموال المسلمين؟»

ولم يجب.

اليوم الثاني:

من الثابت الذي لا يدع فسحة للشك أن الزيني بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يتم فيها «استخراج الحقيقة» وفي أول النهار أخذه الغيظ، لثبات علي بن أبي الجود، دخل بنفسه، راح يمد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة في صدر علي بن أبي الجود، في نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه، بدأ نزول الماء قطرة قطرة، بفاصل زمني معلوم، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاص إلى قسمين، صرخ صرخة هائلة

خارجة من الحشا، هنا زعق فيه الزيني «أموال المسلمين يا علي» .
ولم يجب . .

عصر اليوم التالي :

أحضروا فلاحاً من المحابيس المنسيين، نزعوا عنه ثيابه تماماً، نظروا
إلى علي بن أبي الجود، قال الزيني «أنظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل»
أظهروا حدوتين ساختين لونهما أحمر لشدة سخونتتهما، بدأ يدقهما في
كعب الفلاح المذعور، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي، وكلما حاول
إغلاق عينيه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه . .

اليوم الرابع والخامس :

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن
أبي الجود والزيني يدخل ويخرج محموراً مغتاضاً يسأل «لم يقر بعد؟» لا
يجيب أحد، يضرب الحجر بيديه . .

اليوم السابع :

عندما أحضروا خليل، أصغر أبناء علي بن أبي الجود بدا غائباً
تائهاً، لكن عندما صرخ خليل: اتسعت عيناً أبيه ولم يسمع صيحات ولده . .
تعليق :

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبي الجود. لكن
الثابت فعلاً - وهذا محير - عدم إقراره بمكان المال، إذن من أين عرف
الزيني مقدار ومكان الأموال التي نشرها على الناس العجيب أيضاً أنه
بعد مدة معينة، وبعد تنوع أساليب العذاب الجديدة التي يسميها الزيني
«كشف الحقيقة» أصبح علي بن أبي الجود معافى، التغيير الوحيد أصاب
عينيه، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كالأعمى لكنه مبصر، إذا
ناداه أحد لا يجيب، إنما ينحني ويدلدل لسانه كالكلب ولم نفسر بعد ما
حاق به .
(مقدم بصاصي القاهرة)

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر مولانا السلطان
بإعدام علي بن أبي الجود
ضربا بالأكف
سيرقص طوال الطريق
كما ترقص النساء
أضربوه
أضربوه
كلما كف
فمن شاء الفرجة
والقصاص من عدو الله
عليه الخروج بعد صلاة العصر
يا أهالي مصر

مقتطف «ب»

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقي، فياسكونتي جانتي الذي كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة، وكان قادماً من بلاد الزنج والسودان، قاصداً ركوب البحر، عائد إلى بلاده بعد تجوال طويل.

خرجت من الخان، والحق أنني وجدت الزحام ثقيلاً، النساء يحتلطن بالرجال، الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر، وعلى جانبي الطريق وقف رجال أشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء، عرفت من على مترجمي ان الموكب خرج فعلاً من بيت الزيني بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة ابن الزمن، عرج على جزيرة النيل، أتى إلى شبرا، استمر حتى عبر قناطر أبي المنجا وطلع من قنطرة الحاجب، دخل من باب الشعرية، كنت أقف عند بين الصورين (سوق كبير) أمام دكان يبيع أصباغ الملابس، انتشر قلق بين الناس تدافعت المناكب، صرخ طفل، أطلقت امرأة صوتاً طويلاً، يسمونه هنا زغرودة، بدأت تباشير الموكب، عدة خيول مسرعة، كلها بيضاء، ثم مرت أربعة خيول يدق راكبوها طبلًا، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم أسمع أقوى من صوته قط، وأخبرني علي مترجمي أنه يطلب من الناس أن يضربوا علي بن أبي الجود كلما كف عن الرقص، حتى يسقط ميتاً، والموضع الذي سيسقط فيه سينال بقشيشاً من الزيني، والحق هذا

أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به، أخبرني علي أيضاً أنه يزف إلى الناس بشرى حسنة، أمر السلطان بتعيين الزيني بركات والياً للقاهرة إلى جانب منصبه، وقبل الزيني المنصب حرصاً على راحة الخلق، ومن أراد الاعتراض على ولايته للقاهرة فعليه إبداء رأيه بعد صلاة الجمعة في أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) ومنصب الوالي يشبه حاكم الإقليم عندنا، أما الحسبة فلا مثيل لها في بلادنا إذ أنه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية، ويتلخص في ضمان الخير وطرده الشر، والحقيقة لم أصدق ما أخبرني به علي، فإسما يتعلق بحض الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم، هذا تقليد لم أره قط سابق، لزماننا لم أسمع به، على الرغم من سعة تجوالي، سمعت اسم الزيني يتردد كثيراً يبدو أنه شخص خارق للعادة، وسأحرص تماماً على لقائه، عندما انتهى المنادي طرق أذني وقع طبل، الجمع كأنه إنسان واحد، تزايد الصياح، تلويح الأيدي، دفعت الناس حى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف في غير ثبات مخلوق الحاجبين واللحية، كحلت عيناه كالنساء، تناثرت بقع حمراء على وجنتيه، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل، يهتز كلما مال الرجل وتثنى، إنه يهز وسطه هزاً عنيفاً غير منسق، يستمر الطبل، يميل بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء، يرفع صدره إرعاشاً قوياً، يعتدل فجأة يبرز مؤخرته إلى الوراء، طوال هذا الوقت تمتد أيدي العامة، تصفعه، تضربه، يدفع أحدهم عصا قصيرة بين إلبتيه، فوق جبينه يتساقط عرق غزير، يتدلى لسانه، يتفانى الناس في صفعه وضربه، إذا سقط ميتاً سينال من حوله الخلاوة، عبثاً يحاول رجال الزيني منع الأيدي التي تحمل عصياً ومراكيب من الوصول إليه، ابتعدت العربة ذابت في الزحام الكثيف، ابتلعت لعابي، وجه الرجل الشائه المذعور، جسمه، يسد الفراغ، والحق أنني فزعت . .



نداء

أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتباي
والي القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
الزيني بركات بن موسى
لمعاقبته، وإظهار ما نهبه اللعين
من أموال المسلمين.

زكريا بن راضي

يظن زكريا بن راضي أن لقاءه بالزيني تم في الليلة نفسها، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم، ليلتها أصغى إلى «وسيلة» تحدثه عن بلادها، ما يحب الإصغاء إليه، عادات الناس هناك، ألوان الطعام، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها؟ عودتها الأسئلة الغربية ألا تخجل، قالت انه طمع فيها، كل من رآها طمع فيها، وحدث قرب حلب. هنا مد زكريا يده، لمس شفتيها بأطراف أصابعه «حدثيني عن حلب» لم تدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخر، فجأة بدأت تسترجع المدينة، الطرق المؤدية إليها، رجال البريد في المباني الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة إسراعهن بإغلاق بيوتهن، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة، سرور التاجر يعرفهم كلهم، يدفع لهم مجعولاً معيناً من الذهب، لا يتعرضون له أبداً، بل يتولون حراسته إلى الطريق، زكريا يمسك كويلاً مضلع الخواف، لا يشرب الخمر أبداً، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة، حدث منذ مائتي عام أن أضاعت الخمر واحداً من أعظم البصائين الذين عرفتهم مصر، في زمن الظاهر بيبرس، آدم بن الكازاروني الخمر، صار يقول

في مجالسه الخاصة والعامة كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة،
تسبب هذا في فضيحتة ثم قطع رقبته، كان قد ابتدع نوعاً جديداً من
الخمر، قيل، مجرد راثحتها تجلب للانسان سكرًا عظيمًا، نسبت فيها
بعد إليه، وعرفت بالخمر الكازرونية، أمر السلطان النصار بن قلاوون
- فيما بعد - بإبطالها وإراقة ما تجمع منها في الدنان، زكريا يعشق عصير
الفاكهة، استحضر جهازاً من بلاد تلمسان يعصر أقصى أنواعها،
يصفي البذور، يرشف عصير العنب، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه
مرأً هيناً لطيفاً تستمر في حديثها، ترتعش الحروف فجأة بينما تطلع يده
وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخر
عنقها، قشعريرة بدنها تنتقل إليه يتابع اختلاج ركني فمها فجأة يحتوي
أذنها الصغيرة في فمه، يرضع اللحم القاسي، تشهق، تتباعد أطراف
جسدها، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد، فجأة
بضرب واحدة، يمزق الثوب، لا يفك أزراره، إنما يمزقه، يصغي إلى
تقطع القماش، تتكشف له بدايات العالم الطري تبدأ حركة من عينيها
تجسد صغر السن، تفتح الزهرة، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ
تقف عند حدود الدنيا، أمثل هذه المتعة توجد فعلاً؟ في اللحظة، هذه
اللحظة تماماً، جاءه شهاب الحلبي طرقت درع النحاس المعلق في
الدروعة السفلى، نزل إليه «أرسل الزيني بركات مبعوثاً يطلب من
زكريا الحضور بسرعة لأمر جليل» أوما زكريا برأسه طلع إلى خزانة ثيابه
انتقى رداء شيخ أزهرى، منذ إقراره نائباً للحسبة لم يرسل إليه الزيني،
كل صلتها تقرير يومي يرسله زكريا إلى الزيني طبعاً تقرير يعد بشكل
خاص، مرات قليلة أرسل الزيني يسأل عن أمور ذكر أنها عامة، جابوب
عليها زكريا وهو يضمّر تعجبه لتفاهة هذا المطلب، مثلاً، أسماء
الجواري اللواتي اشتراهن الأمير بشتاك في عام ٩٠٧ هـ، مقدار الخمر
الذي يشربه الأمير قوصون كل ليلة، اسم والدة بائع نخل بالحسينية،

أصناف الطعام التي يفضلها قاضي القضاة عبد البر، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر، كم مملوكاً له ست أصابع في كلتا يديه وعددهم في الأبراج، زكريا قابل هذا باستغراب، تدارك رأيه بسرعة، ليستبعد السخرية والاستهزاء، مثل الزيني لا يطلبها إلا لأمر جسام، عندما التقى به أول مرة في بركة الرطلي، أدرك ندرته، كل منا خلق ليلقى الآخر، نزل السلم بسرعة عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته، سيتحدث إليه بهدوء، لا شيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا، بل سيوحى إليه أنه خمن نية الزيني في استدعائه، طلع إلى الفناء الواسع، لأوراق الشجر حفيف مسموع، ما ألد الرجوع إلى وسيلة، لم يرتو منها تماماً، دار بعينه باحثاً عن مبروك، مبروك الوحيد الذي يميزه حتى لو اختفى في زي الجان، يبدو للغرباء أخرس لكنه يتحدث قليلاً جداً، أحياناً يعنف زكريا ويلومه لوماً قاسياً، زكريا يقبل هذا ويصغي إليه، وينفذ ما يقوله مبروك، سأل زكريا، «أين رسول الزيني؟» تقدمه مبروك، همس زكريا «إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالي قل لمقدم القاهرة أن يمتدي بما يقوله شهاب الدين كاتم السر. مفهوم؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان، قام رجل بدوي ملثم، أهلاً بالشهاب الأعظم زكريا. » نظر زكريا إلى الوجه الملثم، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة، زكريا يتفحص رداءه، هذه الأمور الصغيرة، تبدد دهشته عندما رأى الزيني بنفسه، دخل الزيني مباشرة في غرضه قال: بدون لف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط. أين أخفى علي بن أبي الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى، باختصار كعناوين البطائق «لا أعرف» زعق طائر غريب الحس في السماء، الليل يشيخ، قام الزيني مرة واحدة، على مهل اقترب من زكريا «أنت يا زكريا تعرف تلمأ أين موجودات علي بن أبي الجود، أنت لا يخفى عنك

شيئاً، ولو خفي لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائباً للحسبة، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب علي بن أبي الجود إنما لأنك زكريا، أتفهمني، لأنك زكريا بن راضي اعنى من تولى منصب كبير بصاصي مصر» لم يرد زكريا، ليقول الزيني ما يريد، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه، الضوء خافت غامض مرعوش، يوشك على توهج لكن يداً قوية تحبسه، توشك على إلغائه، قال الزيني بركات بن موسى «أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان» الآن بعد مضي زمن على مجيء الزيني آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزيني، ربما امتد الزمن سنين طويلة، لكن ما قرره لا بد أن يتم، يتحقق يوماً، يراه مجسداً، أي قوة استطاعت في أي زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره، لن يمنعه إنس ولا جان، ولا ألف طلسم، أبدأ لن ينسى أيام العزلة التي فرضها على نفسه في اليوم التالي لزيارة الزيني، أمر بالآ تدخل إليه تقارير، طلب من مبروك ألا يريه ملامح أي إنسان، الطعام مضغه بضيق عندما اضطر إلى تناوله، عندما انتهى عزلته، جاءه رجاله مهئين، لكنهم ارتدوا عنه خائبين، قابلهم بوجوم وضيق، سر في نفسه عندما أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطباء السلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته، في الأسبوع الأول، التالي لمجيء الزيني، دخل مبروك قال «الزيني بركات جاء» في الفناء وقف، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس، قال «أفضل لو جلسنا في الشمس، بيتي في بركة الرطل لا تدخله الشمس»، الزيني ينكت الأرض بعصاه الرفيعة، زكريا يسند جبهته إلى يده اليمنى، أرجو أن تسمعني، أن يتسع صدرك لي. . زكريا يهز رأسه، جاء الزيني بثيابه العادية، لا يرتدي الملابس البدوية، أفكار كثيرة تدور في عقلي، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك، أرجو أن تخطئي إذا بدا لك هذا، أنت أكبر مني علماً وتجربة بما سأقول، التردد

واضح في ألفاظه، ارتياح خفي يتسرب إلى زكريا، أردت أن أفضي إليك بما أوده وأرغبه لنظام البصاصين، هل يمكن للإنسان أن يتخيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون عيون قوية مخصصة ترى في كل مكان ما أراه أنا . . قال زكريا بسرعة، عندك رجالك . . نفض رأسه بسرعة، سرور في صوته، ربما لاستجابة زكريا إلى الحديث، أعرف أنك ستقول هذا، لكنك يا زكريا تهول من أمر رجالي، أليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلاً من عين واحدة، صحيح، ستقول ومعك الحق كله، لدينا آلاف العيون، صحيح، لا أعترض، ولكن لو وجدت مجموعة أخرى لها نظام مخالف، طريقة ثانية، ألا يصبح هذا مفيداً، أولاً . . اعذري لأننا لا نلتقي بما فيه الكفاية مشاغلي كثيرة جداً يا زكريا، تصور إنساناً يقر العدل بين الناس في مثل هذا الزمان أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن فالحرب واقعة لا محالة، مهما طال يا شهاب، لقد أخبرت مولانا بهذا، وأقولها لك صريحة، بل إن ثقتي بك تدفعني إلى التصريح لك بما هو أكثر من هذا، المشرق لا يحتل دولة بني عثمان ودولة المماليك في مصر، إما نحن وإما هم، لا تندعش يا زكريا، أو بمعنى آخر لا تتصنع الدهشة، أنت أدري مني بهذا، من يعطس في القسطنطينية تسمعه أنت هنا، كل حركة هناك أنت تعرفها، ويأذن الله سوف يتغلب عليهم، بركة البيت الذي يحميه مولانا، فكما ترى، الأحوال صعبة، لا بد من لقائنا كثيراً، ننظم أمورنا معاً، ما ينقله رجالي سأقدمه لك ملخصاً كل يوم، عندك تجربة مهولة، عندك أدق نظام في الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحاً لا يميل ولا يخل، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لا بد أن تعرف هذا، كف الزيني فجأة عن الكلام، بقي زكريا ناظراً إلى الأرض، قال بعد لحظات «آه . .

وبعد؟؟»، وكان الزيني لم يتوقف أبداً، قال بسرعة «حتى لا أعطلك
جئت إليك بأوراق فيها ما أتخيله، أرجوك إبداء الرأي فيها». . . عند
الباب شد على يد زكريا، أدعوك إلى الغداء عندي. . . أي وقت
تختار؟، قال زكريا «لا أفارق البيت إلا نادراً. . . اتسعت ابتسامة
الزيني، «سوف أمد لك مدة حافلة. . .» قال زكريا إذن سأرسل لك
ونلتقي قريباً، عاد إلى الحديقة ليرجى التفكير فيما قاله حتى الليل، بعد
قراءته هذه الأوراق، لا بد من ألفاظ إلى باطن كل حرف، الأمر ليس
هزلاً، ما قدره منذ هذه الليلة، يزداد رسوخاً في عقله، لكن الحقيقة،
الزيني رجل لم يعرف له مثيلاً، أحياناً يفكر زكريا، بضرورة مجيئه بعد
هذا الزمان بسنوات، لا يدري مقدارها تماماً، ولكن أليق به العيش في
زمان بعيد، يلقي فيه أدوات يحلم بوجودها، لا يدركها لعجزه، وعجز
زمانه عن تجسيدها، هذا الزيني جاءه أيضاً من العصر الغامض النائي
الذي يود العيش فيه، مثله لا يستهان به، مع مجيء الليل أدرك زكريا
خاطر مزعج منذ زيارة الزيني الخفية، يعود إلى ممارسة وظيفة لم يشرع
فيها من قديم، تقريباً منذ توليه منصب مقدم بصاصي القاهرة، قبيل
ارتقائه إلى منصب كبير البصاصين، الليلة يرتد إلى زمن بعيد تعقب فيه
الخلق بنفسه، كان يتخفى في ثياب أرباب المهن والطوائف، وقتها
استحدث طريقة جديدة في اقتفاء الأثر، تعقب الإنسان بالسير أمامه،
وهذا لا يقوم به إلا عتاة البصاصين، زكريا ابتدأ العمل بصاصاً من
أصغر الدرجات لم يسبقه أحد في هذا، الليلة يرهف حواسه التي
خدمته بصاصاً صغيراً مبتدئاً، لكن أين؟ هنا في بيت، كيف عرف
الزيني أمر المملوك شعبان؟ كعادته عندما يتفحص أمراً محيراً، يمسك
قلماً ويرسم أشكالاً وخطوطاً ودوائر، لا معنى لها في ظاهرها، لكنها
تساعده، تركز فكره، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان؟
مبروك. . .

لن ينفي عنك الشك، لا يعلو مخلوق عنده على الشك، أبدا
يوضع مبروك في الدرجة الأولى حتى يثبت عكس ما يظنه، ثم، من
يفترض أنه تابعهما، أراقبهما خلال الدفن؟. في هذه الليلة خلا البيت
تماماً لكن ليحصر المترددين على الميت.

- شهاب الدين الحلبي.

- مقدم بصاصي القاهرة.

رجال الديوان، وكلهم معروفون لديه..

ربما نفذ أحدهم، استطاع رؤيتهما بطريقة ما، لم تتضح حتى الآن،
نقل ما رآه إلى الزيني، هذه فعلاً مصيبة، كيف يطل الغريب عبر
الأسوار، لا بد من مراجعة ما كتب عن رجاله واحداً واحداً،
أصولهم، أحوالهم، أمزجتهم، أفكارهم، ثم يضيق الحلقات، يمد
الخطوط، يضع الدوائر، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه، ثم ينتقل
إلى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان.

- الحرير.

(أ) نساؤه الأربع.

(ب) الجواري.

من الليلة، سيري كلا منهن، ليبدأ بأقدامهن، حكمت، أولى حريمة
هجرها منذ وقت، ولم يزرها، الليلة يبدأ بها، وعندما يشم عبير
المسك، يرشف عصير العنب، يأكل الدجاج المسقى بالسمن وماء
الورد، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد، الباقيات لكل منهن وقت يلي
الليلة، الجواري، «وسيلة» لكنها طفلة لا تكاد، جاءت قبيلا تولي
الزيني بأسابيع، من يدري، لن يخرج أحد عن دائرة الشك، يبقى
احتمال لجوء الزيني إلى حيلة جديدة يجهلها زكريا، هذا ما سيحاول
الوصول إليه، لا بد من ذهابه إلى «بركة الرطل»، الزيني يقترح عليه

بحث الوسائل والحبايا يريد معرفة طرقه، لا يغيب عن زكريا الضيق الذي جاءه، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم إليه، العاملون، بيته، حريمه، فليات الذين يشهرون به، الذين يلعنونه، ليروا أي هم يعانيه، أي متاعب تحمل به؟ خط عدة دوائر، منذ الآن سيكون كل واحد في بيته عيناً على الآخر، كل امرأة سترقب الأخرى، الرجال، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين، تمكن ملك المغول - أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان - نائب كبير بصاصي دولة الخلافة العباسية، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها، راسل بها المغول زمناً طويلاً، حتى اجتاحتها بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها وكان ما كان، قام زكريا نحن روحه إلى التجوال في المدينة والليل مطبق فوقها، لكنه لن يخرج أبداً، عندما يتبين له الانسان الذي أبلغ الزيني بما تم، يتخيله الآن، الغل يعتمل في بشر قلبه، يرى بعيني عقله ألوان العذاب التي سينوعها لصاحب تلك الفعلة، أي طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا انس يختارها لإنهاء حياته، أي طريقة، أما ما قرره بخصوص الزيني بركات بن موسى، فلن يتراجع فيه قط، حتى لو أفنى عمره كله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

«ما أقدمه إليكم ليس إلا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا، إذا ما رأيتم صلاحيتها، أرجو أن نعمل معاً على إقرارها، حتى يستقيم العدل ويستقر، ولن نبالي في هذا إلا مرضاة رب العالمين، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام، قال (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله - تعالى - أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله شر دنياه). وبعد،

كان أساس عملنا - أنا وأنت - إقرار الأمن والعدل في ربوع السلطنة، وساقصر حديثي الآن على دائرة اختصاصي (القاهرة والوجه البحري الذي أضافه السلطان إلى نظارة حسبي أخيراً) أما فيما يخص ربوع الشام، فهذا أمر أنت عليم به، خير فيه، ولا أقر عليه، وحتى يستقر العدل في بر مصر، لا بد من إقامة أسس قوية، ودعائم متينة،

وكما معروف لدينا، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس، فمن سبقك لم يظهر إلا جانبها الوحشي، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها، وعدم استمرار الدنيا بدونها، من هنا فلا بد من وصولنا إلى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوباً مبعجلاً من الجميع، رجال الدنيا والدين، وسيتم هذا بوسائل عدة، سنناقشها معاً، لكن ما يهمني الآن تقسيم الجماعات والفئات التي سنعمل خلالها، وتحديد أهمية كل منها، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر.

تنقسم مصر إلى فئات «وجعلناكم فوق بعض درجات».

١ - السلطان والأمراء الكبار

٢ - المماليك والأمراء الصغار

٣ - أولاد الناس، المتعممين، والفقهاء، أرباب الطوائف والحرف، التجار.

٤ - العامة من الناس

بالنسبة للفئة الأولى، يجب النفاذ إلى خباياها، عن طريق بصاصين متخصصين، على درجة عالية من الرفعة والإلمام بالعلوم، والقدرة على المناقشة، ومعرفة تقاليد هذه الفئة وعلومها، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والأمراء الكبار، وأرى أن يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حالياً).

* المماليك والأمراء الصغار، وتخصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام.

* الفئة الثالثة، لا بد من التركيز عليها، والاهتمام بها اهتماماً كبيراً فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم، الجماعات العلوية (الأمراء والأكابر) أو السفلية (العامة والأوباش).

* عامة الناس، وهم دائماً مثيرو الفتن، ربما حركوا بعض المتعممين

والفقهاء في ظروف عدة، وأجدني مضطراً إلى تقسيمهم.

(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب، وهؤلاء لا بد من تتبعهم باستمرار، وإثارة بعض الفتن من حين إلى حين لكشف من ضل ومال إلى جانب إثارة الفتنة والغم، وتحريض الأوباش على سادتهم، وهؤلاء لا يجوزون من بين الناس فرما أثار هذا سخط العامة، إنما يعاملون بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة، سنتفق عليها سوياً.

(ب) بالنسبة للعامة، فهؤلاء قطع يتجه كيفما توجهه، إنه بحر زاهر طوع الرياح، وحش بلا عقل تسوسه فيطيعك، والأعمار في هذه الفئة لا قيمة لها، فكلما ضاقت سبل العيش، كلما قلت قيمة الحياة، وذهب عناء الحرص عليها، ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر، بطريقة لا يعرفها أحد، وهذا يرهب الباقين.

أرجو مساعدتي في إعداد كشف تضم أسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة، كشف يحوي أسماء القضاة وآخر به البناءون، والمرخون والصباغون، والنقاشون، والعقادون، والصدفجية، والنساجون، وباعة الحلوى، والمشبك، والشربتلية، وغيرهم.

لا بد من حصر المواليد الجدد الذين يجهلون إلى الدنيا وكل أب ينجب طفلاً لا يبلغ عنه إلى نائبي في المنطقة التي يقيم بها يعاقب بالجلد، ويأذن الله أنوي شئ عدد منهم في البداية حتى يرتدع الباقي، وهكذا يمكننا معرفة أعداد القادمين، من سيخلفونا في دنيانا، ندرجهم في كشف نتتبعهم في نموهم، تلقى التعليم دينياً أو دنيوياً، في طائفة أو حربياً بالنسبة لأولاد الأمراء والماليك، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم، ومكان الخطر فيهم، حتى إذا ولينا عن الدنيا، حانت آجالنا، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله، تركنا لمن يأتي بعدنا سجلاً نافعاً جامعاً لكل ما عركناه، وما رأيناه في زماننا،

وبالنسبة لهذا الأمر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقني السلطان عليه .

أرى ونحن مقبلون على عصر كله عن، وفتن، ونظراً لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج، بالكشف أيضاً المهنة التي يزاولها الشخص، الجهة المقيم بها تختتم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائب في منطقة الإقامة، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان، ومن ضبط بدون بطاقة جلد، عوقب معاقبة شديدة، وعند وفاة الإنسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته إلى مقدم البصاصين لترفع إلى الديوان فيشطب اسمه من الأحياء، وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى الحرير .

في المدة المنقضية على ولايتي للحسبة، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة، ومعنى شخصياً، وهذا أمر تتفق معي على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظاً على هبة الأمراء، والرجال الأكابر، وأضرب مثلاً بسيطاً، عندما أردت إنارة القاهرة بالفوانيس، تردد كلام كثير حول الموضوع، واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التاريخ، مما اضطرني إلى الرجوع عن أمر انتويته، وشرعت في البدء فيه، هذا لم يغضبني أبداً ربما أخطأت الوقت، لكن ما ألمني وأوجعني هذه الحكايات التي ترددت على ألسنة العامة، وهم يحبوني، مما دفع بي إلى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر، وانت كنائب للحسبة ونائب لي في جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيراً)، وما يلحق بي اليوم، يلحق بك غداً، وما يمسنى يمسنك، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة وإخفاء هذه

النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذراً، فلا مستحيل يحول
بينك وبين ما تريده.
واقبل مني السلام، وأدعو معك
أن يجعل الله هذا البلد آمناً

(متولي حبة الديار المصرية)

والي القاهرة

الزيني بركات بن موسى

عمرو بن العدوي

لا يدعه يغيب عن عينيه، إذا بعد عنه، عرف أخباره من أصحابه المجاورين يجلس هادئاً بينهم ثم يسأل عنه سؤالاً عارضاً بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماماً «ألم ير أحدكم سعيد الجهيني؟» يقول أحدهم «خرج منذ الصباح»، يجيب آخر «سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جامع قلاوون»، يقول عمرو «سعيد ابن حلال»، يسكت، منذ أيام خرج عمرو إلى الطرقات يرى أياماً نائيات يمسك فيها بجلباب أمه، خرجاً إلى الحقول لينتزعا البطاطا، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبز ساعة الظهر، البوص، وهج الأفران، جريه مع الأولاد عند مجيء نائب المحتسب نظرات الحرير المدعورة من الطيقان الضيقة، خوف يضم القلوب، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون، تسوي فيه قدور الفول المدمس. صباح الخير.

يرفع حمزة بن العيد الصغير يده...
«أهلاً... أهلاً بالقمر...»

منذ ثلاثة أسابيع يمر يومياً على حمزة، يشرب القرفة بالحليب، يدفع درهماً كاملاً بدلاً من نصف درهم، في أحد الأيام تغيب عن المجيء،

في اليوم التالي أبدى حمزة جزعاً، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر، عمرو يجيء هنا في أوقات معينة، يعرف من تتبعه لأخبار سعيد، مواعيد حضوره، قال مقدم البصاين، تردد سعيد إلى مقهى حمزة، أمر جديد لم تبلغ عنه إلا أنت ثم قضاؤه وقتاً في تدخين المعسل هذه علامة جديدة، ثم ما الذي دفعه إلى إختيار هذا المقهى بالذات، تلك أمور لا بد من إيضاحها، في البداية حامت حوله الظنون، ربما يتخذ الدكان مكاناً للقاءات مربية، لكن الرقابة الصابرة المحكمة، أثبتت أنه يقضي الوقت كله منفرداً لا يتحدث إلى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة، أو تحية، أو تبادل المودة، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى، وإن تميزت بود زائد، أيضاً طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة، لا يقرن طلبه بأية إشارات خفية أو رموز سرية، ربما تضمنت معاني دفيئة تغيب عن اللبيب الفطن، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين، في مرة أخرى قال مقدم البصاين «لا بد من وجودك على مقربة من سعيد الجهيني، عمرو يعرفه، ينام في الرواق بالقرب منه، عالم بطبائعه، بلحظات سروره، ولحظات كآبته، وما يصاحبها من علامات، أو انقباضات وجه، من هنا يمكن لعمرو لوراقبه جيداً تتبع اختلاجات وجهه، ارتعاشات عينيه وحركات يديه، ربما توصلوا إلى شيء، لكن لا بد من الحذر، بحيث يجلس عمرو في مكانه لا يمكن لسعيد أن يلحظه، تساءل عمرو «كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه، هنا فرد مقدم البصاين بين يديه ورقاً عريضاً، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من أوان، ومقاعد منحوتة في الجدار، أشار إلى فجوة في الحائط قريبة من نضبة الفحم والحلبة والسحلب، «هنا ستجلس» وسعيد لا يدخل إنما يبقى في الخارج، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك،

لكن يجب ألا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم أذهب إلى حمزة بن العيد الصغير، عامله بمودة، أجزل له العطاء، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم، أعطه درهماً كاملاً، هل تحب الحلبة؟ ياه. . نسيت عشقك للفرقة بالحليب، الثمن واحد، عموماً ستأخذ مصاريفك كاملة أول كل أسبوع، من اليوم ستذهب إلى الدكان لمدة خمسة عشر يوماً، بعد صلاة المغرب، في أي وقت بعد العشاء، يمكنك أن تجلس في أي مكان تشاء، سعيد لا يأتي في هذه الأوقات، في اليوم السادس عشر أذهب مبكراً إلى الدكان، أطلب إلى حمزة بن العيد الصغير أن يقيك جالساً في هذه الفجوة، هنا. . ابق ولا تتحرك، أظهر الحزن، وعدم الرغبة في الكلام، سيجي سعيد. . سيجلس هنا، هل ترى؟ ومن مكانك ستراه غمماً، لن يتمكن من رؤيتك. . هل فهمتي؟ أبدى عمرو تعجباً لدقة التفاصيل. سخط الدكان ومسح لبقى بهذا الحجم فوق الورق، قال المقدم «توكل على بركة الله. . إسمع. . هل تحتاج نقوداً؟ هز عمرو رأسه «خيرك يغرقني» بقيت يده معلقة بين يدي المقدم، «ما أخبار الوالدة؟» كأن فصامر الطعم ذاب في ريقه، لا يعرف لها خبراً، عندما رجع شيخ زاوية العميان، أسرع إليه، يعرف أنها لا بد سترسل إليه شيئاً من البلد، ربما أرغفة بتاو، قدر مليء بالمش والجبن القديمة تصل به الزمن الذي قطع المسافة بينها، عمرو لن ينسى أبداً صوت الرجل قال «لم أعثر لها على أثر، قالوا في البلدة أنها لم تمت، منذ مدة بدأت تتحدث عن محبي هاتف في المنام أنذرها بقله ما تبقى من عمرها، لا بد من رؤية عمرو ولدها، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبتها سكينه الدودة التي تصنع أواني الفخار، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته فوق كوم برسيم أخضر قطعت جبل خلاصه «يا دودة أنا سأسافر إلى مصر لأرى كبدي» قالت الدودة «مصر بعيدة وأنت مارحت إليها أبداً» لكنها أصرت، قالت لكل رجل في

البلدة والنساء، حتى الأطفال، توقفهم في الطرقات وتحكي لهم عن ولدها عمرو، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله، أعطتها الدودة زوادة أكل، في يوم صحت فلم تجد أم عمرو، داروا عليها في غيطان البطاطا، وملقة البطيخ، لم يعثروا لها على أثر، ولم يذكرها أحد بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوماً، إنما هي احتاجت الناس دائماً، تعجب شيخ زاوية العميان قال «ظننت أنها جاءت إليك»، غامت عينا عمرو، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين قريتين، تقطعه ترع، حفر، غابات نخيل، ينزل عليها الليل لا تلقي ما تدفيء به معدتها تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق إلى مصر، أحياناً يوقن عمرو بقربها منه، ربما يلتقي بها فجأة، هل سيرفها، ربما غيرتها المسافة، ربما ضعف بصرها. فلا يمكنها رؤيته، ثلاث سنوات لم يسمع لها حساً، لم يلحظ ارتعاش هديها، هو تغير، نحيي لحظات يلوم نفسه لوماً عظيماً كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام، كيف. لا فائدة ترجى، جرح غرس نفسه في كليته، في قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت في الطريق أمامه، أثناء مراقبته لسعيد، هل يقوم متفضلاً، كاشفاً نفسه، يعانقها، يدرك سعيد ما يحاك له، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره، عمرو ليس بمفرده في المقهى، يعرف هذا تماماً، هناك عين أخرى ترقبه، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه، ربما غيره، شخص واحد ينفي عنه الشك هو سعيد الجهيني نفسه، ومن يدري، ربما يتعرض لاختيار رهيب تمهيداً لتبصيعه في سلم البصاصين، أبدى المقدم تأثراً واضحاً، قال هذه حالة أصعب من الموت نفسه. قال له إنه سيوصي النواب في سائر البلاد بإبلاغه عنها. لا بد من كشف أمرها، في لقائه مع المقدم رأى تغييراً ملحوظاً لا تخطئه عين في طريقة حديثه، معاملته، لهجته أرق، يبدي اهتماماً زائداً عن الحد بشئونه الخاصة، لا يهدد كالعادة، هذا أفضل، عمرو أكثر قرباً

منه بعد اللقاء، الآن، يجلس منكشاً في الفجوة، تعلم من المقدم ألا
يمل ولا يزهد من مرور الزمن، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال
ثقب مشرّبة يوماً كاملاً، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجيء، عليه
ألا يدع للضيّق سبيلاً إلى روحه، بالفجوة رطوبة، وفي القلب حنين إلى
عجوز لا يعرف مكانها، إلى أي أرض تمضي، بأي أرض تموت، لحن
الحنين يجب أن يتوارى، الآن يعمل، يسعى من أجل عيشه، لم يقربه
حمزة كما رجاء، جاء ثلاثة من مشايخ الكتائب التي تحفظ القرآن
للصبيّة، أحدهم يرشّف السحلب بصوت مسموع ضايق عمرو،
ترحم أكبرهم سنّاً على أيام زمان عندما كان الصبيّة يسعون بأرواحهم
إلى حفظ القرآن وتلاوته، لكن الزمن ما عاد الزمن، الصبي ابن
العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر، ما يصدق الحصّة
تخلص حتى يهج. قال أحدهم «الشقاوة. أعوذ بالله منها.»، قال
ثالث «هذه علامات الساعة» تساءل عمرو بينه وبين نفسه «ما الذي
يقصده بعلامات الساعة؟» ليتنبه، صحيح أنه هنا من أجل سعيد،
لكن لا بد من الإصغاء إلى ما يجري، ربما طلع بحديث له قيمته، ربما
وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب والتدبير. قال أكبرهم «أي
والله. لا أعجب لو أخبرني أحد عن بغلة أنجبت»، قال الثالث:
أقصرهم قامّة «نستعيد بالله يا مولانا. لو حملت بغلة وأنجبت لكان
هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا» قال غليظ الصوت، «وما أدراك أنها
لا تنتهي» أصغى عمرو وحديث طريف لكن له مغزى. بأي سيم
يتخاطب العجائز؟؟، ليفتح أذنيه تماماً، عندما قابل مقدم البصاين
أول مرة قال له، «البصاين المكين عبارة عن أذنين وعينين، يسمع
ويرى، يحفظ وينقل، حتى في ساعات نومه»، عشنا وشفنا بدع لها
العجب، يعني الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا
بقطعة الجلد هذه. والله عجيب»، قال قصير القامة «لم نسمع بهذا من

قبل» آه لويعرف عمرو أي الكتاتيب يديرون؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غداً حتى لا يثير ريته، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة، لو صح أن حمزة عين ترقبه، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار، دخل أولهما، أشيب الشعر وهو يسأل؟ «يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة، ولبس الكبيرة» قال الثاني، «لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا»، تساءل عمرو، من أي حي هما؟؟ في الناحية الأخرى أكبر الشيوخ «ومن علامات الساعة ظهور المسيح الدجال»، التاجر أشيب الشعر، «أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباي»، يقول ثاني المشايخ «والله أشعر أن المسيح الدجال يسعى بيننا» يدق قلب عمرو، هذا خطير، التاجر الصغير: لا أصدق أبداً أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة، وإلا...
فأين البشائر، آه... أين البشائر؟؟، الشيخ أشيب الشعر، أي والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب» التاجر الصغير «عموماً... أنا لا أستبعد هذا... ربما» دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصراني من أهل الذمة، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه، لا يتحدث كثيراً، إنتظار الكلام منه كنزول المطر في بؤونه، كل يوم يجيء أربع مرات، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان، وفي الضحى، ثم العصر، وقبيل إغلاق الدكان، آه... يضحك المشايخ، هل فاتته شيء؟ أشيب الشعر يقول «سعيد الله في أجلى حتى أشمت في زمني» يضحكون، لا بد أن يتذكر الجملة جيداً، التاجر الصغير «أشترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا...»، تغير موضوع حديثهما، النصراني في كل مرة يشرب كوباً من اليانسون، بلا سكر، يدخن كرسيين من الدخان، لا يدخن تبغ الدكان، إنما يحمل معه كيساً جلدياً متشققاً مليئاً بالتبغ الأصفر الجيد، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره؟ يتناول مقداراً معيناً لا ينقص ولا يزيد، يطلب

من حمزة رص الكرسى، يتابعه بدقة، يبدأ التدخين، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعانى وجعاً يحرك رأسه يميناً وشمالاً، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة، يحدثها عن ظلم فادح حل به، قرب انتهاء الكرسى، ينظر إليه، يسوي الفحم، يضعطه، يحيط الحجر بيديه، يميل عليه، ينفخ بفمه، رجاء أخرس ألا تنتهي أنفاس الدخان، يقول الشيخ قصير القامة «أي والله . . أي والله»، يرد أشيب الشعر «لكنني لم أصدقك أبداً . . أقسم الإيمان المغلظة لكنني لم أصدقك»، حمزة حكى ما يعرفه عنه، يسكن في وكالة الفراخ، قرب خان الخليلي، لا زوجة عنده ولا أولاد، مرة رآه حمزة يبكي، يبكي بدموع تنسال من عينيه سهلة لينة بلا مانع، بلا نشيج تساءل عمرو، من أين يأتي بالتبغ؟؟ ما الذي يجعله مهموماً؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها إلا عينيه هو، آه . . سعيد يجلس أمام الدكان، حضور مفاجيء لم ينتبه إليه لن يذكر رؤيته المفاجئة : هذا أمر يحسب عليه، يقعد فوق الدكة، أطرق، عمرو يحاول تهدئة دقات قلبه، حقاً لا يزال الشوط بعيداً حتى يصل إلى حد الكمال، أن يرى مهما يرى، لكن مشاعره لا تتغير، لا تبدل، هذه درجة راقية لا يصل إليها إلا كل بصاص مكين، آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور في عقل الآخر، لعرف البصاصون دلالة رعشة العين، أي الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان .

يا أهالي مصر.
 تأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.
 انكشف المستور.
 منذ ستة شهور.
 تسلم الزيني بركات بن موسى.
 ناظر الحسبة الشريفة.
 ووالي القاهرة.
 تسلم الأمير مامي الصغير.
 وبعد أن قرره، احتاط على موجوده.
 وظهر لديه ما قيمته،
 تسعون ألف دينار.
 وهذا يزيد عما طلبه السلطان.
 بعشرين ألف دينار.
 وقد سلمت الأموال، جميعها.
 إلى بيت المال،
 يا أهالي مصر.
 أمر الزيني بركات بن موسى.
 ناظر الحسبة الشريفة.
 ووالي القاهرة.
 بفرض ضريبة على بيوت الخطأ.

ومنع تردد من هم دون العشرين عليها .
حفاظاً على الخلق ، والشريعة .
يا أهالي مصر .
بعد يومين ، يسافر الزيني .
إلى جهات دمياط ، والدقهلية ،
لكشف أمورهما ، ودفع العربان عنها .
وإقرار النظام بها .
وسوف يقوم بأعماله في غيبته .
عبد العظيم الصيرفي .
صراف الحسبة .
ونائبها لشئون الأموال .
وجميع الأمور ستبقى على حالها .
وسيعاقب المخالف .
يا أهالي مصر .
تعهد الزيني بركات بن موسى .
ناظر الحسبة الشريفة .
ووالي القاهرة .
إلى مولانا السلطان .
باستلام الأمير بكتمر الساقى أمير عشرة .
واستخراج أموال المسلمين منه .
ويقدرها الزيني بخمسين ألف دينار خالصة .
غير ما يظهر .
من المخبأ . .

إلى مقدم بصاصي القاهرة

في يوم الإثنين، في الصباح، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم
النسيم، يمارسون اللهو والفرجة رأيت سعيد الجهيني، وفي الحال
تواريت عنه، لم يكن بمفرده، إنما تصحبه امرأتان، أحدهما كبيرة
السن، اقتفيت خطواتها، من باب الخلق إلى حدائق بولاق، وهناك
لحق بهما شيخ معمم اسمه ربحان البيروني، اعلم بتردد سعيد على بيته،
وبدا سعيد - وأنا أقطع الشك باليقين، والتردد بالثبات - مولها، مدها،
غارقاً حتى أذنيه في عشق إبنة الشيخ البيروني، وعرفت من أصحابي
المجاورين أنه كثيراً ما يلفظ «سماح» أثناء نومه وسماح هي إبنة الشيخ
وقد أمضيا اليوم كله في حدائق بولاق، انفرد سعيد بها مرتين، حدثها
وحدثه، وسوف أتابع ما يستجد.

عمرو...

نداء

يا أهالي مصر
يعلن عيد العظيم الصيرفي
صراف الحسبة
إن كل شيء على حاله
والأسعار كما قرر الزيني
وأي تاجر يتلاعب
دمه مباح
حتى يرجع الزيني من غيبته

نداء

يا أهالي القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفي
بشنق بائع بيض على باب دكانه
لأنه زاد سعر البيض

نداء

يا أهالي القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفي
بقطع السنة ثلاث شبان
ضبطوا يشيعون البلبلة

نداء

يا أهالي القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفي
بتسليم ثلاثة مغارية
إلى الشهاب الأعظم زكريا
النائب الأول للحسبة، ولوالي القاهرة
بعد ثبوت اتصا لهم بابن عثمان

نداء

يا أهالي القاهرة
يأمر عبد العظيم الصيرفي
بأن يفتح كل إنسان أذنيه
ويدل على من شك في أمره
بوجود صلة له مع ابن عثمان
وله مكافأة
يا أهالي القاهرة
غداً . .
يتوجه الشهاب الأعظم زكريا

إلى جامع شيخون
ليوم الصلاة
ويخطب في المؤمنين
والجامع مفتوح أمام الراغبين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم اجعل هذا البلد آمناً

«ديوان سر الشهاب زكريا بن راضي»

نبذة مرسله بالحمام الزاجل

إلى الزيني بركات بن موسى متولي حسبة القاهرة والديار المصرية،
ووالي القاهرة، إلى دمياط.

١ - من هو الشيخ ريجان البيروني؟؟

هو الشيخ ريجان بن زيد محمد الأسيوطي بن امر الفاضل أحمد بن إبراهيم، أما البيروني فلقب لصق بالشيخ، منذ أن درس علوم المنطق على يدي شيخ ضرير أتى إلى الجامع العتيق في أواخر عام ٨٠٥ هـ. جاء من بلاد الشام إسماعيل الصوفي، اسمه الشيخ البيروني ولم يكن شيعياً، أو متميماً إلى أي طائفة من طوائف الرافضة، إنما هو سني متعمق، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات عام ٨٨٣ هـ. دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين.

عمل الشيخ ريجان كاتباً صغيراً بديوان سر قاضي القضاة، وفي هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتاوى التي تصدر عن قاضي القضاة، وأتقن عمله، كما أتاح له هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال

السلطنة عن قرب، ومن قبل لم يرههم إلا في المواكب، وعندما كان يلمحهم يتساءل ويروح عقله إلى بعيد، هل يضحك هؤلاء الأكابر كبقية الناس، هل يتبادلون النكات، والقفشات، هل يداعب الواحد منهم صاحبه، يناديه بألفاظ الألفة والمودة، تساءل كثيراً عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم الطعام، يغمض عينيه، يرى نفسه مقرباً إلى أمير كبير، وقريب من مجلس السلطان نفسه، لكنه لا يدري ما يقوله لهم، بل من الثابت فعلاً، وهذا دلت عليه شواهد وقرائن، أنه تساءل إلى أحد أصحابه - في الفترة ما بين عامي ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ - عما إذا كان شخص مثل الأمير تمرغنا أتابك العساكر وقتئذ، يبول ويفعل كبقية الناس؟؟ بل قال لصاحبه، كيف يتعري السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة عندما يعلو امرأة من حريمه، يسيل ريقه، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه شهوة ورغبة، واعتبر البيروني مثل هذه الأسئلة أموراً كبيرة، تستحق مؤلفاً ضخماً، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام، صاحبهم بادهم الرأي في الزمان، ما يأملون فيه، ما يحملون، رأى نفسه يجلس إلى أتابك العسكر، يدخنان سوياً بعد عشاء هنيء، يميل عليه الأتابك، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو، أو الأمير الجوكندار المحمدي، يقص عليه حكاية خاصة جداً تتعلق بالسلطان، ثم يطلب منه ألا يفضي بها إلى أحد من الناس، لأن السلطان لو عرف بتسرّبها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضي إليه أسرار لم يسمعها غيره، أن يمشي في شارع الصليبية، سوق الليمون تحت باب الفتوح، حوله الخلق، باعة ومشترون، في عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة أما دماغه هو فيعجج بالأسرار، وعندما يجلس بأحد الدكاكين، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن، يرى نفسه وقد قضى الليل كله في قصر أمير كبير، لم ينم، لم يأخذ راحته وحقه من النوم، يضطر مع هذا إلى الذهاب

إلى ديوان المكاتبات، يصوغ الفتاوى والحجج، هنا، يشعر بعينيه مجهدتين فعلاً، بل يتشاءب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به، يلحظون كسله وتراخيه، لو سألوه سيوضح لهم فوراً طوال الليل يجالس الأمراء، ينادم الكبار العظام، فيعذرونه ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه، يطلبون منه رفع أمره إلى ذوي الشأن الذين يعرفهم يرجونه في الوساطة وقضاء شئونهم فهو طيب القلب لا يرد محتاجاً عن بابه.

تتكاثر عنده الفتاوى التي يعمل في صياغتها، يضيق بطلبات عبد البر أن يسرع، يرى نفسه داخلاً على الشيخ عبد البر قاضي القضاة، يقف أمامه، عبد البر تأخذه الدهشة، ما الذي غير حال مستخدمه، نظراته جامدة، عمامته كبيرة، عطر وطيب يفوحان منه، بهدوء يميل عليه الشيخ ربحان يطلب منه ببساطة ألا يتعجله، حسه منخفض، لا بل مرتفع، أبدأ الأفضل أن يكون منخفضاً واثقاً، ألفاظه بليغة، سيقول لعبد البر أنه يطيل السهر مع الأمراء، أنه من خاصة الأمير بكتمر، ونديم منطاش، ومستودع سر الأمير طومانباي نفسه، أما الأمير تمرغا فلا يتوكأ إلا على كتفه، سيفزع عبد البر، تغشاه رهبة، يخشى على نفسه، يأمر الشيخ ربحان بأن يعمل على مهله ألا يتعجل أبدأ، أن يحل ويربط على هواه، ليس بعيداً أن يأمر السلطان بخلع القاضي عبد البر، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ربحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضياً.

«حدث حوالي عام ٨٧٦ هـ، وعمر الشيخ ربحان حوالي خمساً وشعرين سنة، أن عرف الطريق مع أحد أصحابه إلى بيت «سنية إبنة الخبيزة» قرب الفسطاط، هناك قدمت له صبية فلاحية إلقتطتها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة، والثابت فعلاً أنها المرة الأولى التي ينام فيها الشيخ ربحان مع امرأة في حياته، في أول مقابلة، قال انه يشغل

وظيفة خطيرة، وظيفة وثيقة الصلة بالأمير اقبغا، سألته الصبية من هو اقبغا؟ فقال «أقرب الناس إلى السلطان» فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت «يا خراب أسود»، ضم شفثيه حذرهما من البوح بهذا السر إلى صاحبة البيت، رقبتهما ستطير عندئذ، وظيفته السرية، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم، أو السعي إليهن، وامرأة أي أمير أو كبير في تناول يده، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلاً، لكنه لا يستطيع، وظيفته السرية تحوشه عن هذا، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته، أثناء حديثه توقف مرات، هز أصبع يده اليمنى محذراً إياها من البوح بما يقول إلى نفسها حتى، خافت الصبية، صدقت ما قاله، خاصة أنه أعطاها بقشيشاً محترماً يندر تناوله من أي واحد يخلو بها.

«في كل يومي اثنين وخميس يمضي الشيخ ربحان إلى الفسقاط، ومرة وجد الصبية متغيبه، رفض مضاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية ابنة الخبيزة، عاد ليجد الصبية متزينة في انتظاره عندما تجرد من ثيابه، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده، قال . . ياه . . خافت الصبية، مالك؟ أجاب، نسيت أمراً مهولاً كلفني به الأمير منطاش يسكت لحظات، مجرد سماعها هذه الأسماء، طريقتة البسيطة في النطق بها، تخشى وتخاف، يتأسف قائلاً والله أخطأت في حق منطاش كريم معي جداً، جداً تصوري، ويراعي حقي لكنني لا أعيره التفاتاً، لا أهتم به، لكنه يجب أن يعدلني، مشاغلي لا تحصى، أي والله لا تحصى . . وينفخ بفمه، يضرب ركبته بقبضته، الصبية لا تعرف ما تقوله، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول «لا عليك يا حبيبي ما تغتم يا حبيبي» مرة ثانية يتمدد جوارها راضياً يضحك «يا سلام على طومانباي . . أما ولد»، تنسع عيناها، يحكي عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه، يذكر اسمه بلا تفخيم أو تعظيم، تسأله «ماله يا

حبيبي؟؟» فيقول «سهر معي طوال الليل . . يا سلام . . أما حكايات غريبة غريبة جداً» يصمت لحظات، يقول «لكنني لا أعرف كيف جرى هذا، كيف؟»، وفي مرة تلقى حلمة نديها الأيسر، يمر على حوافه بشفتيه، عادته المفضلة، قالت الصبية وجسدها يختلج: سنية إبنة الخبيزة تعاني ضيقاً وعسراً من متولي الحسبة - كان في هذا الوقت علي ابن أبي الجود - قرر عليها زيادة في الضريبة، وتمنت لو أن الشيخ ربحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكابر العظام، هنا انتفض الشيخ ربحان عارياً، وعرق الغضب يطق من جبينه، «أنت مجنونة. ضاعت رقبتنا الآن، هل قلت شيئاً يا مجنونة مما أقوله لك لإبنة الخبيزة، إرتعش جلدكها وقففت، أقسمت بحياته عندها، بآل البيت، برحمة أبيها الذي لم تره أبداً إنما الصحيح أنها فكرت فيه، هي لا تعرف من الأكابر غيره، وبكت بين يديه، قى هدأت ثورته، وخفت حدته، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولاً لا يسني، لكنني ماذا يقول لأي أمير من أصحابي . . هل أقول له إنني أريد إنصافاً لإبنة الخبيزة . . سيسألون، وما الذي عرفك بابنة الخبيزة؟؟ آه . . عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر أصحابي لا بد أن توزن الأمور، ألا تؤخذ كما هي . . » «وبقي الشيخ ربحان مبلبل الخاطر، عندما يقابل إبنة الخبيزة ينظر إليها، يحاول تلمس أي دلالة على معرفتها بما يقوله، يخشى مفاجأته بسؤال ترجمه فيه التوسط لدى الأكابر، ويفلت لسانها بحديث أمام المترددين عليها، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية، عرف منا شخصيات بعض المترددين هنا، موظفين في دواوين الأمراء عند المحتسب، مشايخ بعض الأمراء الصغار يجيئون خفية.

حدث في هذه الفترة أن استدعاه القاضي عبد البر، وعندما مضى إليه دارت في رأسه الدوائر ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر،

سيجازه القاضي مرتين الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطأ، الثانية لكثرة تخريفه، راح يجهز ما سيقوله، سيرجو القاضي العفو عنه بسبب التردد على البيت فالألسن لا تحرم، لكن ماذا يقول عن الأحاديث، واختلاق الحكايات حول الأمراء، قابله عبد البر مرحباً، ابتسم في وجهه، طيب خاطره، وهذا ما لا يحدث قط، فعبد البر عبوس دائماً، فظ اللسان، غليظ القلب، أخبره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالها في كم الرداء، ثم يسويه، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان، بحيث يدير ظهره إليه، ويسلمه نفسه، قال القاضي عبد البر، الأمير سلامش طلب مه شخصاً موثقاً به، ليحرر مكاتباته، وبحث القاضي عبد البر كثيراً فلم يجد أخلص من الشيخ ريجان، لكن حتى يتم الأمر، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها، فالأمير سلامش لا يقبل أعزب في قصره، وقال القاضي عبد البر «ثم إنك لست صغيراً يا شيخ ريجان».

قام الشيخ ريجان وقبل القاضي عبد البر، مشى في الطرقات يرقص فرحاً وطرباً، أخيراً سرى الأمراء والضيوف، يحرر المكاتبات، يطلع على أسرار الدولة، تمنى لو قال هذا للصبيبة لكنها ستتعجب، ألا يخبرها دائماً بقربه والتصاقه بالأمراء والأكابر.

مضى في أفخر ثيابه وقتشذ إلى قصر الأمير سلامش بالغ كثيراً في إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحي أنه خدم طوال عمره في بيوت أكابر، انتظر مقابلة الأمير، لم يلتق به، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه، وعندما سأل نائب الأمير عن زواجه أخبره «تزوجت منذ أسبوعين» فعلاً كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة، أحد تجار العدس في أثر النبي يمتلك ثلاث مراكب سارحة في

النبل تنقل له المحصول من الصعيد، غير القلل والأزيار (مات عام ٩٠٩ هـ) المهم أثني المعلم محمود على الشيخ ربحان، حافظ كتاب الله وحارس البخاري، وبعد أسبوع دخل على ابنة المعلم في داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر به، وصار المعلم يقول «زوج ابنتي رئيس عند الأمير الجمدار».

في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ربحان حجرة صغيرة في مبنى منزول عن بناء القصر الأصلي حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلاً ونهاراً، ثاني وثالث يوم لم يقف الشيخ بين يدي الأمير، كذا الأسبوع الأول والثاني والشهر الأول والثابت فعلاً عدم مثوله بين يدي الأمير قط.

عندما يلتقي به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار وأحواله، يهز يده، يقول «والله . . . صحته بالأمس كانت على غير العادة . . . صحا من نومه فوجد عينه ترف . . . وهذا عنده قال سيء فقصي بقية يومه مغتماً . . .»، ييدي المعلم جزعاً، يزقق بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير، يتساءل «ألم يقصده الطبيب؟» يقول الشيخ ربحان «وجاءه وفصد دمه . . .» هنا يطلب المعلم محمود - بصوت عال - من زوج ابنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير أن يخبره بدعواته الصالحات من أجل شفائه، فيهز الشيخ ربحان رأسه ويحييه - بصوت عال أيضاً فهو يعرف قصد المعلم «سأقول له . . . والله حملني سلاماً خاصاً إليك . . . أي والله».

كثيراً ما يجيء إلى المعلم، يزقق من بعيد «الأمير سلامش يهديك سلام الإسلام . . .»، يشرق وجه المعلم، يرم شاربه، يتخلل لحيته بأصابعه «والله عندما ترى الأمير أبلغه سلامي».

بدأ هذا القول يؤلم الشيخ ربحان ويورثه حسرة، لم ير سلامش بعينه، حتى نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة، عندما تسلم وظيفته، كل

المكاتبات تجهته يوماً مع أحد الطواشية، والثابت فعلاً أنه لم ير الأمير قط حتى عندما أنجب إبنته الأولى «سماح» (أنجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه. لم ينجب بعدها، وهذا أمر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير أشرفية وقماش أطلس، وقميص زركش لطفلة صغيرة).

بعد مجيء سماح بعامين (٩٠٤ هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش - وهذه واقعة معروفة - عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى إلى فكاة لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة، وتسبب في حصول كسفة للسلطان مما جعله يستدعي سلامش وحقق معه، وبطحه أرضاً وضربه حتى كاد يهلك لظنه أن واقعة عدم إحكام لف الشاش أمر مدبر، وأمر بإلقائه في المقشرة، ولا يزال سلامش محبوساً حتى الآن بعد مضي ما يقرب من عشرين عاماً على الحادثة.

يشاء حظ الشيخ ريحان، أن الأمير سلامش أرسل - قبل حدوث واقعته - إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن، وأثناء تواجده الشيخ ريحان عنده، وقعت حادثة الشاش، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده، وارتضى الشيخ ريحان بالحال، وتزايد سروره، لاتصاله مباشرة بطغلق، وخروجه معه أكثر من مرة وأفضى إلى المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه، وتوسطوا له عند طغلق الذي لم يكن غريباً عليه، فأخذه عنده؛ وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه، ويجول بنظراته في الطرقات متمنياً أن يراه أحد ممن يعرفهم، وهو ممتطياً بغلة بسرج عال في موكب طغلق، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان.

منذ سنوات جاء من بلدة جهينة، شاب صعيدي يمت إلى الشيخ
ريحان بقراية بعيدة، أقام في بيته فترة من الزمان، حتى التحق برواق
الصعايدة، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح إبنة الشيخ ريحان خاصة
أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة.

طبقاً لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ
الذي بدأت محبتها تدب في قلبه، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته
وأحاديثه معها يوم شم النسيم في حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا
تزيده إلا وجداً وصبابة مع أنه لا يراها إلا نادراً جداً (وهذا تثق به).
الثابت أيضاً جهل الشيخ بما يكنه سعيد لإبنته، وجاري الآن
تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفي.

(ديوان سر كبير البصاين ونائب المحتسب)

ونائب والي القاهرة

«ختم»

(زكريا بن راضي)

نداء

يا أهالي القاهرة
يعلن عبد العظيم الصيرفي
عن قرب وصول
الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة الديار المصرية
ووالي القاهرة
بعد عودته من بلاد الصعيد
فعلى أصحاب الدكاكين
والمغنين
وأصحاب الربابة ، والرقاصين
الخروج لمقابلته
عند دخوله من الجيزة
ظهر يوم الثلاثاء بعد غد
ومن تخلف ، وقع عليه عقاب شديد

كوم الجارح

مسافات لا أول لها ولا آخر في عيني الساعي ، والمسافر على قدميه ،
زاده عشق الذات العليا ، وجد يشده إلى أقاصي الأرض يعبرها متأملاً
العبر ، يرثي المبتدأ والخبر ، ما أوجع أحزان القلب في بيوت خراب ، في
بلاد عامرة نسي أهلها الأول والآخر ، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس
قارب مفروء القلوع ، الكون بحر ، كله بحر ، المركب يميل ليعتدل ،
يعتدل ليميل ، يزعق الملاح زعقة من فص الحنجرة ، أعمق الأصوات ،
خلاصة الآمال ، ونهاية الآلام ، صرخة ملاح في وجه خلاء لا بر له ،
ولا يابسة تبدو ، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار ، أحاط فمه بيديه ،
ومن شرايين القلب ، من حدقتي العين ، من خلاصة سر الكيد ، من
لوعة المشتاق إلى آخر الأفاق من سنين العمر ، من بثر القلب الدفين ،
من عذابات وجد قديم ، من بقايا عشق يتيم ، صاح زعقة واحدة ،
ألغت الحشا ، خففت حمل البدن ، ولاح سر الباطن ، وكادت الحقيقة
الأولية أن تفصح عن نفسها ، وسوست النجوم ، وألقت السماء دمعاً
ضنياً .

يا واحد . . يا أحد . . أين أنت . . نجني . .

نجني . .

لا يذكر اسم البحر، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد،
الدار كبيرة، لا عرض باد لها ولا طول، وتعليل النفس بالوصول إثم
عظيم، لا هذا العام، ولا العام الذي يليه يحمل البشرى، في زعقته
طرح السؤال، عبر البحار السبعة، الأراضي السبع، تجاوز قاف، واق
الواق، جزائر النساء، ونفذ عبر بطن الحوت، يرى بعيني وجده سدره
المتنهي، غاية الأمل، صوته الضعيف المحزون سمع هناك، آه لو حوله
بحر الآن، آه لو يقف فوق الصاري الكبير يزعق ملتاعاً، تتجسد
صرخته في الهواء حبلاً طويلاً من هيام ووجد لكنها الآن همسة، حيرة
مقطرة استغاثة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين. هاجر وحيداً
فارغى بلا رفقة، لحظات كثيرة رآها في حياته ظن الخلاص وشيكاً وما
يفصله عن الحقيقة الأولية، خطوات قصار، لكن الأحداث تميل فتعكر
صفو الرؤية، تחדش حياة النفس، عبثاً تلوح الأنوار الإلهية في زمان
كهذا، محال أن يرق الجسد حتى يخف، يشف، الآن يرى أيامه
البعيدة، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود، داعب النمر
الوحشية، مص الزلط متلمساً رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن
خلقه حديثه إلى برايرة غزاة يحلون لحم الإنسان، آه لو يودع الثبات إلى
الحركة، يترك الركود إلى ديمومة لا تنتهي، طوال عمره لم تلجئه
الأحداث إلى الخلوة الطويلة وها هي ذي سنوات قليلة في موطنه تدفعه
إلى حفر سرداب حفره بأصابعه، فيه يغمض عينيه عن رؤية السجن،
يسد أذنيه عن أصوات البشر، في أول العمر يكشف الإنسان عوج
الدنيا فيحاول تقويمها، لكن في آخره، عندما يبدو كل شيء على حاله،
ولا أمل في تحول، في انقلاب، حتى أولاده لا يدركهم، عندما يربط
ظهر سعيد الباكي، يراه واحداً منهم، لم ير أحدهم شاباً، في أول
خطى الحق تزوج في خوارزم، لم يكمل العام، وإنما رحل في وجه
الجلبل مخلفاً وراءه أثراً، لا يدري، هل جاء الدنيا أولاً؟ في مدينة بشرق

الصين، في قرية فوق جبل شاهق العلو في الهند، في جزيرة صغيرة في المحيط الشرقي الكبير، كل ساكنيه أربعون نفساً ذكراً وأنثى لم يضم واحداً من بنيه إلى صدره لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم، بأي أرض مر عنده ثقة، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأي أرض هو، فالعالم كله واحد ربما رأى أحدهم في أسواق فارس المزدحمة، في ميناء البصرة، في ربوع كازخستان لا يعرفهم ويعرفهم، لولا أن الدمع جف وهجر المآقي من زمن لشارك سعيد البكاء، أول مرة يراه باكياً، طفل آذوه، أمور السوء توائم متلاصقة، تأتي مع بعضها البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره، منهم من يصيح بصوت عال بعد الاقتراب منه «أمثل هذا يتزوج بقمر؟» يسمع هاتفاً ينتهك إسمها «سباح» يلتفت برأسه مفزوعاً، الكون كله يصغي، أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه، أوامره لا ترد، أما زكريا بن راضي، الآن أمام المصلين بجامع شيخون، يقرأ الفاتحة بصوت عال، الناس تقبل يده تبركاً، تيمناً، ومن القلعة، رأس الدولة، نخاعها الأمين، تشرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان، عرف ما يجري في السر، ما من همسة أو كلمة تقال، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالي ويونس القاضي إلى ابن عثمان، وليلة زواج سباح، طاف سعيد، طير لم يكتمل ذبحه، كل هؤلاء الأكابر جاءوا إلى حفل العرس، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين، شاب وأمامه مستقبل، أحاطوا الشيخ ريحان، الدنيا لا تسعه من الفرحة، يتمازحون معه، يتباسطون، والزيبي بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح، أما برهان الدين بن سيد الناس، فهو محتكر الفول الوحيد في مصر، إذا سأل إنسان قيل له، وهل تأثر سعر الفول، لم يزد طفافة من درهم، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند الزيبي، وتبدو الأمور معقولة، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه، لكن يحدث أن تتركز خلاصة الزمان في شخص بعينه، يجمع

الحسنات والسيئات، الشيخ يرى خلاصة العكارة، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد، وما زال طوافاً عظيماً، في كل ليلة يذكر اسم الله كل ليلة في موضع مختلف بين آخرين، السكون عند موته)، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من الأحمال والأثقال، يرى الوهم، كثيراً ما فكر في اعتزال الكون، قضاء ما تبقى من عمره في السرداب، لكنه يلوم روحه، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست رأسه. اختارها راضياً لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدي، أن يرى البلد آمناً، محال، ما يراه بسيطاً كالحروف، مشروعا كالأنفاس، في حقيقته محال، هز الشيخ بهاء الحق رأسه.

«كلنا نحترق. . أنت في ثباتك، وأنا في طوافي، لكن إن مالت الروح عمارمها بها الزمان فقل علينا السلام. .».



السرايق الرابع

زكريا بن راضي

سرح البريد بالبطائق والرسائل، إلى بلاد المغرب، وصاحب فاس، وملك الحبشة، وأمير الهندية، والهند، والصين، فيما عدا دولة ابن عثمان، الأمور الآن لا تسمح لكبير البصاصين هناك بالمجيء إلى القاهرة ليحضر اجتماعاً كبيراً يضم كافة كبار البصاصين العتاة في هذه البلاد، إذ يجتمع شملهم هنا، يتدارسون الأمور والواجبات، يتبادلون ما جرى لكل منهم، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع، سيذكر في سطر، ما يدور به، سيظل خفياً مستورا، لكن آثاره ستعم العالمين. لا يعلم أخبار الاجتماع في مصر إلا إثنان، زكريا بن راضي، والزيني بركات بن موسى، صاحب الفكرة، لأول مرة يحدث أمر كهذا، لم يخف زكريا فرحته، الزيني ألح إلى أنه سيتعرف عند جلوسه إليهم، طريق كل منهم، وأسلوبه، طبعاً لن يقول أي واحد منهم عما يتبعه ويطبقه، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق له من طرق، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصاحب أي مملكة منهم، يجد زكريا نفسه عليماً بأدق أسرار البلاد التي يعمل فيها، مطلعاً على طريقة بصاصيها، مما يتيح له النفاذ إلى أدق الأمور، وهو يجلسه هنا، بالقاهرة، عندما سمع زكريا أفكار الزيني تساعل، من أين له هذه

الخواطر؟؟ لكنه قال بعد إطراقة قصيرة، هل تعرف . . منذ عامين انتويت تنفيذ هذا. أن أجمع كبار البصاصين في العالم، لكن المشاغل ألهتني، خبط الزيني ركة زكريا، طبعاً . . أمر كهذا لن يفوتك أبداً . . الآن يطوف الزيني بلاد الصعيد، ينزل كل قرية في جمع من رجاله الأشداء ونوابه حاملاً الميزان والصنح. الزيني الآن يحتسب على الديار المصرية كلها، يقيم العدل فيها، أخبار جولاته تصله يوماً بيوم، نجح في ضم رجلين من رجال الزيني، لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصي الحسبة، بعد جولة الزيني في الصعيد، سيسافر إلى دمياط، من شهور تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال، عن دمياط والمنصورة، لا يذكر زكريا مقداره الآن، إنما في حدود ثلاثين ألف دينار، بعد التعهد توجه عدد من الأمراء إلى الزيني، قالوا فيما بينهم، لو نجح الزيني وجمع الثلاثين ألفاً لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال، انظروا إلى ذمم المسلمين وكيف تكون؟؟ قابلوا الزيني، أبدوا لإشفاقهم عليه، دمياط والمنصورة لا تدر أكثر من عشرة آلاف دينار سنوياً، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزيني مال السلطان. ثم ما الذي يدخل جيبه؟ هل يرهق روحه؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر، ويصرف، ويشنق أرواحاً، مقابل ماذا؟ رد الزيني قائلاً لن أقتل ولن أشنق أي إنسان لأنه تأخر في دفع ما عليه، إنما سأعذر كل مخلوق ناءت به الحال «سكت لحظات، قال» أعانني الله على جمع مال السلطان وإذا كانت دمياط لم تدر في جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار، فسأصلح أمورها، وأستخرج منها ما لن يتخيله إنسان «خرج الأمراء من عنده وهم في غيظ عظيم»، أرسل زكريا خفية إلى كل منهم، لن ينسى ما قرره يوماً ما أبداً، ألح إليهم بنية خبيثة بضمها الزيني ضدهم، هاجوا وطلعوا إلى السلطان، إتكوا عليه في الحديث، أبدوا تعصبا ضد الزيني لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس، قال . . أنتم هكذا إذا ما

ظهر إنسان يبغي العدل، حاربتموه ولما زادوا عن حدهم قال الغوري هائجاً، رمى العمامة، «والله أخلع نفسي وتسلموها أنتم خربة بورا، الخزائن خاوية وابن عثمان متحرش بنا، العمامة لا يهدأون، ونجار الفرنجة ما عادوا يعبرون من الإسكندرية إلى دمياط، خسرنا دخلنا وعندما يظهر إنسان يتفنن في جلب المال، نقف ضده، وثمانعه، والله هذا كلام لا يرضي مؤمن ولا كافر» زكريا نفسه حار، كيف يجمع الزيني ثلاثين ألفاً من دمياط والمنصورة، في الليلة نفسها قرر أن يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون أساليب الزيني، وما يستحدثه من بدع، في الشهور الأخيرة، لا ينكر زكريا إعجابه الخفي بخطط الزيني وتدييره، زكريا يقدر الناس حق قدرهم مهما بلغ كرهه لبعضهم، كبير البصاصين في بلاد ابن عثمان مثلاً، عدوه الأول الآن، لم يره قط، لكن عنده أوصافه كلها، ومزاجه، درجة عشقه للغلمان والنساء، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر، في ديوان السر دفتراً كامل عنه، كأن زكريا صاحبه دهنراً طويلاً مع أنه لم يره، زكريا يراه بصاصاً من أعظم البصاصين قدرة، منذ عامين أنشأ فرقة خاصة، بعضهم يتحدث بلسان العثمانلية، كأنهم ولدوا في القسطنطينية نفسها، قسمهم إلى فروع، منهم من اختص بتاريخ أبناء عثمان وأمزجتهم وأحوالهم، آخر تخصص في أمور الجيش العثماني وما يستجده من أسلحة، زكريا يقدر تماماً كبير بصاصي الدولة العثمانية بعد ثبوت أمر قاطع كحد السيف وهو إتصال عدد من أمراء المماليك بدولة ابن عثمان، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجاً شديداً، ليس لوجود مماليك يتصلون بابن عثمان، هذا طبيعي، سهل اكتشافه، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانيين هذا فلا يستحق منصبه، زكريا انزعج لرتبهم، منهم مثلاً خاير بك، وهو من أشد الأمراء قرباً إلى السلطان، زكريا لم يبلغ السلطان لا بد من جمع أدلة أكثر، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك

لكنه لم يعثر على إشارة، إذن توجد طريقة خفية تغيب عن بصاصبية حتى الآن يرأسل بها العثمانلية، الأدلة كلها شفوية، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة، سيبقيها زمناً تحت يده، ربما تحيى لحظة يشهرها سيفاً فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق، خاير بك تقرب جداً منه، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جداً من ابن عثمان، لكن لا بد من التلويح لخاير بك بالأمر، زكريا يحوم حولهم، صحيح سيأخذون حذرهم، لكن لا بد أن يعلموا، زكريا يعرف ويسكت، ثمّة فكرة بعيدة في قرارة العقل - من يدري ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيّاً، زكريا يكره طفو الخاطرة إلى وعيه، يكره ما وصلوا إليه من خيانة أستاذهم، والبلد التي رضعوا خيرها حتى صلبت عظامهم، يقدمون ما فيها مطبوخاً جاهزاً ليأكله ابن عثمان، هذا جرم يعلم به زكريا، قليلة المعلومات التي تثير في نفسه شعوراً معيناً بعينه، طالما تمنى دخول واحد من أمراء ابن عثمان في خدمته، سيرحب به، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره، لكن حتى الآن، يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانيين في هذا، ضم من عنده أكثر من أمير، وزكريا لم يضم أميراً واحداً مشابها لخاير بك وغيره، عندما وصل إليه ما يفيد بإجتماع الأمراء الباغضين للزيني، تساءل عما يريدون، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره، ما يسعى إليه بتأن عظيم لكن الخلاص من الزيني لا يتحقق بضربة خنجر، ولا سائل يدس في طعامه، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد، أو فوق مدق زراعي بدمياط، أبدأ، الزيني تحدى عمره، ما أسهل أن يتخلص منه الزيني بنفس الطريقة، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا، عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه، قتله، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق يأكل وجباته ويصاجع نساءه، يقتله، لكن يبقى على حياته في الوقت نفسه، هذا أشق وربما استفذ عمراً، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا، رجل مثل الزيني لا

يجود الزمان بمثله، زكريا يزن قدره تماماً، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو، راح زكريا يرقب الأمراء، أطلق البصاصين في ركاب كل منهم، كيف سيتخلصون من الزيني، الأذان تنقل إليه أحاديث القاعات المغلقة، العجائز يسعين إليه بالأخبار، تزايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزيني الأمير أزدمر الصغير، تعهد باستخراج مائة ألف دينار ذهباً منه، فيما بينهم قالوا، لو تركنا يفعل ما يشاء لدار علينا واحداً واحداً، نفضح في عيون العامة، وتنزل هيبة المالك في مصر. وتذهب حرمتهم. أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي. خرج متخفياً إلى بركة الرطل. وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية إلى بلاد الصعيد. عند باب الفتوح. تلكأت خطواته. كيف قرر هذا؟ أحقاً يمضي إلى الزيني يحذره من القتل؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في بيت يحده زكريا. يبت حوله العيون والأرصاد. في الوقت الذي يرصد فيه حركات الأمراء وسكانهم. لا ينسى ما ألحقه الزيني به من مضايقات. هل ضعف أمامه. أليست فرصته؟ أبدأ هذه طريقة سريعة للخلاص. إذا ما ذبحه الأمراء فسيبكيه العامة. ويتحسرون عليه. سيخطو بينهم ميلاً أكثر من خطوة حياً يرزق. عندما قام الأمير طيغنا في زمن الناصر بن قلاوون. ونادى بالعدل وصار ينصر الفقير على الغني. ضايق الأمراء مضايقة شديدة. دسوا له السم البطيء، لم يخف الأمر على العامة. بكوه بكاء مراراً. لطموا الخدود. شقوا الثياب زمناً. صاروا يقولون في كل صغيرة وكبيرة. لو طيغنا موجود بيننا. حتى عندما قام كبير البصاصين في ذلك الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تدم فيه. إزداد العامة تمسكاً به. صنعوا له بلاليق من الحلوى، تباع في المالد ولا تزال بلاليق طيغنا ترص في دكاكين الحلوى كلما أقيم مولد لسيدنا الحسين، أو سيدي إسماعيل الإمبائي أو سيدي الليث، أو أي ولي آخر، لكن

الأمراء أغبياء مناكيد لا يدركون هذا، هل ألحق الزيني ضرراً بأحدهم كما ألحق بـزكريا؟ زكريا لا ينسى أبداً ليلة تجمع الأدلة القاطعة حول أمر طال تردده في قبوله، رفضه الاقتناع بصحته، ليلتها دخل عليها القاعة مكروش النفس، مبهدل الثياب، وعندما واجهها في ضوء النهار الخائن المتسلل من ثقب المشربية، أيقن صحة ما تردد في الاقتناع به، عرف أنه . خدع، هذا شعور لم يطأه من قبل، حتى عندما بدأ بصاصاً صغيراً ينقل كافة الأخبار، كل الأدلة لم تقنعه لكن نظرة عينها في تلك اللحظة أنهت التردد، ذبحت الشك، وتذكر بصاص مصر الأعظم الكازروني عندما أمسك بأحد أمراء الظاهر بـبرس، وفصل أعضائه عن جسمه مبتدئاً بذكره، أطال عذابه حتى لفظ الأمير روحه في خمسة وأربعين يوماً، بدأ بحلق شعرها الناعم المتسلل كالحقد في عروقه، شوه الوجه، حتى لا يرق القلب لتضاريس العمر البكر، أدخل سن خنجره المحمي فيها أداره على مهل، لم تتحمل فخمدت أنفاسها بعد ليلة واحدة، حزن عفى أوغل في قلبه، والحزن إذ يعرف الطريق إلى قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة، لام نفسه إذ تسرع بقتلها، لكنها لم تحتمل أبداً، بالغ في تعذيبها، كان لا بد أن يعرف منها، أين ومتى نفذ إليها الزيني، واستطاع ضمها إلى صفوفه، أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع، كان لا بد أن يعرف منها أية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزيني، قال مقدم القاهرة، جماعة الزيني هذه اما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ إليها قط، أو غير موجود بالمرّة، زكريا يثق من وجودها، وإلا إلى أي الناس تنتمي «وسيلة»؟ فعلا تسرع في ذبحها، هل يوجد آخرون في البيت يسهلون اتصالها بالزيني، كيف كانت تنقل المعلومات إلى الزيني، لا بد من رصد أهل البيت، مراجعة المرات التي خرجت فيها وسيلة، محاولة التعرف على دكاكين القماش والعطور التي قصدها، مع أي الباعة تحدثت؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه،

أمر «وسيلة» يجب ألا يشيع، سبة في تاريخه. سيصير نادرة لبصافي الأزمنة المقبلة، آه، لا بد أنها أخبرت الزيني بطريقة نومه معها، قشعريرة سرت في ظهره، كأن الزيني ثالثهما في كل خلوة، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية، من يدريه، ربما واحدة من حريمه الآن على اتصال بالزيني، كلما خطر له هذا لا يقربهن يتراجع عنهن، هل الحق الزيني أذى بأحد مثلما ألحق به مع هذا يطرق بابه ليخبره بما دار بين الأمراء، ليحميه، عندما يقدم على حمايته يسن نصلاً خفياً، نصل لا يثني، إلى قلب الزيني، قابله الزيني بذراعين مفتوحتين، بدأ الحديث عن أمور تحدث في الأزهر، مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حق السلطان، بل يتحرشون بسمعة زكريا والزيني نفسه، قال الزيني «سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبين، وبهذه المناسبة ما أخطر أخبار هذا الولد. . . اسمه. قال زكريا (سعيد الجهيني) صاح الزيني «تمام. . . تمام. . .» ابتسم زكريا «لا تفوتنا حركاته، نحن أدرى به من نفسه، بعد زواج حبيبته كان حزينا جداً، قلنا أنه سيلقي نفسه في النيل، أو يشرب فصاً ساماً، ثم بدأ يكثّر من الخلوة إلى نفسه في مقهى حمزة، أحياناً يجلس معه واحد صاحبه، منصور»، تساءل الزيني «منصور؟» قال زكريا «منصور الركابي، عندي معلومات كافية عنه، انه أكثر تعقلاً من صاحبه، ويحيى منه الخير. . .» أشار الزيني بيده «المهم. . . لنرجع إلى الولد سعيد» قال زكريا «إدمان الدخان، والمشروب الجديد الذي وصلنا من اليمن. . . القهوة، وبعد زواج حبيبته بشهور بدأ يتردد على بيت سنية ابنة الخبيزة. . . يروح هناك كل يوم ثلاثاء، ولا ندري السر في هذا» مال الزيني وأسند ذقنه إلى يده، «كثرت إطلاقات رجالك في أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته، إنما إشعاره أن هناك من يرصدها. . .» هز زكريا رأسه «فعلنا ما هو أكثر. . .» أمرت رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سباح بصوت عال، كاد

يجن . . » ضحك الزيني « عال . . عال . . واخبار الصلاة » ابتسم
زكريا، « يدي قبلة الشفاء . . » تزايد ضحك الزيني، إسمع يا زكريا لا
بد أن تحتل مكانه في قلوبهم أكبر، غداً إركب حصانك، دع رجلا من
رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك،
ليضرب الثاني الأول ضرباً فظيماً، وطبعاً يتصادف عبور موكبك هنا
ترجل أنت أنصف الفلاح واقتض على المملوك، أكثر من أشباه هذا
يجيبك الله إلى قلوب الخلق، وعندما يصل البصاصون يجدون لأول مرة
في تاريخ الإنسان بصاصاً عظيماً لا يتقن عمله فحسب إنما يحبه الخلق،
ويحترمونه، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان . سكت زكريا،
الفكرة أعجبت كاد يشي ما جاء من أجله، هل يدرك الزيني غرضه فآثر
شغله بالحديث، هل يؤجل الحديث عن الأمراء، وإذا جهل الزيني
قصة مجيئه، سيضطرب ويحار، ويتساءل عن السبب في مجيء زكريا،
تأخذه ظنون شتى، غير أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء
خافت من شمعدان وحيد، « أنت يازيني ستقتل . . »، أصغى الزيني،
بعد يومين، عندما تحول زكريا في حديقة بيته، تراءى له وجه الزيني،
ثم قيامه المفاجيء، عناقه لزكريا، لمح فعلا دموع التأثير في ركني عينيه،
قال « مثلي لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا »، في البيت لاحظ زكريا ميلا
خفيا إلى الزيني، خاصة بعد قبول الزيني الذهاب إلى المواضع التي
حددها زكريا، ونومه تحت حمايته، لكن، هل يصفو قلبه تجاه الزيني،
أبداً . الاستلام أو الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعددها زكريا
لنفسه، حتى يؤكد لنفسه ثباته على قراره القديم، بدأ في استنبات بذور
مشروع قديم مدفون في عقله، أرسل في استدعاء « أبو الخير المرافع »،
أبو الخير بصاص قديم عمل زمناً في أقصى الصعيد، منذ أيام وصل
القاهرة، يقول متباهياً، في حياتي خربت عشرات البيوت، هدمت
عائلات ما ظن أحد قط أنها ستهدم إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا

بد أن يطرحه أرضاً. خاصة إذا وصل إلى عمله استقرار أمر هذا الإنسان أو فرحته بعياله وامراته، يهوي إحالة الفرح حزناً، والسرور قهراً، والغني مذلة، دؤوب في اغلاق البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم، يرفض طرباً لحظة طلاق امرأة، زكريا يتأمل وجهه المسحوب، حذبتة، ينظر إلى نفوس ظهره، عيناه تنظران إلى فوق دائماً، من لحظة إلى أخرى يدفع أبو الخير الهواء إلى أنفه، كأنه يعاني ضيقاً، يتساءل عما سيحدث في اللحظات التالية .

يا أهالي القاهرة
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
ينهي إليكم
الزيني بركات بن موسى
متولي حسبة الديار المصرية
ووالي القاهرة
والمحدث عن الوجه البحري كله
أنه سيخطب يوم الجمعة
ويكشف للخلق في أركان الأرض
حقيقة الحال، وسر ما قيل وما يقال
فإذا شئتم الاطلاع على الحقيقة
فاذهبوا إلى الجامع الأزهر
يوم الجمعة
بعد الصلاة..

مقتطف «ح»

من مشاهدات الرحالة البندقي ، فياسكونتي جانتني ، الذي وصل القاهرة للمرة الثانية عام ٩١٧ هـ وأقام بها ثم رحل إلى الشام وبلاد الحجاز ، ثم عاد إلى القاهرة ، وأقام بها ، وفي هذه المرة كان قد تعلم لغة أهل البلاد ، فلم يعد بحاجة إلى مترجم عربي .

«لم أرتد ملابس تاجر تركي ، خاصة والأهالي والشرطة يتعقبون كل عثماني ربما أمسكوه ، يسلمونه في أحسن الأحوال إلى كبير بصاصي الدولة ليعاقبه عقاباً مريئاً ، ليقر أي معلومات كلف بجمعها وإرسالها إلى ابن عثمان ، نزلت ممسكاً عصاً قصيرة أدفع بها أذى الكلاب عني ، رأيت المدينة تغلي . من النادر جداً تواجد الأهالي خاصة النساء بعد العشاء في طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التي يشرف على نظامها رجل قوي ، متمسك بالدين وفروضه ، له هيئة عظيمة عند الناس ، وهو محور هذا الغليان ، أقصد الزيني بركات . لم يعمر رجل مثله في وظيفته مع أن الأوضاع هنا سريعة التقلب وهناك من يتولى منصباً في المساء ليخلع في الصباح ، رأيت المشاعل معلقة أمام الدكاكين فقط ، رأيت عجوزاً يجلس بجوار جدار قديم ، أراه في الليل والنهار ، لا

يرعش طرفاً. كأنه يروز حجري على هيئة إنسان وأذكر أنني رأيته في زيارتي السابقة، لا يتغير بودي لو أرقبه، أعرف متى يأكل، متى يفك قبضته عن العصا، امرأة بدينة تجلس أمام قفص كبير، فوقه البقدونس والجرجير، رجل يبيع حلوى لذيدة الطعم من الدقيق والسمن والسكر، يجيها أهل الشرق، إسمها بسبوسة، إشتهر في القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها أذكر منهم رجلاً قصير القامة أعور قبل المغرب يخرج من بيته إلى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون يقف جامداً، يتوافد إليه الناس رجالاً واطفالاً ونساء، لا يزق أحدهم، إذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه، هنا ينظر إليه ويشير إشارة واحدة موجزة «إمش. .»، ولا يمكن أن يبيع له أبداً حتى لو تردد عليه مرات، وعندما يقطع البسبوسة، يمد يده بسكينة قصيرة سلاحها عريض مثلث، حركات يده مرسومة محددة، كأنه يشكل الذهب، ينحت المرمر، تخلو الصينية إلا من فتات حلو متناثرة يلمع فوق طبقة رقيقة من السمن كالأشعة الصفراء، بالسكين يجمع الفتات، يلمه إلى حافة الصينية، في اللحظة التي ينتهي من تجميعه، يجيء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين، يمشي منسرباً لا حس له، يحمل طفلاً صغيراً لا يبكي، يعطيه البائع الفتات ملفوفاً في ورقة صغيرة، يضم الحامل الخشبي المثلث تحت إبطه ينصرف، أحببت الوقوف قريباً منه، أراقب يديه، وجهه الجامد، لم أذهب إليه بعد، محلات الأكل كلها مفتوحة، تسمع وأنت تسير أمامها اصطدام الأطباق والأوعية، تتصاعد روائح الطعام. السمك المقلي. الفراخ المحشوة بالبصل، السنبوسك. وهو نوع رقيق العجين. يشكل في مثلثات محشوة باللحمة. تقلي في السم حتى يحمر العجين. من بعيد. ترتفع أصوات. تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب. يصفقون. يكبرون مهللين. يرددون في إيقاع منتظم «ابن موسى. . ابن موسى» لم

أميز بقية ما يقولون . من آن إلى آخر ترتفع صيحات هادرة عن جماعة .
تبتعد كلماتهم شائهة مضطربة . تغيب فجأة سمعت من يقول . «ابن
موسى لا يأتي مرتين في زمن واحد» . رد آخر «لوجاءهم من يصلح
أمرهم لا بد أن يخلقوا فيه العيوب» ، العجيب أنني سمعت بالأمس
رجلاً عجوزاً يقول عند دكان عطور قديم في الحمزاوي «ظهر ابن
موسى علامة من علامات خراب الدنيا . أنا أعرف عنه ما يقشعر
الأبدان» لكن الحضور نظروا إليه ، سكتوا لحظة . تسابقوا في الثناء على
ابن موسى . كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوماً . ينفون استماعهم
إلى العجوز . أي أمر محير هذا . لم أر مثله في أي البلاد . الناس تحب
شخصاً بعينه ، كل لسان يحمده سيرته ، يثني عليه في الوقت نفسه يسري
شيء خفي . شعور لا يبين في الأرواح والجهاد رهبة خفية من الزيني . لا
تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية ، هذا أمر حيرني فعلاً وأربكني
سمعت طبل المنادي ، إذن سيخطب ابن موسى في الناس غداً . المدينة
ساهرة ، لم أر فارساً مملوكياً واحداً ، عرفت من خادمي أن ضررهم بلغ
حداً فظيماً لا يحتمل منذ عام كامل ، الخروج بعد العشاء مغامرة ، أهالي
الحدارات يغلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها ، وعندما تزايد
الأذى ، طلع ابن موسى إلى السلطان وشفع في الناس ، قال : «الدنيا
ستخرب إذا استمر الحال على ما هو عليه ، من خطف نساء وذبح
أبرياء» واستجاب السلطان لرجاء الزيني وأمر بمنع المهاليك من مغادرة
ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص ، أمر بمنع أي
مملوك من ارتداء لثام حول وجهه ، لم أعاصر هذه الفترة في مصر ، لكن
أخبرني خادمي باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزيني
بركات ، ولم يحدث هذا لأي إنسان من قبله ، حتى أمر ابن موسى بمنع
هذا . أخبرني خادمي بذبح ثلاثة شبان في هذه الفترة بسبب ذمهم ابن
موسى ، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزيني

مشكوك فيه، هو الذي أثار الممالك، حتى يطلع إلى السلطان ويشفع في الخلق، وعندما يمنع السلطان ممالكه، ينادي ابن موسى بالكف عن الدعاء له. رجعت إلى بيتي وفي رأسي دوار. بلا شك هناك أمان يعيش بين الناس وادعوا. لم تفارقني ضجة الناس، لهوهم. في اليوم التالي قمت من نومي مبكراً. صعب علي دخول الجامع. لو فرض وأمسكوني سأطلب عون الزيني. ما من أجنبي خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل إسمه والناحية القادم منها. هذا نظام جديد لم يتبع في زيارتي الأولى. لو سألتني عما أفعله في المسجد سأخبره بطوافي. برغبتي في رؤية الدنيا. ابن موسى سيفهمني. لا بد من لقائي به هذه المرة. لم أره إلا في موكب يوم مشيه في موكب إعدام سلفه بأغرب طريقة قتل رأيتها. الرقص حتى الموت. قلت لن يفوتني سماعه. فلأدخل المسجد. لمحت رجالاً يرتدون ملابس زرقاء ياقاتهما صفراء. يقفون بين المصلين. يرقبون حركاتهم. يزداد عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الأمامية وحتى آمن على نفسي جلست ملاصقاً لأجدهم لم أخطئ في القيام والركوع، أعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند والمعابد والعادات التي لا تنتهي، بين الناس سرت مهمة. دوائر تتسع تتسع بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة، تعلق العيون بالمنبر الخشبي، وفوق السلالم الخشبية طلع حاكم القاهرة، محتسب الديار المصرية، الزيني بركات بن موسى، أصغيت مرهفاً، حديثه عامي اللهجة، وهذا يخالف الأصول على حد علمي، اضطرت إلى إحاطة أذني حيناً بيدي حتى أسمع ما يقول. بدأ ليلاً ثم علا، سمعت مجيء الزيني إلى وظيفته، حرصه على إقامة العدل، وإقامة العدل في العالم أمر محبوب للبعض، مكروه لآخرين، كانت الفرصة مفتوحة أمامه. ينهب الأموال ويكسب اليواقيت. اللؤلؤ والمرجان كما فعل الأولون. وكما يفعل الآخرون. لكنه أبى خوفاً منه هو وحده (يقصد الله). وها هو لا يمتلك أكثر مما يقيم أوده. وقال انه تعهد

بتقديم المال عن جهات معينة. وتمكن من استخراج أضعاف الأموال التي تدرها هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان. أو يتضرر. لم يصادر فلاحاً فقيراً يعمل بها. لم يتسبب في خروج بعضهم عن بلاده، وضع حداً لهجمات العربان على بيوت الفلاحين، هذا ما تم في الريف، أما الضرائب هنا هل شكنا منها مخلوق؟ لقد ألغى العديد من الضرائب، وهنا تمهل صوت الزيني، استمع الناس إلى سر من أسرار السلطنة لا يجرؤ مخلوق على قوله. كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (وهنا علا صياح الناس، حماك الله. . حماك الله)، لقد شاعت رحمة السلطان وعدله أن يستجيب لشفاعة ابن موسى، فيلغي ما عزم عليه، (حماك الله. . حماك الله)، وما قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدراً رحيماً كصدر السلطان يتقبلها، وبعد نزول الزيني من القلعة، نزوله يوم سبت وسفره إلى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف الحديث وبدأ التأثر في لهجة الزيني)، سرى هياج بين الناس، لاحظت صدور أصوات من مكان قصي في المسجد، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يتقربون من بعضهم البعض، ثم يتفرقون، لكن ليقفوا في مواضع غير أماكنهم الأولى في الظهيرة، ظهيرة السبت طلع إلى القلعة هذا الرجل، ساعه الله أبو الخير المرافع، أبو الخير الذي خرب في عام واحد ثلاثاً وثلاثين أسرة، ابن موسى لا يذم أبا الخير، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك، الذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان، من أمره بهذه التفاصيل، من أوضح له حقيقة أبي الخير المرافع؟ انه نائبه المخلص الأمين، نائبه الذي يغار على العدل كما يغار على أهل بيته (أشار بيده إلى أول الصفوف) انه زكريا ابن راضي، وتناولت أعناق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فزعقوا (أبقى الله زكريا. أبقى الله زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد، يبدو

أن شغباً يجري . علا صوت ابن موسى ، رأيته يضرب صدره بيده ، أبو الخير المرافع افترى عليه ، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزيني بركات ، بعد أن يتسلمه ويجري عليه العذاب . (زعم الناس . . لعن الله أبو الخير . . لعن الله أبو الخير) . لكن السلطان بما أوتي من قوة بصيرة ونفاذ سريرة . هل يدري الناس ما قاله السلطان . أولاً . . أمر بزج أبو الخير المرافع في القيد الحديدي ، قال له هل تظن أنني لا أدري ما يمتلك ابن موسى . سأحكي لك حادثة بسيطة . عندما انعقد مجلس السمر الليلي . تأسف الأمير ماماي الطبردار (أي حامل الطبر والفأس) . وقال ، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحداً من الأثرياء والمال عنده كاللؤلؤ يديره كيفما شاء لكنه جاءني . وكان مضطرباً زائع العينين . طلب مني قرضاً قيمته . . تساءل السلطان عن قيمته . تأسف السلطان ثانية وقال خمسة دنانير . . أي والله خمسة دنانير . قال السلطان ، هل تظن شخصاً يرسل في طلب قرض كهذا تستطيع استخراج آلاف الدنانير منه . لماذا ستون ألف دينار . آه . . ابن موسى أدخل إلى خزائني آلاف آلاف الدنانير . لم يأخذ منها درهماً لنفسه وعندني عيوني التي تخبرني بكل كبيرة وصغيرة في بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد ، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتاً . . رأسه مطرق ، يدها تضمهان طرف عباءته السوداء . وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت ، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلي يروحون ويحيثون . ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر إلى أعلى . أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المثانة الجديدة التي بناها السلطان الحالي هنا ، تشبه مثدنته ذات الأربع رؤوس والمنبتقة من جامع الجديدي في أول سوق الشرايشيين . هذه المثانة أدمنت النظر إليها . المرور من تحتها . يتساقط فوق روعي وهج رخامها الملون .

عصور سحيقة أراها في الصباح . أعود إليها وغبار العصر يغطيها فألقى
منظراً جديداً . أجلس في دكان مشروبات قريب من الأزهر ، أرقبها
تغوص بقممتها ، برؤوسها الأربع في الليل ، حتى تندمج بظلامه . أخشى
عليها من ضياع . أرجع إليها من جديد . لم يتحدث ابن موسى إلا بعد
هدوء الضجة «أعذروني إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار
بيتي .» .

أنتم أخوتي . . يا إخوتي . .

هل سرقت واحداً منكم ؟؟

(تألفت الحناجر . . تسد الفراغ . .)

حاشا الله . .

هل أتيت فاحشة ؟؟

لا . .

هل ظلمت واحداً منكم ؟؟

وتدأخلت الأصوات . علت ، رأيت ابن موسى يشير بيديه ، عندما
هدأ الناس تقدم رجل قصير يرتدي قمصياً من الجلد ، أجهدت نفسي
محاولاً سماع الرجل ، لم أستطع عندما رفع ابن موسى يده كان هذا
الرجل يشكو ظمناً وقع عليه ، أحد رجالي ضربه لأنه كان يمشي حاملاً
قربة الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة للبلل ،
وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين ، وهذا يخالف الأصول التي
وضعها المحتسب بالنسبة للسقائين ، ومع هذا لا بد من رد حق
السقاء ، اعتداء رجل من رجال ابن موسى علي أي إنسان بضرب غير
شرعي . مرفوض . لن يقبله المحتسب أبداً .

«بعد الصلاة تعال عندي ، أخبرني عن المكان الذي مشيت فيه .
وسأحضر أمامك رجالي كلهم المتواجدين فيه . ولا بد من رد حقك
إليك» .

وفي لحظة بعينها، قبل تهليل الناس، انطلقت صيحة من أقصى المسجد. انطلقت في هفوة صمت،. تخللت حديث الزيني..
«كذاب...».

هنا لم يصدق ابن موسى، صوت نشاز، لم أخف تعجبي، الحق أني لم أر مثل الرجل طوال سنين عمري التي قضيتها راحلاً عبر البلاد، تزايد إعجابي بابن موسى، عندما عاد إلى إطرافته، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء، لمحت ضيقاً خفياً حل به، طبعاً لا بد أن يضيق بهذه الصفاقة ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه إلى الناس، مرة ثانية أشار بيده إلى الصف الأول، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا بن راضي (دام زكريا.. دام زكريا) هو الذي قبض بنفسه على أبو الخير المرافع تسلمه وحبسه، لا لأنه طلع وترافع في حق الزيني، ابن موسى فكر في العفو عنه، يكفيه معرفة السلطان بالحق وأهله، لكن الشهاب الأعظم سيذيقه ما أذاق الآخرين، ابن موسى لن ينثني، لن يتراجع عما يراه عدلاً، السلطان معه. وقلوب الناس تحميه، فليأت أعداؤه بما يشاءون. كل ما يرجوه، أن يمضي إليه صاحب المظلمة وإذا ثبت أنه ظلم مخلوقاً، سيقبل أي قصاص يقع عليه كأي مخلوق. (علت ضجة من نفس المكان الذي انطلقت منه الصيحة). بدأ ابن موسى في نزول درجات المنبر الخشبي. صاح البعض «الله أكبر. الله أكبر. الزيني. زكريا. قواك الله وحماك»، دق بعض الدراويش كتوساً نحاسية وضاعت الأصوات التي علت تشوش على الزيني.. لم أخف بهجتي. وازداد إصراري. لا بد من لقائي به قبل سفري..

يا أهالي القاهرة
نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر
اليوم نبشركم
بقلع السلطان الصوف الأسود
وارتدائه اللباس الأبيض
مع دخول الحر
يا أهالي القاهرة
أمر الشهاب الأعظم، زكريا بن راضي
نائب محتسب الديار المصرية
نائب والي القاهرة
بشنق أبي الخير المرافع
وسوف تبقى جثته ثلاثة أيام
عبرة لمن اعتبر
ودرس لمن جاء ومن غبر
يا أهالي القاهرة
ممنوع على دكاكين المشروبات، والحلوى

السهر بعد العشاء
ومن ضبط مخالفاً
عوقب بخمسين جلدة
يا أهالي مصر
جاءت الأخبار
بوقوع معركة
بين فرساننا الأشاوس
ورجال ابن عثمان
وقتل فرسان سلطاننا
أربعين فارساً عثمانياً
وهذا أول دم يسيل
فانتبهوا يا أهالي مصر
يا أهالي مصر

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر من مولانا السلطان
بتعيين الزيني بركات بن موسى
ناظراً للدودخاناه
ونائباً للدوادار الكبير
الأمير طومانباي
فلزم التنويه والتنبيه
يا أهالي مصر
من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة
يقع بالكلام في حق السلطان
أو حق واحد من الأكابر

عليه بإبلاغ الأمر
إلى نائب الحسبة
الشهاب زكريا بن راضي
وله الجزاء، والمكافأة
ومن سمع وسكت
قطع دابره بغير معاودة
فاعلموا
واعوا. .

في القلب جراح صعبة الاندمال، النفس غابة أسنة وحراب،
مرشوقة لا تنتزع، لا سد يوقف الأسى المثال، يدوي الأول والآخر،
يضيع المثني والمفرد، التاء المفتوحة نهاية النهاية، موت الآمال وليد فراق
الأحبة، أما الأماني فتتأى، في أول العمر يهتف خاطر خفي دفين،
جيبك لم تدركه الغضون، صدى وسوسات النجوم. يشد الأرض إلى
السماء. قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى. لكن صبراً. مهلاً. بعد
سنوات ستجيء الأيام السعيدة. لن يستقر الأمر على حاله. أول العمر
يغمض عينيه فيرى أياماً مقبلة. وريباً فتياً يخرج الخلق بمأمن من عبث
المهالك. لا يدركهم خوف من هجوم المنسر. أو كبسة مفاجئة من
بصاصين يسعون في أثر إنسان. لا يحب الإنسان مرتين. أول من يخفق
لها القلب. لا تنفي ضرباته. لا تصرع خفقاته. لا تنتزعه من الصدر
وتسلمه إلى منقار طير جارح. يلهي به أفراخه الصغار. في الزمان
المرتجى أطفال صغار لا تعرف لغاتهم لفظ الخوزقة. قطع رقبة. وباء.
في الوجوه صفاء اعتاد رؤيته في وجه مولاه الشيخ أبو السعود. لن
يطول انتظار هذا. يقول لنفسه خمس سنوات.

خمس سنوات لا غير. وتغضي الأيام وتنتأى. يسأل ملئناً. ألم تمض

السنون الخمس؟ ربما بعد خمس أخرى، أبدأ، أبدأ. حتى أمنيته العذبة. أن يصبح له سكن مستقل يغلق ضبة بابه. دورة مياه لا يشاركه فيها أحد. حتى هذا صعب ومحال يقول منصور صاحبه: جئنا إلى الدنيا وسنمضي عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك آخرين يأملون في قدوم الأيام السعيدة. يا سعيد لماذا نخدع أرواحنا؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر. يا سعيد إنما نأتي شيئاً إمرأ. بعد خمس ثم خمس أخرى. الأصابع تنثني لا تلاحق ما يمضي. وسبع وعشرون سنة مضت. عطن الدنيا أبدي. عبث الجان بالخلق لا ينتهي. الظلم كثيران المجوس لا ينطفىء..

الطريق إلى بيت الشيخ ربحان لا يعرفه الآن. في الأيام الضائعة انغلق. ضبة المفتاح تلغ في قلبه. قال منصور. في الزمان دواء عظيم اسمه النسيان. أحياناً تمضي أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى. يهتف باله المكدود. ها هو الدواء يسري لكن في لحظة بعينها. أي وقت من أوقات النهار أو الليل. ربما في جلسته الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير. في رشفة معينة من كوز الحلبة. في صحن الجامع عند إصغائه إلى الدرس. فجأة يحط عليه ثقل عظيم أوردة قلبه يندفق منها دم معتم يظلم الروح. يذكر لحظة بعينها تنفر آلامه جاعحة. يهب واقفاً. ما العمر إلا حلقات نحاس محمية. تكوي النفس. ما العمر إلا ذكرى طويلة أليمة. تذرته. تزملة. ترى في أي الأفلاك منقذه؟ أي العوالم الأرضية تخفيه؟ أي النجوم تخفف البلوى. أو تنبئه بها قبل مجيئها من بعد قصي. أي قمقم يغوص فيه هرباً من عصره. من دنياه لا يفتح إلا في الزمن السعيد الآتي. يفتحه صياد بسيط فيخرج منه شعاعاً. يخرج منه روحاً وصفاء. يهب الحياة. والحب الضائع. يأويه الصياد،

تضمهما الأبدية. لا يضل الطريق إلى من أحب. أما زمانه هذا فلا يقبل ما يجود به القلب الحنون. لا يحفف دمة أم على إبنها القليل. لا يبدد الهجر. لا يحبي موات الأمل. لا يحفف الجراح الطرية. أبداً. أبداً. يقول سعيد. ستأتي الأيام السعيدة. يصبح منصور. متى؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر العنيد؟ يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجي. حتى لو أتانا الحبيب المصطفى. وحاول ملء الأرض عدلاً وسلاماً. من بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. يا سعيد أنا مقطوع الأمل من المهدي المنتظر. لو قام ناطق الزمان. لو ظهر. لو جاء من الكعبة يشهر سيفه الذهبي. سيتصدى له زكريا. سيحرمه دخول الديار. سيقبض عليه ويرميه في المقشرة. المقشرة الوحيدة في الدنيا. الحقيقة الأولى والأخيرة هي المقشرة. المقشرة. وما عداها باطل. لا بل والشهاب والزيني وسنية إننة الخيضة. آه، يصغي سعيد كثيراً إلى منصور. يتأمل كلماته. يلفها. يقلبها ويعدل حروفها، منذ أيام طلع إلى المتذنة الجديدة، رأى السواد يلف المدينة لا حس في العلو الشاهق، الفراغ بحر بلا قرار، خال من المحار والأصداف، رأى نفسه وحيداً، أول الخلق في الدنيا، رأى نفسه ينتزع ضلعاً من ضلوعه، تجيء سماح، حلقه ضاق لعبه، وأنفاسه، أرسل ألماً كالصنهد، شفت روجه وخفت، تحررت من أسر الجسد، علت، جناحها دموع صافية، نجوم الأعالي خرساء، تقول حديثاً خفياً غير منطوق، لا يسمعه مخلوق، آه، أليس على حق إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة، تزلزل الأرض زلزالها، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخيرو باطنها الأذى، سداها الشر ولحمتها الضرر، يؤمون الصلاة، يعتلون المنابر، أرسل دمعاً صادقاً، كطلوع النهار، رأى بعيني عقله سماح الرقيقة، التي تساءل يوماً، أحقاً تمضغ وتأكل، وتأتي ما يأتيه البشر؟ رآها عارية تماماً، يخور فوقها لوطي عاري المؤخرة، يصول ويجول في أرض كانت حراماً، يحرق عشبها،

يجتز التين والزيتون، يحصد غلتها، يطفئ وهجها، تذكر يد سماح،
يدها الصغيرة، رقيقة كهمة، كبيت شعر أتقنت صياغته، احتواها في
يومه اليتيم الناسك، عند خروجه معهم للنزهة، شم النسيم، هذه
اليد الرقيقة لا بد وأن تتحسس الظهر الخشن المنحني فوق النبع
الغزير، أما الشيخ ربحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء الأكابر،
ليلة العرس همس إليه الأمير سودون، ضحك الشيخ ربحان، جاءه
بعدها الزيني بركات، يسأله عما قال الأمير سودون، ضحك الشيخ
ربحان ضحكة متواضعة وبسط راحته فوق صدره، «أعفني يا زيني من
البوح بما قاله، لا أبوح بما استوثقني عليه» ضحك الزيني، قال،
أتعرف أنها المرة الأولى التي يميل فيها الأمير سودون على إنسان ويهمس
إليه بسر، طاش عقل الشيخ ربحان، طغت عليه الفرحة، لبنته زوجة
لنجل أمير قديم، في عروقه تجري دماء الأمراء والعظماء والأكابر، آه،
أي فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار؟ أي نفس خربة، معطبة
بضمها بين ضلوعه، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين.

لا يبالغون في إخفاء أنفسهم، يجهلون بالظهور أمامه، يعبرون
الطريق أمام دكان حمزة. كثيرون يروحون ويحيثون، لكن سماتهم الخفية
لا يخطئها إنسان، ربما ظهروا فجأة، ربما في هيئة عجوز فلاح فقير يمشي
الهوري، نظرة خاطفة من عينيه، تشي بحقيقته، تقول من هو؟ ما الذي
دفعه إلى المرور من هذا المكان بالذات؟ ربما امرأة شابة، ربما عجوز
بلغت من العمر قصيا، الأطفال حتى، أطفال لا حصر لهم ولا عد
يخدمون الشهاب، يفسد الإبن على أبيه، لا يصدق إلا شهادة الطفل،
من هودون الخمس سنوات، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل،
سعيد لا يمشي مع صاحبه منصور، سيقفون أثره، يجهدون أنفسهم في

النفاذ إليه، سعيد يعلم تماماً، حركاته ترصد، أنفاسه تحصى. يتحدث كثيراً في الرواق في المسجد ربما فسروا حديثه. أضافوا إليه ما لم يقصده. الغريب أنه سمع بعض المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهاراً. قال. ربما من البصاصين. لكنه سمع مجاوراً شامياً من أهالي حلب يقسم بصحيح البخاري. أن الأمير خاير بك يرسل السلطان العثماني في الباطن. يخبره بأحوال الخلق في الشام ومصر. ينقل إليه الصغيرة والكبيرة. وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى. في العيون حيرة. أي بلاء قادم. أي مصائب تحوم؟ ما أدهش سعيد. ليس اتصال خاير بك. بالعثمانية. ربما فكر في واقعة كهذه، أمر قريب عن لا أهل له ولا يد. لكن ما روعه. اللهجة التي قيل بها الكلام. أي الخواطر تركب عقولهم. في وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل الفادح. لا أحد يعينه عليه. حتى منصور صاحبه. إذا سئل عن أصحابه وزملائه. قال لا فائدة منهم ترجى. أتاهاهم الممالك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم إلى طواشية لم يعرف مثلهم على مر الأزمان. طواشية ينجبون خصياناً. يعمرن بطون النساء. لكنهم بلا ألسنة. معلمهم بصاص. ومربيهم سنية إبنة الخبيزة. الآن يسمعون يجهرون بما يتردد هو في التصريح به. ما الذي جرى؟ هل أدركته الشيخوخة. هل يمتد مشفر الموس إلى فؤاده. إلى وجدانه. إلى لسانه. يروح بين حلقاتهم ويحيى. يصغي. الأخبار تدور. رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان، يهددهم، انتهك حرمتهم، خلق شر كبيرهم الأمير مغلباي وشكه في الزناجير. كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانية فيه، الحرب أمر لا جدال فيه. قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة. الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم. جان بردي الغزالي. يسافر إلى نواحي الشرقية يلعب بالسيف في رقاب الفلاحين، يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجلث، موت رجل عبوز كان فريداً في صنع البسبوسة، بموته اختفى صنف لا يعوض، لم

يعط سره لإنسان، الزيني بركات ينوي الخطبة في الناس، هل تعرفون، ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبو الخير المرافع إلى السلطان وطعنه في الزيني.

الجامع يفيض بالمصلين، عبير الوضوء والخصير القديم، يطلع الزيني المنبر، لحظة بعينها تحيي فتغير كل شيء إلى مسار مخالف، فوق المنبر الخشبي يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم، ادراكه نهاية فرحته، يوم كامل تحدث اليها، لم تغب شمس، يراه الآن معطلا من الأمل، تضج في أذنيه الكلمات يصغي إلى أصوات العرس، ليلة أن ذبح ذبحاً ولم يفتده جبريل عليه السلام، لم ييكه قلبه، بل هام كالأبرص، يرى الدنيا ثقباً ضيقاً، تقدم له جرعة ماء، عندما حالوا بينه وبين الجري، سفكت دماؤه فوق صحراء، أجتز البوح من صدره، الزيني يتحدث من فوق المنبر، ابن سيد الناس يتجر في القول كما يهوي، الشفاه تتسابق في تقبيل زكريا، لمس طرف عباة، الرجال أمام الدكاكين يهزون رؤوسهم، يضيئون عيونهم، يا سلام هل رأيت القاهرة رجلاً مثله، أنظروا إلى ورعه، إلى تقواه، لن يأت الزمان ببصاص كهذا، الزيني يخطب الناس، في صوته لين ومسكنة، هل سعي في زواج سماح، لماذا حضر العرس، بأي غرض؟ أين المرأة العجوز التي تطلع بين الناس، تصيح بكلمتين فقط في وجهه، منذ مدة طويلة لم يرها أحد، لم يسمع عنها مخلوق، ربما قتلها، ربما نفاها عن الدنيا، قالوا إنها تذهب إليه في المساء ويكي بين يديها أمام باب بيته، وإنها تخبره بما جرى وما سيجري، بما سيأتي به الزمن، لكنها الوحيدة التي تصرخ فيه، سعيد سمعها بأذنيه في أول موكب، منذ سنوات عندما رقص طرباً، مال فرحاً، الناس يضجرون بالدعاء، (حمك الله)، (دام

زكريا . . زكريا)، فليقل سعيد ما قالته هي، كتفاه تنوءان بحمل هم
عظيم، الحجارة تثقل صدره، لكنه لا يرقد في هجير مكة، لا تلمسه
نيران الرمال، لا يهتف كبلال، كعبار بن ياسر، أحد، أحد، مصرّ لا
يلين كزرد الحديد وعنف السلاسل، أحد أحد، قلها وأطلق صيحة
الشهادة، (عاش زكريا دمت يازيني)، ما الذي بقي ليحرص عليه،
زمن إمامه الزيني، وشيخه زكريا، ما الذي بقي ليحرص عليه، زمن
إمامه الزيني وشيخه زكريا، سدنته البصاصون، كاتم سره عمرو بن
العدوي، ليطرد كهولة ما قبل الأوان، ليسترد شباب العمر، ليرفع
المشفر الحامي عن اللسان.
«كاذب».

لحظة هينة طنت في أذنيه، ذوو الأردية الزرقاء والياقات البصفراء،
زرقاء، صفراء، نفذ السهم، وتجمدت اليد في الهواء، فوق المنبر.
«كاذب»

لا يخاف المهجير، لتغرقه نظرات الاستياء، السقائين، الحدادين،
المرخمين، البنائين، الفحامين، النجارين، الحبازين، البصاصين،
ليزحفوا إليه، هم لا يعملون، تتدحرج حجارة الصخر والجبل، لا
يهم، لو ذبحوا إبنة بين يديه. ولو، لو منعوا الماء عنه لو أخذوا الرأس
وعبثوا بالشفيتين. ولو سبقه الحسين إلى احتمال شرف العذاب.
«أنت تكذب. .»

أهو الصدى؟؟ أبداً. ربما. عجيب. محير. أصوات أخرى حز
الخوف فيها لكنها تنطق معه في حس موحد شهيد. .
«أنت تكذب. .»
«أنت تكذب. .»

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله. لكنه يعرف ما يجري. لم يَرَوْجِه سعيد ويعرفه تماماً. لكثرة ما قرأ عنه. يعلم أموراً تخصه لا يدري بها سعيد نفسه. يود لو أسرع الوقت حتى يراه. الوجه الذي قرأ كثيراً عن صمته. هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به. ما الذي يجعل وجهه صامتاً دائماً. لا يتحدث كثيراً. هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى في وجه إنسان أحيط عمره بقيود. عند الباب الخارجي سيقدم إليه نصف كوب ماء. يشربه معصوب العينين. أي تأثير يحدثه هذا؟ يقول الشهاب الأعظم. يجب أن تكون الخطوة التي يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حداً فاصلاً بين عهدين. عندها ينقسم العمر الواحد قسمين. بحيث يخرج الإنسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه في حقيقة الأمر شخص آخر».

كوم الجارح

جدع دومة قديم عتيد يحاط بسياح من حديد، مدينة وثنية ترجم
ناسكاً، بغداد الإسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور،
الحسين بن منصور الحلاج، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال، اللسان
الشهيد لا يكف، أنا الحق، أنا الحق. تعلق اليد الغليظة، ساعدها
مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد. يهوي السوط فوق الجسد
النحيل، أدرك صاحبه الأحوال والفروع، كلت يد الجلاد من
الضرب، قطع ذراعي الحسين ورجليه، الإبتسامة فوق شفتي العابد
الزاهد، توحى بالظاهر والباطن، وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا
يتوقف، لا يكف إنما يندفق من سخاء مبین، مال المشفر الحامي ليجتز
اللسان، في الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة أما الرأس فنفي
إلى خراسان، تجمعت بغداد، أغرقت الحسين بن منصور ما الزمان هنا
إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة النائية، ظل لزج لا يروح أبداً، الخير
مسكوب والشر باغ والعهر طاغ، إلى أي الأرجاء يأوي، إلى أي السبل
يلجأ؟ حيرة غير متوقعة، غير مرجوة في نهاية المطاف، سعيد أرجف قاع
روحه، أضاعوه، أصوات المدينة تتباعد، ما أحوجه إلى غيبة، إلى
إحاطة الروح بجدران الصمت إلى استرجاع الأيام البعيدة، ليدرك سر

الابتسامة الجهاد بيننا اليدان مذبوحتان والرجلان، يحاول لم الرماد،
يسأل الروم، أي سر، انصرف منصور تطارده أشباح الزمن الخائن.
منصور يرتعش، يرتجف، ربما جاء ليلتمس الأمان، لكن أي أمان، في
قفاه عينان لا يراهما مخلوق، تكبلان رؤيته، تحددان طريقه، منصور
نقل ما يقوله الناس «مولانا اختار الزيني وثبت أركانه، فأني شفيع له
يرتجي؟»، آه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضي، لكن إلى أين؟ حتماً
سيلقي المسيح الدجال، إلى أين؟ إلى السرداب الذي حفره بأظافره،
أهذه نهاية المطاف؟؟ آه. . سقط في كمين متقن، أعدده باغ بعناية.

مقتطف من مذكرات الرحالة الإيطالي

فياسكونتي جانتي

١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

فيما يبدو، قدر لي أن أشاهد خلال هذه الرحلة - الثالثة - إلى الديار المصرية، أحداثاً كبيرة، بعد وصولي من بلاد السودان بأيام ثلاثة، نزلت المدينة، عرفت خروج السلطان إلى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر، وقيل لي إن القاهرة إرتجت رجاً مهولاً يوم السبت وتحسرت فعلاً لوصولي بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصداً الشام، وحتى لا يفوت أهل بلادي وصف الموكب، وللأمانة فلنني أنقل عن صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس. وهو من أهل العلم المعروفين في القاهرة وصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية، أتمنى لو أتيحت لي فسحة وقت أعرف به أهل وطني، وحضر ابن إياس - برغم كبر سنه - خروج السلطان ودون ما رآه، وسمع لي بنقل ما كتب، يقول صاحبي، ابن إياس.

(. . .) أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة، وكان السلطان راكباً على فرس أشقر عال، بسرج ذهب وكنبوش وهو لا يس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة، وكان ذلك اليوم غاية في الأبهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، تملأ منه العيون، مبجلًا في المواكب، ثم أقبل السنجق السلطاني، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثماني وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش، فدخل من باب

زويلة، وشق القاهرة في ذلك الموكب الحافل، فارنحت له القاهرة في ذلك اليوم، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم، ولم يبق منهم إنسان في بيته، وبدت وجوههم مرعوشة تأثراً وانفعالاً، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان، فاستمر في ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوماً مشهوداً.

وفي أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه، فيها مال وذهب وفضة قيل أن ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجاً عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة، وفرغ أيضاً حواصل الذخيرة عن آخرها، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا، وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة، من سرج ذهب وبلور وعقيق، وكنابيش زركش، وغير ذلك من التحف الملوكية. فنزل جماعة من كتاب الخزانة صلبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش؛ فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملاً؛ قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغوري بقلعة حلب؛ وفي يوم الأحد سادس عشر أرسل السلطان منادياً للعسكر في القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر؛ (طبقاً للتقويم الإسلامي)؛ فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر؛ ولا يحتج أحد بحجة أو عذر؛ فلما أقام السلطان في الوطاق؛ وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب وأحوال الناس خلال سفره؛ فاستقر بالقاضي محمود بن أجا في كتابة السر؛ والقاضي علاء الدين بن الإمام في نظارة الخاص؛ والقاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان مستوفياً لديوان الإنشاء الشريف، والقاضي الزيني بركات بن موسى ناظراً كعادته للحسبة الشريفة؛ ووالياً للقاهرة ومتحدثاً عن جميع أنحاء مصر؛ وأضيفت إلى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.



السرداق الخامس ...

«اللهم أجعل هذا البلد آمناً»
سري لا يطلع عليه مخلوق

«رسالة أعدت؛ بمناسبة اجتماع كبار البصائين
في أنحاء الأرض وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة
أم الدنيا؛ وبستان الكون، لتدارس الأحوال؛
والنظر في الأساليب المتبعة؛ وما يستجد منها؛
ولتبادل المعرفة والفوائد أعد في ديوان بصاص
السلطنة المملوكية؛ وتلاه الشهاب الأعظم
زكريا بن راضي عفا الله عنه، وعرفه طريقه؛
ومسالكه».

القاهرة
جمادي الأول ٩٢٢ هـ

إِنَّ اللَّهَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

قال تعالى ﴿إِنْ رِبِّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾
قال تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾
قال تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾
(صدق الله العظيم)
وقال رسول الله ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً،
أوليسمت» .
وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه «الكلام كالدواء، إن أكثرت
منه فعل وإن أقللت منه نفع» .
«أما بعد» :

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا في أركان الدنيا أبداً، وهذا حدث جليل
وعظيم، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتماً ستلقى فيه من الدروس
والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبثاً ثقيلاً وحملًا فادحاً، وأننا عانينا،
وقاسينا، وضحيننا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى، جل شأنه، وما
نهدف من وراء لقائنا هذا، إلا استحداث طرق جديدة، وسبل غير
معروفة، تعيننا على مهامنا الصعبة، وهذا يساعدنا في الوصول إلى لب
الحقيقة، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا .

والله المعين . .

«نشأ بحكم عملنا، وما يتعلق به، أن يحيطنا وضع غريب، وهذا يتطلب من البصااص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها، حتى البصااص الصغير الذي يتعقب رجلاً أو امرأة، أو ينقل كل ما قيل في مجلس أن يكون صاحب فطنة وذكاء، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس آمناً، إنما لا بد من عيشه محبوباً ربما بدا هذا صعباً، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس وخباياهم - وهذا مكروه - أن يكون محبوباً؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم؟ لكن للحظ أولاً أمراً هاماً . .

مهمة البصااص - بلا لف أو دوران - إقامة العدل بين الناس، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس، وحيث أن كل أمر في الدنيا لا يتفق عليه اثنان، مثلاً، هذه القاعة التي نجلس فيها، البعيدة عن أصوات الدنيا، وضجيج أهلها، لا نراها جميعاً في هيئة واحدة، مثلاً كبير بصاصي الهند الأعظم يراني واقفاً هنا، وكبير بصاصي اليمن يراني من الجانب الأيسر، أما كبير بصاصي السودان المبجل فيراني من مكان آخر بصورة مغايرة، حتى التراجمة يروني بهيئات مختلفة وينقلون إلى حضراتكم حديثي ليس بنفس الألفاظ، إنما المعنى، ومن هنا تصبح لي أكثر من صورة، والحقيقة أن وضعي واحد لم يتغير، وحديثي يتغير على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو، وهكذا . . ما نراه نحن عدلاً يراه الآخرون ظلماً وجراً . .

البصااص لا يعمل من أجل نفسه قط، الغرض الأول والأخير، إرضاء سبحانه وتعالى، ثم يأتي السلطان بعد هذا، ثم أركان الدولة، وما دام البصااص مؤمناً بالله، بربه، مسلماً كان أو مسيحياً، أو بوذياً، ويؤمن بمولاه، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها، ورفع الأذى عنها . .

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه، لم يخلق هذا قط، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهداً من قومه، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب الهجير باطن قدميه، وسال دمه، ألم يتآمروا على قتله؟ ألم يحاربوه وتأكّل واحدة منهم كبِد عمه حمزة نيثاً، ومن قبل ألم يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك، ودقوا المسامير في جسده وصلبوه أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين ألغوه في البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بالآلام ومواجع، وهذا حال الأولياء الصالحين، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه، بما فيهم من خوارق واختلافات، وبالتالي. فإن حاكم أي بلدة من بلدان الله، لا بد أن يصبح مكروهاً من جانب آخر، والحاكم الأمثل من نجح في ترغيب الأغلبية فيه، وتقليل أعدائه، إذن، لا بد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون، ويتحينون الفرصة للانقضاض وهؤلاء إما من الخارج، أي مخالفين للجنس، أو الملة، وفي هذه الحالة لا بد من الالتفاف حول الحاكم ومهنة البصاص هنا مقدسة، ولا يختلف في هذا اثنان وإما أعداء في الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة، وبين عامة الناس.

* الدرس العظيم المستفاد من التواريخ، أنه في حالة اندلاع الفتنة فلا بد من حياد البصاص. البصاص يعمل للعدل وحده، ورمز العدل هو كرسي السلطنة، كرسي السلطنة ذاته.

* إذا تأمر بعض الصفوة، أو جماعات من العامة على الكرسي، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي، هذا واجب، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة، أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا إلى تقاليد التملك والسيطرة، ما هو موقف البصاص هنا؟؟

نقول ما دام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .

* ربما ثار سؤال ؛ هل يبقى الحديد على القديم ؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة ؛ يتوقف تنفيذها على مهارة البصاص وقدرته ، مهارته في النفاذ إلى جوهر المكنون وخبيايا كل إنسان ؛ وما دام الإنسان يشعر بوجود عين ترى منه ما تراه بقية العيون وأذن ، تسمع منه ما لم تسمعه بقية الأذان ، فإنه يخشى هذا الجانب ، ويضع له ألف حساب ؛ لقد ذكر لنا كبير بصاصي دولة المغرب المعظم أنه حدث منذ مائتي عام ، أن تعصب كبير البصاصين ، وقتل للحاكم الموجود ؛ بالغ في إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عدااء الأمراء والعلماء كلهم ، وعندما نجح أحدهم في إزاحة الحاكم ، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصاصين جانب الحياد ، إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد ثيقنه من قتل الحاكم ، وهذا عين الغباء ، تسبب في إيذاء جمع كبير حوله ، التصرف الأمثل هنا ، الصمت ومراقبة العامة ؛ حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع ، فينحازوا إلى جانب هذا أو ذاك نضع لهم آلاف الاعتبارات ، وسيتحدث كل منا عنهم في جلسة أخرى ، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسة عمله ، وإقامة ميزان العدالة ، وربما عدنا من هذه النقطة إلى نقطة أخرى ابتدأنا فيها ، كيف يكون البصاص محبوباً من الناس ، برغم كراهية الخلق لمهامه ، لعمله .

كيف يكون البصاص محبوباً من الناس ؟

من خصائص البصاص الأعظم ، البصاص الصفوة ، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم ، طبيعة البصاص تقضي عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس ، مع عدد كبير من الأجناس ، آلاف

البشر المختلفون في طبائعهم ونزعاتهم، لا يوجد شبيهه للآخر، والبصاوص الحق، البصاوص المكين، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين وهذا صعب، ربما يبدو محالاً، لكنه سهل علينا يسير، يجب على البصاوص أن يكون فحماً عندما يتحدث إلى الفحامين عطاراً نابغاً في العطارة عند حديثه إلى العطارين. ساخطاً عند استماعه إلى الساخطين. ، حشاشاً عندما يأتس بالحشاشين، خاطئاً عندما يسلك طريق الخاطئين. مستغفراً ثائباً عندما يسجد بين التائبين. راضياً مع الراضين. يجب عليه أن يتقل بين إظهار الكراهية والإعراب عن الحب في غمضة عين ولا بد أن يقنع في كلا الحالين. لا بد أن يتقن لهجة الأغنياء، متواضعاً يخالط الفقراء. سفيهاً محبباً إلى السفهاء. حتى إذا جالس النساء عرف طريقه إلى قلوبهن وعقولهن الناقصة. هذا ما نراه في البصاوص المكين. ومن أهم ما نقيس به مهارة بصاوص. هو اتساع علمه ومعارفه عن الأشخاص. كلما تبهر البصاوص في العلم، كلما جمع الأصول، وأتقن الفنون، كان أكثر قدرة على النفاذ إلى أحوال الدنيا وأسرارها، طبعاً هذا يستحيل على كل بصاوص. من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصاوص بالعلوم كالمتبحر فيها، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية، عن كل تاريخ وعلم وفن، فكرة خاصة الطابع، جليلة المظهر، من أجل هذا قمت بإعداد مناهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الإنسان، ندرسها في مدارسنا، لكي يستوعبها رجالي فتنمو قدراتهم، ولا تعجبوا يا أخواني البصاوص العظماء، يامن تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصاوص شاب من رجالي يمكنه مجادلة أمتن العلماء في أشد ما يمسه من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه، وطريقته تعتمد على الذكاء الجاد البوقاد، وأخذ به بعض الكلمات والأفكار من المتحدث، ثم تحويرها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو، ولو شئتكم أحضره إليكم وأتركه لمناقشتكم، ومن

أغراضني التي أنوي إنجازها قبل رحيلي عن الدنيا، الوصول بكل
بصاوص عندي، إلى مستوى يفوق هذا الشاب .
* إلى جانب ما ذكرناه، نطبق طريقة أخرى في النفاذ إلى خبايا
الدنيا، للوصول إلى جوهر الحقيقة، الاطلاع . على الأسرار الأولية،
خصصت لكل طبقة وجماعة، أفراداً بصاصين، يتشربون عاداتهم،
وتقاليدهم، وسائر ما يخصهم، وكلامي هذا منصب على البصاص
الأصلي، إنما هناك جانب آخر، هو البصاص (المستصنع) وأقصد به
البصاص المنضم إلينا من نفس البيئة، بمعنى إذا أردت جمع معلومات
معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلي، بدلاً من اللف
والدوران، وإرسال شخص غريب لا بد من وقت حتى يصبح واحداً
منهم، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصاص المستصنع وتمرينه
تمريناً متقناً، بحيث تطوع قدراته لعملنا، وبالنسبة للمستصنعين يجب
اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة، إذا نجح البصاص
الأعظم في ضم مثل هذا فإنه نجاح عظيم، أخبرنا كبير بصاصي بلاد
الصين العظيمة أنه نجح في ضم أكابر العلماء إلى صفه، والأعيان،
والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه، يسعون إلى ركابه، وطبيعي
أن نلقي من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضاً لظنهم ضعة مهامنا وعدم
اتساقها مع الشرف والأمانة، لكنني أقول واثقاً أنه ما من إنسان في
الدنيا يستعصي على البصاص المكين . لنمسك ظروف كل إنسان
وحياته . وننفذ من خلالها إلى ما يمكننا من تطويع وتلين جامد فكره .
بشرط أن يتم هذا كله بهدوء؟ ودون قسوة . وعندي الآن مثال حي .
إنسان في أوهج فترات العمر . نعد له من سنوات . وسوف أقوم يوماً
بكتابة رسالة مفصلة للعملية التي نجريها عليه . عندما أصل إلى غايتي
التي وضعتها منذ البداية . بل أوقن أنه سيشارك في كتابة جزء من
الرسالة . يكشف ما جرى له . وما حدث، بعد أن كان لا يطيق سماع

اسمي . ولا هم له إلا تهيج العامة على أولي الأمر . وهنا لا بد من تحية وسلام أوجهها إلى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه العظيم في ضم أطفال المملكة إلى صفوفه . لقد زرع روح البص في عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات - فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها . وأصدق الخلق هم الأطفال . وشهادتهم لا تكذب أبداً . وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم . لتوصلنا إلى تحويل البشر أجمعين بعد سنين إلى بصاصين . وهذا أمر جليل يتطابق مع كل ملة ودين ، ولزميلنا الأعظم الحق في الاحتفاظ بأسرار طريقته التي حولت الأطفال إلى بصاصين فهذا لم يتوصل إليه في غمضة عين ولكن بعد جهد سنين وسنين . لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لي أن أبدي إعجابي الفائق به . وبأحواله . لنجعل غايتنا وهادينا في دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين إلى بصاصين . إن ما نبغي الوصول إليه ، سر الحقيقة . برهان الحق . وهذا شاق وفظيع . فما أكثر الطرق إليه .

كيف نصل إلى معرفة الحقيقة الأولية؟؟

ما أتلوه الآن تسمعون حضراتكم . وعند خروجكم من القاعة . إذا اختلى واحد منكم بصاحبه . واستعاد ما قلته . هل سيقوله بنفس اللهجة ؟ نفس الألفاظ التي قلتها أنا ؟ بالقطع لا . محال . وعندما نذكر مجلساً . أو صحبة أو رحلة . فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماماً . إنما نحكيه في عبارات لا تقرب ما حدث . لا نقوله كما جرى بالضبط ؟ وعندما أتسلم شخصاً متهماً بتهيج العامة . فزماننا لا نسأل فيه عن مصير إنسان ، لا يحاسبنا أحد ، لا يطالبنا بدية ، لكنني لست جلاداً ، أو غشوماً ، أنا أحاول الوصول إلى الحقيقة ، وعندما تتكشف ، ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق ، ربما تندثر لو أزهقنا روح قائلها منذ

البداية، ومعرفة ما جرى أمر صعب، الزمن الماضي ليس موجوداً في مكان وزمان معين يمكنني الذهاب إليه فاستعيد ما جرى، الأمس أو السنة الماضية لا نلقاها في صورة موجودات، إنما نلقاها هنا، في أذهاننا، فيما يصيبننا من تحولات وتغيرات، ولكي أصل فعلاً إلى الحقيقة الأولية، لا بد أن يلفظها الإنسان نفسه، تلفظ بالقلب والعقل، بالإقناع والصدق وتؤكد لها الأدلة والقرائن. ولكي يلفظ الإنسان الحقيقة يحق له استخدام ما أراه مناسباً من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الإنسان بالحقيقة، من هنا فكل ما يقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها وأذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغال الافرنجية، المتضمنة لوسائل جديدة لإنطاق الإنسان بالحقيقة، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا، أضافت إلينا أبعاداً طاملاً تمنياناها وطال اشتياقنا إليها، وهنا، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا.

* كيفية تطويع الظروف؟؟

نبدأ بمتابعة الإنسان في حياته، وليس في سجوننا، وننفذ إليه من ثغرات ضعفه، نفسح هذه الثغرات، نقوض الأسس والأبنية، وكما ذكرت، سهل جداً قتل ألف إنسان، لكن ليس مهماً، ما يهمني تغيير ما في المخ والقلب، وهذا صعب، وللصعاب دائماً نتصدى، إذا ثبت لنا شذوذ شخص عن الخلق، إذا ثبت أنه يهيج الناس، يفتح عيونهم على الكبراء، فبدلاً من الترسيم عليه، ورميه في المقشرة، والمقشرة يا سادتي العظام من أبشع سجون الدنيا، وأنا شخصياً أتفاخر به، وأدعوكم إلى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به ولن نخفي عنكم أمراً، نعود إلى حديثنا فأقول، نبدأ بدراسة حياة الشخص،

أرقب ظروفه، ثم أصب مائي على نار الهياج فأخفف لسعتها، وفي لحظة بعينها أنفخها فأجتز حرارتها من قلب الرماد، أمد سكين الزمن إلى عقله فانزع منه ما يجعله شاذاً عن بقية الخلق، حتى لا ألقاهم جميعاً منطوين يوماً تحت كلماته، يرهجون أميراً، أو يحرقون قصراً، أو ينهبون سوقاً، أو يهاجمون موكب السلطان، وكما قلت ما من إنسان في الدنيا يستعصي أمره على التغيير والتبديل، يا أصحاب العظمة، يا كاشفي الحقيقة، هذا ما نعيه هنا، ونؤصله عندنا، ما من مخلوق يظل على حاله، ما من زهرة تبقى متفتحة، ما من شجرة تظل سامقة، ما من امرأة تدوم شابة إلى الأبد، ما من طائر يعلو بلا حد، ما من نشوة تحيا أبداً، الشمس تشرق لتغرب، النهار يطلع ليشتد ثم يعتصره الليل، والقمر لا يبقى في العيون مكتملاً، النهر يبدأ لينتهي، والغيث بعد حين ينقطع، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهي، سادتي ممسكي سر العالم، ما من إنسان قط يبقى كما هو، والزمن وحده ليس سبباً، نحن ندعمه، إذا وجدنا في نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاه بالشجاعة، أحوم من بعيد كطائر مخلق على ارتفاع شاهق، كطائر الحدأة عندنا، لا أنقض غارزاً منقاري وغالي، إنما أدور، أدور، أنزل إلى ارتفاع معين، ثم أطيّر مرة أخرى حتى أختفي، وأعاود النزول سهماً خاطفاً، وشهاباً ثاقباً، كلمح البرق، كصاعقة أنقض، كخاطرة عابرة، هنا تنتهي مرحلة، وتبدأ أخرى، يا سادتي العظام، ما من إنسان في الدنيا إلا وفي ميدان نفسه حفر وجراح، ثغرات وقلاع ضعيفة يقع على عاتقي واجب النفاذ منها، مرة أنفذ على مهل، متسحباً متسللاً لا يسمع لي صوت ولا أنفاس ولا فحيح، فجأة أبذر منجنقي، أنصب مواقعي. أثبت رماحي السامة أشهر نسيوني ثم أهجم مرة واحدة، أطوق. أحرق، أهدم. أحيل البناء أنقاضاً والعمار خراباً والأمان يأساً والأمال فشلاً مذبحاً، والميناء الصالح لرسو السفن أجعله غير صالح للإيواء ورقة شجر، إذا كان في

صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها إلى بركة ثم محيط، لو في قرارة القلب حب مخلوقة ما، أحيله إلى كراهية لا تحد، أجعله بغضاً، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يأمل هدمها، اجعل منها مستحيلاً لا يمكن تخطيه. أقيم الحدود والحواجز. أحضر الخنادق وأبث كمائني فأصيب النفس بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات. أبث في الروح عكارة لا تروق أبداً، إذا سخط الإنسان لفقره بذرت له آمال الغنى والجاه، أذيقه نتفاً من حياة الرخاء يتعود عليها، حينئذ أحيله مسخاً في عيون الخلق لا يقدر على العودة إلى قومه ولا يمكنه حتى التطلع إلى الأمام، وهكذا بدلاً من بتره حياً أحوله وهو يمشي على نفس قدميه ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه يناديه الناس بإسمه لكنه في الحقيقة شخص آخر وإنسان ثان لا علاقة له بالوليد الذي انزلق يوماً من رحم الأم أو الفتى اليافع الذي اختال وزها بين أقرانه، حتى رجولته ألقبها أنوثة، أضيع معالم الشارب واللحية، لا أحلقهما لا أنقب أذنيه وأعلق فيهما الأقراط، لا أبتز عضوه، كل ما فيه يبقى على حاله لكنه لا يبقى، هنا سيفكر لكن كما أريد أنا، يثير الناس أيضاً، لكن كما أهدف أنا وليس كما يحب ويشتهي، هذا ما أتمه في الحياة نفسها وإذا انتقلنا إلى الفترة التي يمكن للإنسان قضاؤها في السجن، هنا أسمح لنفسي مخالفة زميلي كبير بصاصي البرتغال الأعظم في بعض ما ذكره في رسالته، كان تركيزه كله على ألوان العذاب البدني، أبداً عندنا الآن النموذج الذي أشرت إليه، ما الذي نفعله معه؟ على سبيل المثال نفتح الباب عليه فجأة في آخر الليل، يضحك رجلنا في وجهه ضحكة معينة، ضحكة مدروسة يسأله بلهجة كاللحم البارد الذي تجلط عليه السمن «هل تريد خدمة» نقدم له كل يوم في ميعاد معين ربع كوب ماء. . ماء عادي جداً لكن وقعة عليه أفلح من كي الأصابع، دبرنا موقعاً بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته السابقة التي هام فيها وجداً وهياماً وأنشأ فيها القصائد رآها

عارية تماماً. يخور فوقها زوجها. زوجها وليس انسان آخر وكانت تأتي من الحركات ما جعل شعر رأسه يشيب فعلاً لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكي سر الكون. إنما ما يؤلم انتظار الإنسان لهذه اللحظة بعينها، عند تعذيب شخص، ما الذي ينتظره أكثر من هذا؟ لكن المهم أن يعيش في انتظار دائم هذه اللحظة، اللحظة المقبلة سيحدث، ترى لماذا لم يحدث، ما مغزى كوب الماء هل تغير طعمه؟ طعمه فعلاً متغير، ربما وضعوا فيه سائلاً أو عقاراً ينسني زماني ومكاني أرادوا إفقادي رجولي ربما يقتلونني ببطء. سادتي العظام، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لأمسنا رقبته بحز المونس حزاً خفيفاً بحيث لم تحدث به إلا جرحاً طفيفاً جداً لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تتصل بقربة صغيرة بها ماء دافئ صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له، قل أين أموالك ونوقف الدم، توهم فعلاً أن رقبته تنزف دماً غزيراً، قال لنا كل ما نريده، بل أكثر، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونبيه للأموال صار يزعم، أوقفوا الدم أوقفوا الدم، ونحن نحدث أصواتاً نوههم أننا نحاول فعلاً إيقاف الدم، لقد مات الرجل بعد لحظات مع أنه لم ينزف دماً. لكنه توهم الماء الدافئ دماً. وأن شرايينه جفت وخلت ومات، انني أعصب عيني السجين يمشي دائماً متوقفاً ضربة مفاجئة تأتيه لكن متى، أين؟ هذا ما يتساءل دائماً عنه وفي ليلة معينة أدخل إلى زنزانه الضيقة النظيفة. (هذا نظام جديد للسجون ونضعه في سرية تامة) أدخل إليه أحد رجالي على أنه سجين. ولا تمضي ساعات إلا ويدب الشجار بينها يتشاجران على أنفه الأمور هذا ما أجرته على الشاب الذي حدثكم عنه أمرت رجلي بالالتصاق به أثناء نومه قام مفزوعاً ظناً منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصباً، وهكذا أحيل الحياة إلى جهنم أبطنها بشوك فيصبح الموت أملاً مرتجي ومتعة بعيدة المنال.

رجاء

أثارنا المطلب الطريف الذي قدمه كبير بصاصي دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا في الأزمان المقبلة، وأرجو السماح لي بإضافات بسيطة إلى أفكاره كما أعددت ملاحق خاصة جداً حول عدة مشاكل نواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم إلى لغات حضراتكم، وأقول متيمناً لا يوجد أمر على الله ببعيد ما نراه مستحيلاً اليوم. يدخل باب الممكن غداً. وغداً بالنسبة لنا دون حد، إنني أرى يوماً يجيء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب، إنما ما يبطنه من خواطر، ما يراه من أحلام، بهذا نرصد كل شيء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاربه بحيث نتنبأ بما سيفعله في العام العشرين من عمره مثلاً، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملاً من الزمن فيواجه به من أنكر، أرى يوماً يجيء فيمكن للبصاص معرفة الهمسات، الآهات، تأوهات الجماع بين الرجل وامرأته. إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق قارب يجري في النيل أدركه هنا، ويمكنني التدخل في الحديث عند الوقت المناسب وتوجيهه، أرى يوماً تنزع فيه الأعضاء من جسم الإنسان لتسأل عما فعلته، فلا يمكنها الإنكار أرى يوماً تطلق فيه على الناس أرقام معينة، فيحدد البصاص لأهل كل حارة أرقاماً، هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لا يحمل شخصان رقمين متشابهين، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة في أحد ملاحقي التي ستوزع عليكم وهذا يساعدنا في حصر الخلق، بدلاً من تعدد أسمائهم وتشابهها.

(ويعد)

فما ذكرته أخيراً أخيله تراودنا، لكن عندما يصير الأمر حقيقة،

فسوف يقول بصاصو الأزمان المقبلة أنظروا، كان أسلافنا أبعد نظراً
وأشد عزمًا.
«وعليكم سلام الله وأمانه».

«كبير بصاصي الديار المصرية»
زكريا بن راضي

ذيل (١)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين .
وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة
لإقلاق راحتهم .

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة

٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م

ذيل (٢)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيم الناس ،
بدلاً من الأسماء ، ونص فتاوى شرعية تبين
هذا في سائر الأديان

لا يطلع عليه إلا كبير البصائين

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاوي القاهرة

٩٢٢ هـ - ١٤١٧ م

ذيل (٣)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة أي
كيف يرصد بصاص بصاصاً آخر

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية

٩٢٢ هـ

٢٣٨

ذيل (٤)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود ما هو
غير موجود

حظر وأبيح لكبار البصائين دون غيرهم
رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية

الوقت ذاته من كل عام، البيت يفتح للمريدين، طلاب الحق الجوابين الساعين حباً في أهل البيت، بعضهم التقى فعلاً بالنبي الياس عليه السلام، لم يفن ولم يميت، النبي الياس شرب من نبع الحياة فما عاد الموت يقربه، عاش الشيخ أبو السعود على أمل اللقاء به، التزود من حكمته، الاستماع إلى قصص أجيال اندثرت. الشيخ الكرمانى حكى له ما لا يتطرق إليه الشك، عندما اجتاز في أول الشباب بلاد فارس، حيث عبد القوم يوماً النور والظلام، والتهبت نيران المجوس، عند البحر التقى برجل يلبس البياض، أبيض اللحية، والشارب وشعر الرأس، يمشي فتياً عفيفاً كأنه ابن عشرين، الشيخ الكرمانى كان على وشك النزول في قارب ليعبر البحر الكبير، سلم عليه الشيخ، من عينيه ينسال بهاء غريب، حذره من ركوب البحر، قال «الدردور عمال ومن ركبهم هلك» ودواب هذا البحر لا ترحم من يلقي به حظه العائر إليها، رجع الشيخ الكرمانى، واختفى الشيخ الأشيب، ذهب الرجل، وبرق الخاطر في عقل الشيخ الكرمانى، من التقى به وحذره، هو، هو بعينه، سيدنا الخضر عليه السلام، فيما بعد عرف هلاك القارب، انتابته حسرة، كيف لم يبق معه، كيف لم يقتف خطواته، بعد أن قضى ثلاثة

شهور يستقطر حسرة لا تنبت أملاً، عزم فتوكل، بدأ طوافه، عسى أن يلتقي به، يصحبه، لكن محال، المرة لا يرى سيدنا الخضر مرتين، مع هذا لم يضع منه الرجاء، الشيخ أبو السعود لم ير سيدنا الخضر لم يشهد النبي الياس، في السرداب ترق الأحزان، توخز النفس كنصل، سيف حاد، النبيان الخالدان هجرا الأرض التي يحيا فيها، رأى الكثير ولم يرها، ارتعش قلبه بمنظر الموق في غزوة بربرية، مدن خيم عليها وباء حصد وأفنى ولم يبق، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدي، لماذا يموتون بلا ثمن؟ لماذا جاء الإنسان وعاش وعرف الألم والأمل، إذا كان ذهابه بسيطاً هكذا؟ في السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه، سمع كل ما أتاه الزيني من رفع بعض الأسعار، من القبض على أشخاص، ارتقاءه في المناصب مبرر معقول، ألا يقول دائماً، لولا ثقة مولاي وأمامي الشيخ أبو السعود الجارحي لما قبلت، أحد المريدين أخبره بوقوف الزيني خطيباً في أهالي الصعيد القصي، أخبرهم بأن الشيخ أبو السعود يدعوهم ليلاً ونهاراً، إنه يأتمنه على الأرض والناس، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه. لو جاءه النبي الياس المعاصر لكافة الأزمنة سيقول له. أنت المحق. لم تعرف زمنك. لم تغص فيه لتعرف كوامنه. لكن لا النبي الياس. ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه، في السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه، والهاتف يسمع ولا يرى، ولا يجيء إلا للصالحين، إما مرشداً أو محذراً منجياً، أو لائماً، أي أسى يطرق القلب الوجيع المحسور، كيف ينفذ بصره إلى الحقيقة، يقولون، مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنواناً لكل ما يجري، آه لو يصل إلى شجرة الحقيقة، حدثه النساك الزاهدون عنها، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال قط، لو وصل إلى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى، لم يصل إلى الشجرة، لن يرى طيفها، جاءه درويش صعيدي

بحبات التمر، سطل اللبن، أكل وشرب يميل عليه هامساً، مولانا في
الباب رجل اسمه الدامراوي .
لا حجاب بيني وبين الخلق . .
جاء الدامراوي ، فيما يبدو ميسور الحال .
جئت ساعياً على قدمي يا مولاي .
من أي البلاد أنت؟؟
منفلوط يا مولاي .

إلى منفلوط سافر الزيني بعد رحيل السلطان إلى الشام، جمع أهل
الناحية كبيرهم وصغيرهم . . في البدء حكى عن كل شيء عن حقيقة
الأخبار . الغدر الذي يطل من ابن عثمان . قال فيما قال إنه موقن من
تحرك ابن عثمان ليأخذ مصر . لكن جند السلطان وفرسان الإسلام
سيثولون أمره . قال . مصر محمية بأولياء الله . وصعب أخذ بلاد تضم
سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسيدي عبد الرحيم القناوي .
وسيدي الفولي والقطب القوي سيدي الدسوقي وسيدي الرفاعي
والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو
السعود .

«أجرى الدمع من عيون الخلق، يا مولانا، ثم قال إن خزانة
السلطان في أمس الحاجة إلى دراهم، ورجاهم تقبل ما سيقول، جمع
ضرائب عام واحد مقدماً غير السنة التي نحن فيها، ولما كان الحال
صعباً، والدنيا متشحطة مع الناس، ضجوا وأعولوا، فتحدث إليهم
بلين الكلام، قال من يملك شيئاً لبيعه، حاش عنهم أذى الأمراء
والماليك ولو تركهم لجاءوا بسيوفهم، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع
الماشية، وهذا ليس غريباً، حدث من قبل مرات ومرات، وبين الكلمة
والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ أبي السعود له، فصارت الناس يا
مولاي، آه ساحني يا مولاي .

بكى الدمراوي، يولي سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيداً،
يزعق المريدون، تعلوا الهمهمات، «بعد أن صرف الناس . استبقاني مع
أربعة من أهالي البلدة، أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد،
كيف وصلته، ثم قال إنه سيفرض على كل منا مبلغاً قدره ألف دينار،
قال لا بد من الدفع، العجب يا مولانا، ضياع اللين في حديثه، نتر في
وجوهنا. أظهر القسوة قال إنه يمهلنا شهراً، ولو تأخرنا سيدعو علينا
مولاه . . فتخرب بيوتنا.

صرف الدمراوي . ورأى السماء مقطبة الجبين . الآن يرجع
الفلاحون إلى ديار الطين، الآن يوقد عساكر السلطان النيران في سهول
حلب، الآن يتوه ملاحون في البحار الغربية، يجيء سيدنا الخضر
يرشدكم إلى السلامة، الآن يضيع صواب الضالين في الصحراء، ينزل
الليل صخراً وحجارة، لا يدركهم إلا النبي الياس، وفي لحظة معينة
من الليل لم يعرفها أي إنسان حتى أشد الأولياء ورعاً، في مكان مجهول
لا تطرقه دابة، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا الياس ليلقيا نظرة على بلاد
يأجوج ومأجوج، حتى لا يكسروا السد، ويفرقوا العالم . خاطر يضيق
به صدر الشيخ هل نفذ بعض الياجوج إلى دنيانا، وتنكروا في هيئة
البشر؟ سيهجر السرداب حيناً، خلا البيت من محبي سعيد .
«يا فرج . .»

جاء المريد الشيخ . لا يعرف الطريق إليه مرة كل سنة، في ميعاد
بعينه .

إمض إلى الزيني بركات، ارتد شال عمامتك الأحمر، ناد عليه، قل
له أن يأتي عندي الليلة . . لا تدعه يغيب .

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ

ديوان سر مقدم بصاصي القاهرة
عاجل وهام

تقرير مرفوع إلى الشهاب الأعظم
زكريا بن راضي، كبير بصاصي السلطنة

في الجزء الأخير من هذه الليلة، توجه الزيني بركات بن موسى،
استدار الذخيرة ومتولي حسبة الديار المصرية، والي القاهرة، والمتحدث
عن الوجهين القبلي والبحري إلى كوم الجارح، بعد استدعاء الشيخ أبو
السعود الجارحي العارف بالله، وعندما دخل إليه أجلسه بين يديه، مال
الزيني عليه، لكن الشيخ لم يراع هذا، ونتر في وجهه، يا كلب.. لماذا
تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلاماً تنسبه إلي. أبدي
الزيني دهشة حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه
(درويش اسمه فرج).. أمره بخلع عباءة الزيني عنه، تجمع حوله
الدراويش أحاطوا به، أمر الشيخ فضرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد
يهلك، ثم أمر بشك الزيني في الحديد، ثم أرسل إلى الأمير إعلان.
وأيقظه، وقال له أطلع شاور نائب السلطان الأمير طومانباي في أمره،

وأعلمه أن هذا الكلب يؤذي المسلمين ، وفي الحال طلع الأمير علان الدوادار الكبير إلى نائب السلطنة ، وأيقظه ، وأخبره بما جرى ، وقال الأمير طومانباي ليفعل الشيخ أبو السعود ما يبدو له ، وحتى ساعة كتابة هذا ، ما زال الزيني بركات بن موسى محتجزاً عند الشيخ أبو السعود ، وقال الشيخ لمريديه «أبقوا الأمر سرّاً يوماً أو يومين حتى استخرج منه ما نهبه من أموال الغلاية ، ثم نشهره على حمار ، ونخلص الدنيا منه» وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجري ، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته ، ومن ناحيتنا ، بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فج ، وخاصة كوم الجارج ، ونُجِّيَ إلى عملنا ، أن دراويش الشيخ ومريديه ، وكافة أرباب الطرق الصوفية ، والفقراء في بر مصر سيعلمون الخبر ويهيجون الخلق .

عليكم أمان الله تعالى
(مقدم بصاصي القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر نائب الشهاب الأعظم زكريا،
المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

(مصيبة كبيرة)

بعد تضارب الأخبار، وكثرة القيل والقال، ورد إلينا، منذ لحظات حقيقة ما جرى، فبادرنا بإرسال الأخبار إليكم، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق، لقد وقعت كايمة عظيمة، طمت وعمت، وتفاصيلها، أن السلطان الغوري دهمته عسكر سليم العثمانلي يوم الأحد خامس وعشرين رجب (وهو يوم نحس مستمر)، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار. وقيل هناك قبر داوود عليه السلام فركب السلطان وصار يرتب العساكر بنفسه، فكان أمير المؤمنين على ميمنته، وحوله أربعون مصحفاً في أكياس خريز صفراء على رؤوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام، عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحوله أيضاً جماعة من الفقراء، هم خليفة السيد البدوي، ومعه أعلام حمراء، والسادة الأشراف القادرية، ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدي أحمد الرفاعي ومعه أعلام خليفتي، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة

نفيسة رضي الله عنها، بأعلام سود، وكان ميمنة العسكر سيباي نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب الحلب.

قيل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون، وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً معهم جماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صنماجق، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق، فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، كانت النصر لعسكر مصر أولاً، وبأليت لو تم ذلك. بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا أو خلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال. وبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون قد قتل في المعركة. وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام. فانهزم من الميمنة من العسكر. ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب. فكسر الميسرة. وأشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان موالساً على السلطان الذي ظل واقفاً تحت الصنماجق في نفر قليل من المماليك صار يصيح في العسكر، يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم. فلم يسمع له أحد قولاً وصاروا يتسحبون من حوله شيئاً بعد شيء. فالتفت إلى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم. وصار ما يجد له من معين ولا ناصر. فانطلق في قلبه جمة نار لا تنطفئ وكان ذلك اليوم شديد الحر. كثيف الغبار. كان نهار غضب من الله تعالى على عسكر مصر. ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه في الحال خلط فالحج. فأبطل شقته. وأرخصى حنكه. فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض، فأقام نحو درجة،

وخرجت روحه . ومات من شدة قهره . وقيل فقعت مرارته . وطلع من حلقه دم أحمر ، ولم يعثر له على أثر . ولم يعلم له خبر . فكأن الأرض انشقت وابتلعت في الحال .

ولم تستغرق هذه الواقعة إلا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر . وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى . تحول ابن عثمان عن مرج دابق إلى حلب فملكها من غير مانع . واستولى على مال السلطان ونحفه وأسلحته التي خرج بها من بر مصر .

هذا ملخص ما جرى في الشام ، نسأل الله أن يقينا شر ما يجيء من أحوال ، وسوف نرسل ما يرد إلينا أولاً بأول .
عليكم أمان الله تعالى .

نائب الشهاب الأعظم
المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

عمرو بن العدوي

لماذا أرسل إليه؟؟ هل انكشف أمره وافتضح؟ أو انكسار العسكر واقترابه وكثرة الإشاعات واضطراب الأحوال ، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضي إليه شحت يده بعد امتلاء المأوى في الرواق ضاع ، لا يجمعه إلا بيت واحد من أهالي البلدة ليلة أو ليلتين ، ثم يمضي إلى غيره لتقابلة العيون بالنظرات نفسها ، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصي القاهرة؟ لكن هل يتنبه إلى أمره مع كل هذه المشاغل والأمور المضطربة؟ لا يدري ، الآن يعبر حارات العطوف ، يخاف لو رآه أحد المجاورين ، حتى من حرصوا على صحبته يوماً خوفاً وخشية ، جهروا له بالعداء هذه الليلة التي وجد نفسه ضائعاً فيها ، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره ، بالقرب منه ، زملاؤه في حلقة الدرس ، شوام ومغاربة وافغان وقفوا يرقبون ما يجري حزمة ثيابه ربطوها تحت قدميه ، قال

الشيخ حمزة أكبر من في الرواق سنأ وأقدمهم في طلب العلم وتحصيله، امض عنا يا شيخ عمرو، لا ترنا وجهك، يد حجرية هوت فوقه، كاد يزعق فيهم، أتعرفون إلى من تتكلمون، إلى من يزعمون؟ في هذه اللحظة رأى نفسه. يجلس أمام مقدم بصاصي القاهرة، كان إذا جلس إلى التجار. إلى المجاورين، يزهو إذ يسترجع حديث المقدم إليه، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك، زهو داخله كلما رأى إنساناً باستطاعته إرسال أي شخص إلى المقشرة، هل نسوا هذا، لكن عرقاً غزيراً انبثق من جلده، بلل ثيابه، ما الذي جرى يا شيخ حمزة، وأطلقت العيون شرراً، صاح الشيخ صلاح الصعيدي: امش يخرّب بيتك كما خربت بيوت الناس، تقدم الشيخ بهاء الحق، خلع مركوبه، منعه الشيخ حمزة «أذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا»، «ذنب الشيخ سعيد، والشيخ مبروك في رقبتك»، يوم لم يعمل له حساب، ما الذي جرى له، يذهبون إلى شيخ الجامع يوقعون في أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة، من الأزهر، يفضحه، نظر إلى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبداً، ألن يصغي إلى أنفاسهم، إلى هلوسات أحلامهم، ما الذي سيكتبه إذن في تقاريره؟ آه، لن يرحمه الرجل، فشل ولن يتقن إخفاء نفسه؛ وهذا يساوي الموت بالنسبة للبصاص، إلى أين يمضي؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت. يستجدي الدراهم بتلاوة القرآن، لن يجرؤ على دخول بيت منها، بقجة ثيابه، إلى أين؟ أيعود إليهم، يطلب الصفح والسماح، يحكي لهم عن أمه التي لا يعرف مقرها الآن، سنوات مرت على خروجها، لا يعرف الطريق إليها. لم تهتد إليه، ربما تصل إلى الرواق، لا تلقاه الآن، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد، لو حكى لهم عنها ربما رقوا له، أدرك أنه نسي وجه أمه، صورتها، لو قابلها لن يعرفها، لو تعيش فهي ميتة في

قلبه منذ سنين، حمل ثيابه. ولي هارباً، الطرق عليها كمدة، كأن الدم المسفوح في مرج دابق انسال حتى غطى تراب القاهرة الناس جروحهم طرية، في كل بيت مناحة، أما جرحه فنافذ حتى النخاع، سب الشيخ حمزة، لعن المجاورين، بل لعن في سره البصاصين. من يدري، ربما كشفوا أمره لغرض في عقولهم، ربما أشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته، أشرف على فضيحته، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصي السلطنة، أهمل ولم يرفع ما حدث، أهوا الكسل؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه، ارتعش، توقف مكانه. سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من أحشاء العطوف، ربما يذبح إنسان، لا قيمة لذهاب رأس واحدة، فما أكثر الرؤوس التي راحت في مرج دابق، لو أمسكوه الآن في هذه الساعة لظنوه يجس الأحوال، يرأس ابن عثمان، الرجم مصير هين عندئذ، لن ينقذه زكريا نفسه، ربما يدبر له مقدم بصاصي القاهرة ملعوباً ليتخلص منه تماماً، يمسه بعض البصاصين الآن يزعمون عليه «بصاص لابن عثمان» اذن فليسرع، كل شيء يولي، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة، لم يضاجع لطيفة الحلوة، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة، لم يدرس العلم، لم يحفظ الحديث، آه لوبقي في البلدة بجوار أمه، يعمل فلاحاً، عنده زوجه وأطفال؛ تصر البوابة عند فتحها صريراً ثقيلاً. ضبتها الضخمة توجعه، نفس الممر، عبره مرات، ارتجف، هل سيخطو فوقه راجعاً الليلة؟؟ لا يعرف ما سيفعل به، في أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصي القاهرة.

«اجلس».

لم يلامس ظهره مسند المقعد، رأى نفسه بعين الرجل، أدرك نحول بدنه، اصفرار وجهه.

«فضحت نفسك.. وفضحتنا».

انعقد لسانه ما الذي سيفعل به؟؟ عندما وصل إليه الرسول في
الفسطاط، أعد كلاماً كثيراً يقوله، كل ما يرجوه تدبير المأوى، يمكنه
العمل خادماً ينظف الحشايا ويغسل الأواني، ألم يبذل الجهد كله في
خدمته، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل، ألم يتسبب في كشف أمر
عشرات المهيجين، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه، قام نائب
مقدم القاهرة، لاحظ عمرو أنه متعب، تمنى لو قال له «استرح.. لا
تتعب نفسك» لو بادلته عادي الكلام.

«سوف تسبب لنا متاعب»..

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها، يلمس ما تقرر في أمره، من خلال
كلمات الرجل وحركاته، أثناء مشيه ومجيئه في الحجرة. ضرب قبضة يده
اليمنى براحة يده اليسرى..

«ستبقى عندنا وقتاً حتى يبت في أمرك».

«هنا؟؟»

ورأى عمرو ظلام الليل أبدياً، طاف حوله خيال هائم، لا يدري
أين صاحبه وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة «اهتم بنفسك،
صحتك على غير عاداتها، فيجاوبه النائب، قائلاً.. «رعاك الله يا عمرو
وأبقاك»..

سعيد الجهيني:

بخرقه ممزقة قديمة، أقبل حمزة بن العيد الصغير، ينظف الموضع
المعتاد من الدكة.. «لك وحشة يا شيخ سعيد.. ستان وأكثر»..
هانت عليك العشرة».

ضيق سعيد عينيه، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من
الأشياء، أصدق حمزة في قوله؟؟ أو يتظاهر؟؟ أحقاً يجهل ما جرى؟؟

ألم يبلغه الأمر؟؟ وإذا تجاهل فلا بد من غرض خفي يستحق تظاهره؟؟
ألم يسمع صدفة حديثاً تبادله بعض المجاورين المترددين على دكانه،
حمزة يدعك يديه ببعضهما البعض، في الترحيب حرارة لا تخفى، هل
أوصوه بافتعالها؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه؟؟

«غيبته لم تطل يا ريس حمزة. .»

في كلمات قليلة رد، ليفهم حمزة أو أي بصاص آخر يقف قريباً منه،
يختبئ في الدكان، في أي مكان لا يراه أنه لا يبدي الشكوى مما
حدث، سعيد عليم بمراقبتهم له، في مكان بعينه، فوق مساحة أرض
بذاتها، فراغ محدد يقف إنسان يرصد كلماته، الناس الذين يلقيهم،
العبارات المتبادلة بينهم، كل ما يقوله، يرفع ويوضع تحت تحليل
عميق، لا يمر معنى خفي إلا وأدركوه، ومهما مضت السنون، حتى ولو
بقي في عمره يوم واحد، يمسكونه، يحاسبونه حساباً عسيراً وهم قادرون
على إذاقته في يوم ما لا يذوقه إنسان في مائة عام من الآم ومواجع،
يبدلون جهداً لتصحيح مساره وتقويمه، ألا يضرب الأب أولاده؟ يقسو
عليهم؟ يرقب الطرقات، الشتاء يورث القلب حسرة، دفقة دم، تعيد
إلى وقع أقدام مقبلة في طرقات طويلة لا نهاية لها. وجوه ترمقه بهدوء،
برود، وعيون تنفذ إلى نسيج أحلامه، أرهقهم كثيراً، فاهتموا به
طويلاً، أخبروه بالفاظه التائهة القليلة التي يطلقها عادة أثناء نومه في
الرواق، زمان أحد أصحابه أخبره بها، كثيرون يتحدثون وهم نيام،
ألفاظهم مبهمه، أما هو فلا ينطق إلا لفظاً أو لفظين «الأول» «الأخر»
«الأمس» «غداً»، «المثنى»، «المفرد»، سألوه عن معاني الكلمات شهراً
بأكمله، في كل مرة يقسم أنه لا يدري، رحوه وصدقوه، ترفقوا به
وصدقوه، ترفقوا به، في مرات استعادوا أحاديث تبادلتها مع آخرين على
فترات متباعدة في حياته، توالى عليه الأسئلة حول مغزى الكلمات

توضح الشروح، توضح الفروق، تضاهي الحروف حروف الجر،
وعلامات الاستفهام طلاسّم تسد أبواباً في نفسه، فكوها مع ظنه الدائم
باستحالة هذا، أزالوا أرصادها. نفذوا من أضيق الثقوب، أغلقوا
طاقات، ردموا ممرات وساحات، الآن ينتبه إلى نفسه فجأة، كيف يفكر
فيما فعلوه به، ربما أدركوه وعرفوا ما يفكر فيه، يفهمون أنه يحاول تشويه
أعمالهم، أنه ينسب إليه فظائع لم تحدث، نعم لم تحدث، لم تحدث، ألا
يوجد عقار ما يمنع الإنسان من التفكير في أمور بعينها، الآن تتدافع إليه
أصداء صرخات مجهولة، آدميون يتألمون، حناجر تعجز عن تفريغ
طاقات الألم، ركود الهواء في الحفر المغلقة، فلمس السلاسل، يهز
رأسه، ينفي الخواطر، يبید الأفكار، ما مر به أحلام ثقيلة، فعلاً
أحلام.

«بالصلاة على النبي . . اللهم اكتب لنا الستر. .»

الابتسامة على وجه حمزة بن العید الصغير، كانت كلماته تبدو طيبة،
الود المنسال من عينيه الآن لا يدري القصد والهدف. في نفس هذا
الموضع رأى سباح ألف ألف مرة، ذكرها تدفق الدم من الأوردة
والشرايين، سباح. كيف أحبها يوماً؟ كيف عانى ما عاناه؟ لفظ الاسم
بصوت عال من الطاقة. سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعالي، ما
يهوي بالنفس من شموخها، أدرك العطن جوهره. ظن أنها لا تمس،
دب الخراب إلى وجه مליح، بارت الأرض. أفنى الوباء آمالاً. ظن يوماً
أنه سيعبر المحيطات ويمشي عبر الربع الخراب من العالم، يعلو جبال
قاف ويمضي إلى واق الواق، يرسو في جزر لا يسكنها أحد، يأكل الحديد
ويشرب النار. فقط لو تصحبه الآن يتساءل؟ كيف، كيف أحبها يوماً،
لا يدري أين هي؟ أين تسكن؟ في القاهرة أم رحلت إلى الأرياف مع
الراجلين في الأيام الأخيرة، لا بد أنها أنجبت طفلاً يقول لزوجها يا

أبي، يقول لها يا أمي، لا بد أن معالم وجهها تغيرت. يدها غلظت، كأنه كأنه يذكر شخصاً غريباً عنه يعيش وراء المحيط، عرفه يوماً غير أن عكارة في قرارة الروح، نقطة عنبر أسود لا تروح. لا يدري ما الذي دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ أعوام، قضى سنين لم يقرب امرأة. وعندما اشترى بماله الذي أفنى العمر في اقتنائه جارية حلوة صغيرة. لكنها بعد أيام استغاثت منه. استعانت عليه الزيني، الزيني خلصها من الرجل. طاش عقله وراح يدور الشوارع. في عينيه حيرة ولهفة وقع به خبل. ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها. وأوراق الدمع من أجلها. يقول الآن. الحمد لله أنه لم يتزوجها. كأن شخصاً آخر حكى له ما جرى، قصة عليه. أما هو لم يعرفه، قرب كوز الحلبة. الطعم مغاير في الحلق، هل نسي المذاق؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاءوه بها..

«اللهم استرنا واحمنا يا كريم..»

في البداية أقبل عليه، لكن أسى الوجه الخفي، الصد الذي لا يبين في عينيه، حفر رفيعة طويلة حولها، كأنه قام من النوم توا، كأنه يعاني حزناً فادحاً، أو انتهى فوراً من بكاء طويل، حمزة بن العيد الصغير، يرى حاجزاً يقوم بينهما.

«آنستنا يا شيخ سعيد..»

في الجوغليان، إنه يمشي على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة، ينظرهم، لا يقرب حلقات المناقشة إلا وقت الدرس، حتى وقتئذ ينأى بنفسه، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم، يرى العيون ت برق والعشرات يخرجون إلى ظاهر القاهرة، يشيلون أحمال التراب، يحفرون للمدافع التي اجتهد السلطان طومانباي

في صنعها، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه .

«لو خرج طومانباي وقابلهم في الصالحة وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يا مشايخ ، والآن يسعون إلى الريدانية . . »

«أنا أرى أن يخرج طومانباي ويلتف من الصحراء . . ويباغتهم عند بلبيس . لكن أن يحفر في الريدانية ويتنظرهم هنا فهذا ما لا تحمد عقباه . . »

«ربما أقنعه الأمراء بهذا الغرض في أرواحهم . . »

«هل شك واحد منا في خاير بك من قبل؟»

«في الجورائحة ننته يا مشايخ . »

إذا سأله أحد جاوبه بهزة رأس لا تعني شيئاً، ابتسامته موجزة تبتر الحديث، يعرف أن أصحابه رقوا له، يخمنون ما جرى له، لا يهيمه ما يقولون، يرجو ألا يثروه بالحديث، كل كلمة تقال وتضيق في الهواء لا تغني عندهم، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم، يداه وراء ظهره، يروح ويحيى، فيه خوف غامض من الخروج إلى الفراغ، كأنه لو مشى في خط مستقيم سيختل ميزانه، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه، يطلب نجدة لن تصل أبداً، وغوثاً منقطعاً، ومدداً لا أمل فيه لو أكثر من التجول لرأته ألف ألف عين، كل عينين لإنسان واحد، لو أنه حدد الناس الذين يمضي بينهم، في الليل إذ يوشك شيخ الرواق على إغلاق الباب، يقوم من مرقده، تتتابع أنفاسه بسرعة، يكاد ينطق رجاء مكتوماً في صدره، ألا يغلق الباب، كأنه لن يفتح أبداً، لا يأتيه النوم إلا بعد دوار رأسه، انكثام نفسه، ضياع حسه، لا ينام نوماً، إنما يغشى عليه . . .

«في بر الجيزة خمسون ألفاً من العربان . . »

المجاورون يروحون ويحيثون، ثمة جدد فيهم أصغر سناً، جاءوا بعد ذهابه في الرحلة «كما يسميها بينه وبين نفسه» في حلقه كتلة صلبة كالبنديقة، لو أن ما يجري الآن جرى منذ عامين فقط، عامين؟ كأنهما عشرات السنين، زمن قائم بذاته، هل سيفقد هكذا؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة، ما يدفع طعاماً مرّاً إلى دمه، ما يحيره، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان، تكاد تلامس أرض الريدانية، خيولهم تدوس الديار المصرية، طاحت سيوفهم في رقاب أهالي الشرقية وبلبيس، ربما اجتاحتها في طريقهم بلدة، قرية سماح لجأت إليها مع زوجها استباحوا عرضها في صحن جامع قديم، العرض الذي لم يهتك في خياله يوماً وراه متمرغاً تحت سليل الأمراء في لحظات قهر، سعيد يتقلب فوق حصير شائك، ما أبعد المسافة وأنأى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة، ضرب إنسان في عرض الطريق، تتكاثف الحيرة والحسرة، كيف لا يحركه ما يجري من أمور؟ انتفض الشامي والمغربي، القريب والبعيد، الحرير يهتفن بالدعاء لطومانباي، حتى العيال الصغار، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ، لو زعق، لو جهر بالدعاء، ربما تضايقوا. يريدونه هادئاً وادعاً، إذا هتف لطومانباي من يدرية أن الدعاء سيسمع بنصه؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات في العطوف الجوانية والروم والباطنية يقفن أمام مشهد السيدة نفيسة حسيرات، تعلو أصواتهن بنصرة طومانباي ورفعة جند مصر عسكري الإسلام. في داخل المسجد رءوس معمرة، يقيمون الصلاة في غير أوقاتها يقرأون البخاري، شبان صغار عاب عليهم يوماً انقطاعهم، وترددتهم في مواجهة جور الأمراء، الآن، يبدوون همة لا يدري من أين جاءتهم، أحقاً لامهم فعلاً، لكنه لا يخطيء الوجوه المنكسرة، معالم الغربة يراها، حتى في أبنية الحوار.

لحظة الغروب تجسد الموت، الأسى رقرق، عبثاً صفاء النفس،
الأذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة، يعمق الغربة لمن لا بيت له ولا
زوجة ولا أمل يرتجى، كأن الريف البعيد محي من المكان والزمان،
الأشعة لا تهدي القوارب إلى بر الأمان تمضي امرأة تلتف في حرير
أصفر، حتى الخيال لم يعد قادراً على تجريد الثياب، لوجاءت بلقيس
نفسها، لورقصت أمامه في حجرة مغلقة نائية، لن تهتز جذور شعيرات
رأسه حتى.

طفل ضئيل، صغير الجسم. دامع العينين. الأصبع في الفم. حيرة
أول العمر. يبحث عن أبيه. يبحث عن أمه. لا يدري سعيد الطفولة
المخوزقة في عينيه أثارت خوفاً غامضاً في قلب شفقة تنسال. توقف
يرقب الطفل. انتبه إلى خطورة ما أقدم عليه. بأي كلام يفسر وقفته
المفاجئة أمام الطفل. طفل صغير يبكي رأي نفسه ممدداً فوق حشية
قديمة. وأطفال يصيحون. نساء يلطمن الحدود، آه لو يرثي الإنسان
حياً. لأقام النعي وجاءته الندابات من كل فج عميق. لو يصلب نفسه
على باب زويلة. يقضي دامع العينين. كهذا الصنم الواقف في جزيرة لم
يرها أبداً وسط البحر المحيط. كلما اقترب منه إنسان يلقي الدمع هائلاً
من عينيه. السوق خال. الحركة خفت من الطرقات. كأنها أوردت
القلب الخالي. التفت وراءه. الطفل الباكي يتوسط الطريق. قدماء
رفيعتان كقلم البسط. تنوءان بحمل جسمه. كل اهتزازة منه تجسد
أول العمر الشقي. لا يعرف أن يمضي؟ رأى بعيني عقله امرأة وقعت
بين القفف في سوق الليمون انتابها خلط فالج. ارتمت على ظهرها لا
تدري ما حولها. تطفطف ربما من فمها. زحف إلى ثديها طفل يتلمس
سريان الحياة منه. متى رأى المنظر. متى انتابه غم؟

بحرص عظيم استقصى أخباره، يقيناً علم بخروجه . في الرواق
خطر له أن ينسرب تحت الظلام، يطلع عليه، لكن هذا أسهل الطرق
لأنكشف أمره، كلما انقضى يوم، لا يطلع فيه إلى كوم الجارج، أدرك
أن المسافة تنأى، ربما لم تطأ قدماه صحن البيت، لن يتنسم هواء المبلل
بماء الورد، منذ أعوام لم يخطر بباله قط، لم يكن يقبل أي تصور ليوم
كهذا، لم يطلع إلى كوم الجارج، لكنه في حذر راح يستقصى أحوال
مولاه، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباي تمنع
ورفض، لم يجدوا أمامهم إلا الشيخ أبي السعود ليقنع طومانباي بتولي
السلطنة، سعيد يراه بوجهه الصافي، ربما أخذه التردد. لا ينسى تدخله
إلى جانب الزيني بركات. ثم خيبة رجائه ومسعاه، أبداً أبداً لم يحب
رجاؤه، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل أتاها دائماً هناك جالسه
أياماً طويلة، طلب منه الذهاب إلى دكان حمزة كالمعتاد، ولو جاءت
سيرة الزيني أمامه، لو تساءل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاه الرجل
بأدب) أن الزيني في مكان قريب، يعد العدة ويجمع المال والسلاح، ولم
يمنع سعيد، وأي مأخذ في هذا، تساءل الناس في الدكان عن غيبة
الزيني قال «انه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر. يستنفر مشايخ العربان
لإرسال رجالهم إلى القاهرة» يذكر يوماً شخصاً أفرنجياً بدا مصغياً لكل
ما يقال، استراب في أمره. بعد أيام عرف الناس الحقيقة، الشيخ أبو
السعود نفسه قبض على الزيني ورماه في بيته، خجل سعيد من نفسه.
خالف أمراً أتاها مولاه، لكنه معذور لم يدر، ثم أن الرجل رجاه بأدب،
مطلب بسيط، لم يخطئ فيه، أرسل الشيخ إلى الأمراء ألا يخونوا
مولاهم وألا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه في تصديه لابن عثمان
العازم على أخذ مصر، يعرف سعيد أن كثيراً من المرادين، قدموا من
كافة القرى والأنحاء، يلفون رؤوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدي
أحمد البدوي ارتداها يوماً، مد يده فأحضر الأسرى من بلاد الكفر،

الشيخ أبو السعود يخرج يومياً إلى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما يبيديه من نشاط لا يناسب أبداً لحيته البيضاء وشيبته، كبر العامة وهللوا، لورآه مولاه سيسأحه، يحرقه الشوق إلى رؤيته لكنه لا يدري رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مساراً.

يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد، يطحنها حمزة الآن، يضيف إليها البندق المبشور، ولو طلب الزبون يحمرها في السمن تصيح إفتاراً حلواً شهياً ألد من أكل الفول النبات في مطعم المراغي أمام زاوية العميان، العسكر يعبرون الطريق، شيء ثقيل يقع في مكان قريب، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة، صاحب وجه غريب يقترب منه، لم يره أبداً.

«شيخ سعيد؟»

«أيوه»

«لو سمحت . . معي لحظات . .»

الريح صائب، أبدأ رحلة من جديد، أعددو؟ أين؟ إلى أين؟
«أبدأ . . مقدم بصاصي القاهرة يطلبك. ليس المفروض أن أقول لك . لكنني أشفق عليك، أعرف رقتك وما يمكن أن يطوف بك . . يطل حمزة . .»

«لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد، لم تشرب الحلبة، لا حول ولا قوة إلا بالله . .»



نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

يا ساكني مصر

الجهاد

الجهاد

الجهاد

وما النصر إلا من عند الله .

زكريا بن راضي

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم إلى بركة الرطل، الخواري مغلقة. الناس يسرعون إلى غير هدف، في الصباح الباكر، انطلقت إشاعة في المدينة كالنار في العشب الجاف، أقسم البعض أنهم رأوا جيوش ابن عثمان تهيء من ناحية الفسطاط تفاجيء طومانباي من الخلف، ارتعب الناس، ارتجفت قلوبهم، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك، يمشي محاوراً له، العتمة في الضوء، زعيق الجند العابرين يجسدون في نفس زكريا شيئاً خفياً، يدرك أنه يعايش الآن أحداثاً جساماً لا تتكرر إلا مرات في عمر الدنيا، من قبل يتغير السلطان، يجيء آخر، لكنهم أفراد جماعة واحدة، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد، يرثي لطومانباي، يعرف أي وضع صعب يلاقيه، عكارة تشاؤم تأوي إلى روح زكريا هو الوحيد في مصر العالم بحقيقة ما سيجيء. لا يستريح إلى وقفة جان بردي الغزالي بجوار طومانباي، وعنده أدلة وشواهد، ابن عثمان وباء جاء في غير ميعاده، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل، شر مسلط. عسكره همج، يعرف زكريا أحوالهم بهائم لا نظام لهم، أسرع الخطى، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة، هذا ما سيناقشه مع الزيني بعد قليل، هذا الزيني الذي

نفذ إلى عمره، فكره وروحه، فحول ما حول وأبدل ما أبدل، عندما قبض على الزيني أدركته دهشة بل مسه خوف، سنوات طويلة يكيد فيها للزيني، في زمن هيج عليه مصر كلها عند واقعة الفوانيس، لن ينسبه شيئاً أبداً أن الزيني دفع إلى بيته بوسيلة الرومية، الزيني أيضاً تسبب في قتلها، أن يوارى جسدها البلوري وحشة القبر، منذ شهور أدرك أن الزيني لم ينشأ نظاماً خاصاً به يحبس الأخبار والأحوال، لم يتبعه بصاص واحد، إنما هم رجال المحتسب العاديون، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكي يعثر على بصاص واحد يتبع الزيني. لم يستطع رجاله، أيقن من براعة رجال الزيني في التخفي. عمل لهم ألف حساب وحساب أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزيني، وألا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزيني، بني نظاماً في الهواء أوجده ولم يوجد، عانى زكريا مرارة الخديعة أياماً لكنه أضمر في نفسه إعجاباً خفياً للزيني، فعلا أن يوجد زكريا بمفرده في زمن واحد أمر لا طعم له، كل منها مخلوق لصاحبه، وجود الزيني أفاد زكريا، حبه إلى قلوب الخلق بعد كره ومقت، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزيني وخداعه، غير الفائدة المباشرة التي أبداها الزيني في عديد من المواقف، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين، يبتسم زكريا. الزيني الذي عرض عليه كل ما قدمه على أساس أنه بعض الطرق المتبعة في نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق، أي إنسان في مصر يعلم بوجود جماعتين جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزيني، هذا كله وهم أشاعه الزيني، لكن الأوضاع ستجد فيما لو، لو اجتاحت وباء العثمانلية مصر؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزيني، بيته في المقطم لا يحوي ورقة، الآن شهاب الحلبي وديوانه وكل ما يحويه في المقر السري للزيني بجلوان، أيضاً الدفاتر والجداول التي أدرج فيها إسم

كل مخلوق يدب على بر مصر حتما سيحتاجها في الأيام القادمة، زمان عندما أمسكوا علي بن أبي الجود وتولى الزيني الأمر راح يوزع أوراقه، قتل معشوق السلطان وغلامه، حتى الآن لم يصل إلى سر العلاقة المكتومة، مات الغلام، مات السلطان، فكم يبدو الزمن بعيداً، سنوات طويلة في كل يوم منها يؤكد قراره بالإجهاد على الزيني، فرص عديدة سنحت له، عندما أرسل الشيخ أبو السعود وأحضر الزيني وبهدله، ليلتها عندما بلغه الأمر، قص شعر رأسه، لا بد من حزم سريع، هذا أمر لا هزل فيه ها هو الزيني بين يدي رجل صالح تقي كلمته لا ترد عند الأمراء، الكبير والصغير، باستطاعة زكريا استنفار أعوانه من كل فج عميق يثير الناس علي الزيني، وينشر الفضائح عليهم، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التي يكتنزها الزيني، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز وأكوام الذهب، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هي المواضع التي كدس فيها الزيني أمواله، حيرة اعتصرته، في توار يخ طائفة الاسماعيلية قرأه مرة، الفداوى المرسل لقتل عظيم أو كبير تواجهه في مهمته لحظات، لحظات يجب الحسم فيها، ليس، مهما صحة القرار أو خطؤه، المهم هو اتخاذ قرار، ربما أضاع التردد حياة الفداوى نفسه، المهم اتخاذ القرار في ذاته، درس قديم طالعه زكريا، في الليلة نفسها قرر، الزيني يجب ألا يروح هدرأ، أرسل في طلب إبراهيم بن السكر والليمون، المعلم ابن كيفه استنفر آذانه وعيونه المنبثة في أنحاء الأرض، بذكاء عظيم، بكافة الطرق عليهم التحدث الى العامة عن عدل الزيني وتقواه وصلاحه، تذكير العامة بما أتاه لهم، ثم ينطلقون إلى ما فعله الشيخ أبو السعود الجارحي، صحيح، الشيخ ولي من أولياء الله وفيه بركة، ولكن ما للمشايخ وأمور السلطنة؟ ما للنسك وأمور الدنيا؟ لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل، وعندما شرع الشيخ أبو السعود في تجريس الزيني بركات

على حماره، شهره في الطرقات راكباً بالمقلوب قرر الأمير إعلان الدوادار الكبير، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول في مصر، بالقسطاط، أرسل زكريا مكتوباً عاجلاً إلى طومانباي يشير فيه إلى مال جسيم لدى الزيني ولا بد من رد المال إلى خزانة السلطنة، فلو شق لصاع المال، والبلاد في أشد الحاجة إليه، ثم هناك أمور هامة تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه ومنوته يعني التسبب في أضرار كثيرة تمس الأمراء والعامّة والسلطنة ذاتها، خاصة في هذه الأوقات العصيبة مع الرسالة نفسها أرسل خطاباً صغيراً يطلب فيه من طومانباي الإقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين الناس حتى لا تضيق هيئته من بين العامة، ولا يتعودوا رؤيته، يعلم زكريا تماماً أن الزيني يفضل الشق على إنقاذ زكريا له، أمثال الزيني يتقبلون ما أقدم عليه زكريا بأنفه، عندما أعيد إلى بيت الشيخ أبو السعود، ورجعوا في شنقه ارتاح زكريا، من يدري؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقله إلا الزيني، زمان مضطرب لا يؤمن فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا، الآن يقترب من بركة الرطل، من الطبيعي لم ينزل إلى المدينة، لم يتجول في أسواقها، نوابه يرسلون إليه التقارير باستمرار، حتى من البلاد التي اجتاحتها ابن عثمان، بعض نوابه راح شهيداً، لم يتصور أنه سيرى الخراب هكذا بين الخلق، المآذن حروف تجمدت في الهواء، ابنه يس وحرمة في أقصى الصعيد، يعاوده نفس الإحساس، يعيش في زمن يشهد أحداثاً كبيرة يندر وقوعها، بيت الزيني يبدو أخيراً، بعد قليل يصغي إليه، ثاني لقاء بينهما منذ خروج الزيني، ياه، ألم يكن غيباً عندما فكر آلاف المرات في الخلاص منه، إبتسامة خفية على شفثيه، لكنه أحقاً فكر في هذا؟ أحقاً؟

نداء نداء

يا أهالي مصر
ينهي إليكم الخنكار العظيم
فاسمعوا
من خبأ عنده مملوكاً شتق
من داري على أموال مملوك شتق
فاسمعوا واعوا

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من دل على مكان طومانباي
له ألف دينار
من أحضره حيا أو ميتاً
له ألف دينار
من حامي الحرمين، والبحار
سليم شاه،
الخنكار العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من رأى منكم
الشيخ أبي السعود الجارحي
من لمح منكم
درويشاً من دراويش
الشيخ أبي السعود
الذين يثيرون الفتنة
ويهاجمون العسكر
ليحضره إلى وطاق جند الخنكار
وله الجزاء العظيم
له الجزاء العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من أخفى منكم جوارى ونساء المماليك
شئت بغير معاودة

نداء

نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر
لا يخرج أحدكم بعد المغيب
لا يرتدي أحد لثاماً
ومن ضبط شئ
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
استكينوا
استكينوا
ومن خالف شئ .

السرايق السادس
كوم الجارج

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان، يضغط ضلوع المؤمن والكافر،
يمحو الأول والآخر، يفرق المثني، ويشئت الجمع، يساوي الظاهر
بالباطن، تعرف كل نفس ما أتت، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت،
أي ذنب جنت؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر إلى كوم الجارح،
ينقبض قلبه، مستقر النبال والرماح، لم يخطئه هدف في ساحة المعارك
والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه، لحظة لا قبلها ولا بعدها،
يسمع لهجته يعرف أي الأفكار تدور في عقل مولاه حوله هو، شخصه
هو، أتى الزمان الذي لا يعرف فيه الإبن أباه، يسأل الأخ عن أخيه
فينكره حتى لو جاوره وقوفاً، أتى اليوم الذي ترمي فيه كل ذات حمل
حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، في الهواء خمدة، أهى
القارة، وما أدراك ما القارعة؟ في الهواء زمته، أهو الدخان الذي
يظهر قبل قيام الساعة؟ الجند الغرباء يفتضون الإيثار على باب جامع
المؤيد، عند القبة التي انحنى فوقها مرات ومرات، خلع حذاءه، ودخل
المسجد العتيق بملاؤه خشوع.

ما الذي بقي إذن؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال، ينزل من المقطم،
يطلع من حوارى الحسينية، يخرج على الناس فجأة من الخليج، من

النيل قبل ميعاد الوفاء، من جزيرة الروضة، من الهزم الأكبر، يركب دابته التي تجس أخبار الدنيا له، يطول الليل، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلاماً مستمراً عتياً، أول خيوط الضوء تدير العقول، ها هي الشمس تطلع من الغرب، ليس قرصاً من ذهب، إنما فطيرة رخوة سوداء، ما الذي بقي إذن؟؟ أظهر أيها السفيفاني، لينفخ في الصور، النفخة الأولى، والثانية، والثالثة، تقبض الأرواح، ويحيى الخراب، أربعون ألف سنة، الوخز في الصدر، أي مرض خلفته الأيام، لكن أي أمر يخشاه، والروح ساحة خرائب، البيوت لا تأمن ساكنيها، ما الذي بقي إذن؟؟

تعرف يا سعيد أنك تتمنى رؤية مولاك، هذا من حقلك طبعاً . . يا سلام يا أخي من علمني حرفاً صرت له عبداً، أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك، يا شعلان . . أي اسم رده سعيد في نومه عندما أويناه زمناً؟

«الشيخ أبو السعود . . لم يذكر غيره . .»

«أرايت . . اذهب إليه، لا تخف، بالعكس نحن نريدك أن تعاود سيرتك معه كالزمن الأول غاماً، نريدك أن تصبح محل ثقته .

لا تنفره منك، اذهب إليه، ارتم على قدميه، ابك . . ابك فعلاً .

سيسألك، أين غبت عنه بعد عودتك، قل له منعوني، لكنني ضربت الآن بمنعهم عرض الحائط وجثتك، ألعن أجدادنا، استمطر. الخراب علينا، قل ما تريد يا سعيد . . ما تشاء، لا بد أن تحيي ثقته بك .

أنت إبنه الذي لم ينجب وأنجبه .

دار حول باب الوزير، مشهد السيدة فاطمة النبوية، قدماه تقطعان الطريق، هذه البيوت لم يرها من زمن، وهج الآمال، رغبة الطواف الجري، الاندفاع، الحب، ملامسة يد حنون، طعام هني بعد غروب شتوي عتيق، أبدأ، لم يطف به شيء من هذا، أخيلة قديمة مخوزقة، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية، إلى الممرات الطويلة ذهب، حفر صغيرة بالجدران، رأى آدميين، «أتعرف هذا؟ كان أميراً كبيراً عظيماً جليل الشأن، له في الحبوس أربعة وثلاثون عاماً، يبول مكانه، يأكل مكانه، نسي اسمه، فعلاً نسي اسمه، نسي الألفاظ والحروف وحركات الصوت وسكناته» حفرة أخرى ضمت سجيناً صبيّاً، لا يعرف الضوء، ولا طعمه، في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم، عمره عشرون، كلها قضائها هنا، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن، بين حجارة الصخر تذوي الأعمار، تفني، تغرب، بين حجارة الصخر، أو في الحجرات الضيقة النظيفة المخيفة، يتمدد صاحبه منصور الآن، فما الذي بقي إذن؟

«ما نطلبه منك. ما نريده. الاستفادة من عظاته وحكمه. أن نعرف ثمين القول الذي يردده. آراءه في الناس. ما ينويه. بالنسبة لطومانباي. منذ دخول الخنكار نعرف أن بقاءه في البيت. لكن هناك مريدين يمشون إليه. من هم. إلى أين يذهبون هناك من يزعم بنية الشيخ على الخروج في أثر طومانباي. لكن هل تصدق هذا أنت، هل يدخل عقلك أن الشيخ أبي السعود، الشيخ الطيب الصالح، الورع التقى. يمكنه حمل سيف وذبح رقبة. أنت أدرى الناس به. إذا كانت هذه نيته فعلاً. فهذا تغير لا بد أن نعلمه. لا شيء. لنستفيد منه

ونفريد . كيف يتحمل العمر الكبير الحرب والهجوم . والكروالفر .
طبعاً . لا تخبره عما نريد . أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه إلى الخلق
كلهم عن طريقنا . بقيت مسألة ثانية .

البيت هادئ مستكين . أحلى العمر قضاءه هنا . هنا رتل عمره
ترتيلاً . غناه عذباً . يخطو عتبة البيت . بأي عينين يواجهه . بأي المعاني
المتبقية في حدقتي العينين .

نعرف انك قادر على هذا . وإلا فلماذا لجأنا إليك . نحن نطلب
معونتك يا سعيد . أنت قريب منا . أنت منا . . أنت بتاعنا .

أنت منا . أنت بتاعنا . .

«أما المسألة الثانية، تعال . . اقرب . . يا شعلان أخرج . . أخرج
لحظات لأن ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده،»

«طبعاً أنت ولا أي مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا، من
هنا عزم الزيني بركات، وبالنسبة، فهو يهديك السلام، ويعتذر لك،
بوده لو رآك، لكن عيون العثمانلية تندس حول بيته، المهم، عزم الزيني
وتوكل على الله، أن ينشئ جماعة تعمل في السر لا في العلن، جماعة من
الشباب الشديد المجاهد أمثالك، تقلق راحة الخنكار، تهدم أركان
الخيانة، ما نطلبه منك يسير، أن تقدم إلينا أسماء الشباب القادر، الذي
لا يتردد بالتضحية بذاته، بنفسه، قدم لنا الأسماء، ونحن سنعرف
طريقنا إليهم، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد،
اتفهمني .

يا سعيد . . اتفهمني؟
طيب كرر علي . . ما الذي أطلبه؟

أهكذا عاد يتطلع حوله، هنا جثا أمام مولاه، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه التمر، هنا لفظ باسمها، لا حس في البيت، السرداب مهدوم، أين راح مولاه؟ ما الذي بقي إذن؟ آه لو يراه لمحّة، سيقول كل شيء، يبوح الخفي، ينثر العطن، يفتح جرحه ليشفي لو يراه لمحّة، بعدها تفنى الدنيا، يعرف أن لفظه ود، ونظرة صفاء ستقابله، يسمع المولي كوابيسه، يبني ما تقوض، لم يخطر بباله أبداً أنه سيأتي إلى هنا يوماً ولا يلقاه، ما الذي بقي إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد، آه، لا فرصة للرجوع، بعيني عقله يرى مولاه، أما زال مولاه؟ يراه ساعياً في الأرياف، يستنفر الخلق، من يدلّه، من يهديه إليه، ذهب مولاه، ما الذي بقي إذن؟؟

السراق السابع
سعيد الجهيني

آه، أعطبوني، وهدموا حصوني..

خارج السراقات

مقتطف أخير من مذكرات الرحالة البندقي
فياسكونتي جاني - ٩١٣ هـ

في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات، في الهواء حوم الموت بارداً لا يرد، رجال ابن عثمان، يدورون في الطرقات، يكبسون البيوت، لا قيمة للجدران الأبواب ملغاة في هذا الزمن، الأمان مفقود، ولا فائدة من أي توسل أو رجاء، لا يثق الإنسان أبداً من طلوع النهار عليه، في حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة، مقلوعة النهدين، تلفت حولي، البلاط المضلع والتراب، في بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشراً انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية، إدخال سيخ محمي في الضلوع، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة، لسان أحدهم مدلى، سؤال أبله معلق، لماذا جرى ما جرى؟ العيون برقوق عطن، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار، اللهاث يشتد وراء طومانباي سلطان البلاد المختفي، خاصة بعد ظهوره المفاجيء في جامع شيخون، والتفاف الخلق حوله، ثم هجموه على ابن عثمان في بولاق، سمعت أنه بمجرد ظهوره في أي مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده، سمعت أن جماعات كبيرة من الدراويش (رجال الدين) انضموا إليه، راحوا يغيرون على جنود العثمانية، الذين

يتطرفون في مشيهم إلى حارات نائية، أو طرقا بعيدة، يقتلون منهم ما استطاعوا، أثار هذا الفزع بين الغزاة، طولبوا بالتزام الحذر. والمشي جماعات، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شقفا كثيراً فوق المدينة، كأن البيوت نفسها أسالت دمعاً؛ رأيت وجه صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانية بيوم واحد؛ في تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة؛ كان منكسراً، لم أره من ليلتها؛ سمعت ممن أثق به أن طومانباي ظهر في الصعيد؛ وأنه جمع آلاف العربان المسلحين حوله؛ وقيل أن ولياً من أولياء الله (قديس) كان يقيم في القاهرة؛ هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه ناراً حامية يستنفر الشعب، وأخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام؛ بل أزيد، وأنه أوتي شجاعة عظيمة؛ وقال محدثي إنه شرب من نبع الحياة؛ ومن شرب من نبع الحياة لا يموت أبداً ولا يهزم قط وفعلاً انطلق في أثره مئات من الشبان الصغار؛ والرجال والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة، وأخبرني محدثي أن هذا الولي (القديس) يطوي معه بيرقاً رهيباً؛ يقال له البيرق النبوي؛ ومتى نشره تهب أمة مصر من أديانها إلى أقصاها؛ فتضع السيف في رقاب الغزاة؛ ولا ترتد حتى تفنيهم؟ أبديت الشك لمحدثي وسألته؛ لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن؟ قال واثقاً إن هذا لا يتم إلا بأمر من عنده، وأشار إلى السماء؛ بكى محدثي وهو شيخ من مشايخ الأزهر؛ قال: جاء في الكتب القديمة؛ «مصر كنانة الله من أرادها بسوء قصمه الله»؛ اليوم فقط نودي في الناس بالأمان قلت لأنزل استقصي الأخبار أدركت مخاطري فالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبي الشيخ ربحان مهتماً محروفاً؛ لم يدلني أحد إليه، سمعت ظهور الرجل الذي تحدثت عنه كثيراً في رحلتي الثانية، الزيني بركات، قال بعض المشايخ أنه يحاول لم الشبان لمجاهدة ابن عثمان لكن أحدهم أبدى شكاً في مقصد

الزيني؛ خاصة بعد طلوعه إلى القلعة مرات عديدة وجلسه مع خاير بك أوقاتاً طويلة، وعلمت أن خاير بك (سبق أن تحدثت عنه) أبدى رضائه على الزيني؛ فعندما دخل الغزاة مصر؛ كان الزيني في بيته مغضوباً عليه من طومانباي السلطان السابق، وكان مجرداً من كل وظائفه ينوب عنه في أهمها أحد نوابه السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفي، لم ينقض اليوم إلا وتحقيق ما سمعت من أخبار قبيل العصر سمعت المنادي يدق طبلاً؛ وقفت منتظراً؛ رأيت ثلاثة جياد سوداء يمتطي كلا منها فارس يحمل في يده ميزاناً وصنجاً وعلماً رسم عليه شعار المحتسب؛ سيفاً مسلولاً؛ وخلفهم جواد أبيض ركبه «الزيني بركات بن موسى» ووراءه ركب شخص بدين لم أعرفه؛ الطريق خال، الخراب الخفي ساع في الفراغ، الدكاكين كلها مغلقة، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن؛ تطلع مارة قلائل؛ أصغوا إلى دقات الطبل هزوا رؤوسهم؛ لم يتوقفوا حاذي الركب ورأيت الزيني يضع لثاماً حول وجهه؛ لا أذكر ملاحه فلم ألتق به إلا مرة واحدة؛ لا بد أن أسعى إليه؛ صاح المنادي؛ يأمر خاير بك بتعيين الزيني بركات بن موسى محتسباً للقاهرة؛ وكل من له شكوى أو مظلمة عليه بالتوجه إليه، ثم يتوقف المنادي لحظة ويتلو أمراً من الزيني نفسه؛ أصغيت؛ ينادي موضحاً العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية القديمة؛ تابعت الركب الصغير المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى؛ وابتعد النداء الخافت في هواء شاحب.

جمال الغيطاني

الجمالية ١٩٧٠ - ١٩٧١

فهرس

لكل أول آخر ولكل بداية نهاية	٥
السراوق الأول	
ما جرى لعل بن أبي الجود وبداية ظهور الزيني بركات بن موسى	١٧
أول النهار	١٩
مرسوم شريف	٢٩
كوم الجارح	٤٣
الأربعاء .. عاشر سؤال	٤٩
أول الليل : الأربعاء عاشر شوال	٥٩
إلى الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة	٦٧
بعض مما وجهه كبير البصاين «الشهاب الأعظم» زكريا بن راضي	
إلى السلطان والأمراء	٦٩
السراوق الثاني	
شروق نجم الزيني بركات، وثبات أمره، وطلوع سعده،	
واتساع حظه	٧١
سعيد الجهيني	٧٥
زكريا بن راضي	٨٧
سعيد الجهيني	١١١

١١٩	سعيد الجهيني
١٢٣	سعيد الجهيني
السرايق الثالث	
١٢٩	وأوله . . وقائع حيس علي بن أبي الجود
١٣٣	اللهم أجعل هذا البلد آمناً
١٣٩	مقتطف «ب»
١٤٣	زكريا بن راضي
١٥٧	عمرو بن العدوي
١٦٦	إلى مقدم بصاصي القاهرة
١٧١	اللهم أجعل هذا البلد آمناً
١٨١	كوم الجارج
السرايق الرابع	
١٨٧	زكريا بن راضي
١٩٧	مقتطف «ح»
٢٠٩	سعيد الجهيني
٢١٦	مقدم بصاصي القاهرة
٢١٧	كوم الجارج
٢١٩	مقتطف من مذكرات الرحالة الإيطالي فياسكونتي جانتي
٢١٩	١٥١٧ م ٩٢٢ هـ
السرايق الخامس	
٢٢٢	«اللهم أجعل هذا البلد آمناً» سري لا يطلع عليه مخلوق . . .
٢٤١	كوم الجارج
٢٤٥	تقرير مرفوع إلى الشهاب الأعظم، زكريا بن راضي، كبير بصاصي السلطنة
٢٤٧	مصيبة كبيرة

٢٦٣	زكريا بن راضي
		السرادق السادس
٢٧١	كوم الجارح
٢٧٣	سعيد الجهيني
		السرادق السابع
٢٧٩	آه اعطوني، وهدموا حصوني
٢٨١	خارج السراقات

الغلاف للفنان حلمي التوني

إن الزيني بركات تدخل الى دائرة الرواية
الطليعية التي تحاول توحيد الحاضر
والماضي في تناقضهما في حق
الممارسة السياسية والكتابة وترصد
استمرار التاريخ في تناقضه . كثيرة هي
الأسئلة التي تثيرها «الزيني بركات» ،
ومهما كانت حدود اجاباتها، وحدود
اجابات الراوية ايضاً، فإن عمل
الغيطاني يشير الى معنى الرواية
المتميزة التي تفارق اشكال الرواية
المقتربة، وتفارق اشكال الكتابة
البسيطة التي لا تقدم الا وهم الرواية .



● يدخل «جمال الغيطاني» في الزيني
بركات الى جوهر الراهن العربي،
فكشف قسامه في شكل ادبي اصيل،
ويخبر عن معناه في مقاربة روائية
رائدة. يهاجر الراوي إلى الماضي
ويكتب بلغة حقيقة الحاضر، او يهاجر
إلى الماضي كي يجد فيه المساحة
الضرورية لكتابة الحاضر، يتعد
الغيطاني في رسمه لمناهة القمع عن
زمن الحاضر، ويوغل في الزمن
الماضي، كي ينتج نموذجا أدبيا يحكى
القمع في توحيد الازمنة، او يحكى
تمائل القمع في أزمنة مختلفة تماثل
بتمائل القمع فيها، يرصد الراوي في
فضاء القمع لحظتين تنفي كل منهما
الأخرى: اللحظة الاولى هي تسيد
القمع في تاريخ السلطة، واللحظة
الثانية هي تحولات موضوع القمع،
الانسان الذي لا يعيش زمانه الا خوفا.

[illegible]